المجلد الخامس عشر — الجزء ٧ و ٨

مجلة المجمع العلمي العربي

أنشئت سنة ١٣٣٩ هـ الموافقة سنة ١٩٢١ م

تنشر في دمشق مرة في الشهر

تموز وآب سنة ١٩٣٧ م

ربيع ثاني وجمادى الاولى سنة ١٣٥٦ هـ

دمشق :

المجمع العلمي العربي

قيمة الاشتراك السنوي الدفع مقدماً { في سورية ولبنان ١٥٠ قرشاً سورياً
وفي جميع الاقطار ٤٠ فرنكاً }

مجاميع المجلة عن السنين الماضية

من السنة الاولى ، ثمن السادسة الى كل سنة منها	في الداخل	٢٥٠
« السابعة الى الثانية عشرة «	«	٢٠٠
« الاولى الى السادسة «	في الخارج	٤٠٠
« السابعة الى الثالثة عشرة «	«	٣٢٥

مطبعة ابن زيدون * بدمشق

عدي بن الرقاع العاملي

١

حياته

هو ابو داود عدي بن زيد بن مالك بن عدي بن الرقاع العاملي من بني عاملة . وهم من عرب اليمن ينتهي نسبهم الى كهلان ثم الى قحطان . نزحوا عن اليمن الى الشام مع من نزح من اليمانيين قبل الاسلام . يقول الهمداني في صفة جزيرة العرب : (ديار عاملة مجاورة للاردن وجبل عاملة مشرف على عكا من قبل البحر يليها ويطل على الاردن) . ويقول أيضاً : (وأما عاملة فهي في جبلها مشرفة على طبرية الى نحو البحر) . ويقول ابن خلدون في كتاب العبر : (إن بني عاملة بطن متسع ومواطنهم ببرية الشام) ويقول القلقشندي في صبح الاعشى : (ان بجبال عاملة من بلاد الشام الجم الغفير من بني عاملة) . ونسب الناس عدياً الى الرقاع وهو جد جده لشهرته .

وقد زعم بعض النساب أن عاملة من معد بن عدنان وليست من قحطان ، ولكن عدياً نفسه يتولى الرد عليهم بقوله :

قحطان والدنا الذي ندعى له   وأبو خزيمة خندق بن نزار

وفي لغة عدي أيضا ما يصحح دعواه قال :

فانك والشعر ذو تزجي قوافيه   كمبتغي الصيد في عريسة الاسد

يريد (الشعر الذي تزجي قوافيه) وذو بمعنى الذي في لغة طيء ، وطيءٌ من قحطان ٠

نحن لا نعلم على التحقيق في أي سنة ولد عدي ولكن يغلب على الظن أن يكون مولده حوالي العقد الرابع من القرن الاول لان من أول ما روي عنه من الشعر أبياتا قالها في زمن يزيد بن معاوية وأنشده اياها ٠ ويزيد بويع بالخلافة سنة ستين وتوفي سنة أربع وستين ٠ فلا نكون مخطئين إذا قدرنا أن عديا كان وقتئذ شابا ٠

اما منزله فقد كان بدمشق كما نص على ذلك صاحب الاغاني ٠ وقال أيضا « هو من حاضرة الشعراء لا من باديتهم » ولقبه ابن دريد في كتاب الاشتقاق بشاعر أهل الشام وعده محمد بن سلام الجمحي في الطبقة السابعة من شعراء الاسلام ٠

نشأ عدي في دمشق عاصمة الدولة الاموية وكان هواه مع بني أمية (يمدح أحياءهم ويرثي أمواتهم) كما قال الوليد بن عبد الملك ، ولا يقف عند هذا الحد بل يرى رأيهم ويقول بقولهم ويؤيد سياستهم ويتحمس لهم وهو سلم لمن أطاعهم وحرب على من عصاهم ، ينصرهم بلسانه وبسيفه لا عن رغبة بل عن رأي وعقيدة ٠ قال يمدح عبد الملك ابن مروان بعد أن ظفر في الوقعة التي كانت بينه وبين مصعب بن الزبير وانتهت بمقتل مصعب بدير الجاثليق :

لعمري لقد اصحرت خيلنا　　باكناف دجلة للمصعب
فقدّمنا واضح وجهه　　كريم الضرائب والمنصب
أعين بنا ونصرنا به　　ومن ينصر الله لم يُغلب
فداؤك أمي وأبناؤها　　وان شئت زدت عليها أبي
وما قلتها رهبة إنما　　يحل العقاب على المذنب
اذا شئت نازلت مستقلا　　أزاحم كالجمل الاجرب
فمن يك منا يبت آمنا　　ومن يك من غيرنا يهرب

أفلا ترى صدق اللهجة في قوله (وما قلتها رهبة ٠٠٠٠) فضلا عن بقية الابيات التي تنبيء بان الشاعر حارب في جيش عبد الملك ٠

فلما توفي عبد الملك وخلفه ابنه الوليد اختص عدي به ومدحه بقصائد من حر الشعر في منها قصيدتان مطلع الاولى :

عرف الديار توهما فاعتادها   من بعدما شمل البلى ابلادها

ومطلع الثانية :

طار الكرى وألم الهم فاكتنعا   وحيل بيني وبين النوم فامتنعا

وأبيات من قصائد خلد بها مآثره واشاد باعماله العظيمة كما مدح ابنه عمر بن الوليد فقربه الوليد وقدمه وكان يدعوه (شاعرنا) ٠ ولئن أحب عدي بني أمية عامة فلقد آثر الوليد منهم خاصة وأخلص في حبه كثيراً حتى تمنى أن يموت بحياته فقال من قصيدة يمدحه بها :

عذنا بذي العرش أن نحيا ونفقده   وان نكون لراع بعده تبعا

ولكن هذه الامنية لم تتحقق فقد توفي الوليد وبويع بعده أخوه سليمان بن عبد الملك فاستقدم عديا وعاتبه ووصله واجتمع مرة عنده مع الفرزدق وجرير وكثير ٠ وتوفي سليمان وخلفه عمر بن عبد العزيز وعدي حي وقد ذكره بشعره إذ يقول :

لو لا اختياري أبا حفص وطاعته   كاد الهوى من غداة البين يعتزم

ولم يذكر صاحب الاغاني ولا ابن عساكر في التاريخ الكبير ولا ابن سلام الجمحي في طبقات الشعراء ولا ابن قتيبة في الشعر والشعراء خبراً لعدي بعد عمر بن عبد العزيز الذي بويع بالخلافة سنة تسع وتسعين وتوفي سنة احدى ومابة فلا يبعد أن يكون عدي توفي في خلافته ٠

وكأن تقدمه عند بني أمية أثار حسد الشعراء له فقد تعرض له جرير في مجلس الوليد بن عبد الملك فناقضه عدي ثم لم تتم بينهما مهاجاة لان الوليد منع جريراً من هجائه فهجاه جرير تعريضاً ولم يصرح باسمه خوفا من الوليد ٠ وهجاه الراعي فرد عليه عدي وكان كثير يبغضه لانه كان يبلغه عن عدي أنه يطعن على شعره ٠

وكان له بنت شاعرة اسمها سلمى فاتاه ناس من الشعراء ليأتنوه وكان غائباً فسمعت بنته وهي صغيرة فخرجت اليهم وقالت :

تجمعتم من كل أوب وبلدة على واحد لا زلتم قرن واحد

فافحمتهم · ويستدل من كنيته على أنه كان له ابن اسمه داود وسماه بعضهم دواداً ولا نعرف من خبره شيئاً · كما أن قوله : (فداؤك أمي وأبناؤها)

بنيَّ بان له اخوة خنيث علينا اعداؤهم ·

وله ديوان شعر ذكره ابن النديم في كتاب الفهرست · وذكر عبد القادر البغدادي في خزانة الادب ج ١ ص ١٠ أنه اطلع على ديوان عدي بن الرقاع وعده في جملة الدواوين التي اعتمد عليها في تأليف الخزانة · ولكن لا يعلم الآن مكان ذلك الديوان ·

صفته واخلاقه

لم ينص أحد ممن ذكر ابن الرقاع على شيء من صفته غير ابن عساكر فقد ذكر أنه كان أبرص · ويصفه لنا عبيد الراعي الشاعر بانه قصير أوقص اذ يهجوه ويقول :

جنادف لاحق بالرأس منكبه كأنه كودن يوشى بكلاب

من معشر كحلت باللؤم اعينهم قفد الاكف لئام غير صياب

جنادف أي قصير أراد أنه أوقص والكودن البرذون ويوشى يستحث والكلاب المهماز واقفد الكف مائلها والصياب السادة · والله يعلم مبلغ هذه الصورة من الصحة · على أن بعض أخباره التي أوردها صاحب الاغاني وابن عساكر مع البقية الباقية من شعره يمكن ان تصف لنا شيئاً من نفسه واخلاقه ·

كان عدي يفخر بما يفخر به فتيان العرب الحب والشجاعة والفصاحة وفي ذلك يقول :

فلقد ثنيت يد الفتاة وسادة لي جاعلا يسرى يديَّ وسادها

وأصاحب الجيش العرمرم فارسا في الخيل أشهد كرها وطرادها

وقصيدة قد بت أجمع بينها حتى أقوم ميلها وسنادها

وكان وافياً لاصحابه في سرائهم وضرائهم لا ينحرف عنهم بانحراف الزمان والسلطان، عزل الوليد بن عبد الملك عبيدة بن عبد الرحمن عن الاردن وضربه وحلقه وأقامه للناس وقال للمتوكلين به من أتاه متوجعا واثنى عليه فائتوني به فأتى عدي بن الرقاع وكان عبيدة اليه محسنا فوقف عليه وأنشأ يقول:

فما عزلوك مسبوقا ولكن الى الخيرات سباقاً جوادا
وكنت اخي وما ولدتك امي وصولا باذلا لي مستزادا
وقد هيضت لنكبتك القدامى كذاك الله يفعل ماأرادا

فوثب المتوكلون به اليه فادخلوه الى الوليد واخبروه بما جرى فتغيظ عليه الوليد وقال له أتمدح رجلا فعلت به ما فعلت؟ فقال يا أمير المؤمنين انه كان الي محسنا ولي مؤثراً وبي براً ففي أي وقت كنت أكافئه بعد هذا اليوم؟ فقال صدقت وكرمت فقد عفوت عنك وعنه لك فخذه وانصرف. وانصرف به الى منزله.

وكان شديد العارضة حاضر الجواب، دخل جرير على الوليد بن عبد الملك وعنده عدي بن الرقاع فقال له الوليد اتعرف هذا؟ فقال لا يا أمير المؤمنين، فمن هو؟ قال هـذا عدي بن الرقاع. فقال جرير: فشر الثياب الرقاع، فمن هو؟ قال من عاملة. قال جرير: أمن التي قال الله تعالى فيها عاملة ناصبة تصلى ناراً حامية ثم قال:

يقصر باع العاملي عن الندي ولكن = العاملي طويل

فقال له عدي:

أأمك كانت اخبرتك بطوله أم انت امرؤ لم تدر كيف تقول

فقال جرير: لابل أدري كيف أقول. فقال الوليد والله ليركبنك شاعرنا ومادحنا والراثي لاموإتنا، تقول هذه المقالة؟ والله لئن هجوته لافعلن ولافعلن. فلم يصرح جرير بهجائه وعرض فقال قصيدته التي أولها:

حي الهدملة من ذات المواعيس

وقال فيها يعرض به:

أقصر فان نزارا لن يفاخرهم فرع لئيم واصل غير مغروس

وابن اللبون اذا ما لز في قرن لم يستطع صولة البزل القناعيس
قد جربت عركتي في كل معترك غلب الاسود فما بال الضغابيس

وكان عدي مدح الوليد بن عبد الملك بقوله :

عذنا بذي العرش أن نحيا ونفقده وأن نكون لراع بعده تبعا

فلما توفي الوليد وبويع بالخلافة لسليمان بن عبد الملك استدعى عديا فلما دخل عليه قال ان كنت لكارها لخلافتي . قال وكيف ذاك يا أمير المؤمنين ؟ قال حين تقول في مدحة الوليد :

عذنا بذي العرش ان نبقى ونفقده وان نكون لراع بعده تبعا

قال ابن الرقاع والله ما هكذا قلت يا امير المؤمنين ولكني قلت :

عذنا بذي العرش ان نبقى ونفقدهم وان نكون لراع بعدهم تبعا

قال او كذلك ؟ قال نعم . فوصله واذن له بالانصراف .

ومن شعره ما يدل على انه كان تياها كثير الاعجاب والذهاب بنفسه قال من قصيدة :

وعلمت حتى ما اسائل واحداً عن علم واحدة لكي ازدادها

واتفق ان عديا لما انشد الوليد بن عبد الملك القصيدة التي منها هذا البيت كان عنده كثير فلما انشد هذا البيت قال كثير كذبت ورب البيت الحرام فليمتحنك امير المؤمنين بأن يسألك عن صغار الامور دون كبارها حتى يتبين جهلك وما كنت قط أحمق منك الآن حيث تظن هذا بنفسك فضحك الوليد ومن حضر .

وروي عن محمد بن المنجم أنه قال : ما احد ذكر لي فأحببت ان اراه فاذا رأيته امرت بصفعه الا عدي بن الرقاع قيل : ولم ذلك قال لقوله :

وعلمت حتى ما اسائل واحدا عن علم واحدة لكي ازدادها

فكنت اعرض عليه اصناف العلوم فكلما مر به شيء ولا يحسنه امرت بصفعه .

وقد سماه جرير الشاعر المغرور حين عرض به فقال :

اني اذا الشاعر المغرور جربني جار لقبر على مران مرموس

ولكنه مع هذا الاعجاب بنفسه لم يقو على مصاولة جرير بل خافه فقد روي أنه

لما اجتمع بجرير عند الوليد بن عبد الملك وهدده جرير بالهجاء وثب عدي إلى رجل الوليد فقبلها وقال اجرني منه ٠

وإذا صح أن تكون الصفات التي ينعت بها الشاعر نفسه دليلاً على أخلاقه جاز لنا أن نقول إن عدياً كان جلداً لا يتضعضع لريب الدهر لقوله :

ونكبة لو رمى الرامي بها حجراً أصم من يابس الصوان لانصدعا

أتت عليّ فلم أنزع لهـا سلبي ولا استكنتُ لها شكوى ولا جزعا

وإنه كان حمولاً على نفسه غير سؤول لقوله :

فسترت عيب معيشتي بتكرم وأبيت في سعة النعيم سدادها

ومهما يكن من مبالغة في هذه الصفات فانها تضرب بعرق إلى الحقيقة في نفس الشاعر ٠ أما هواه السياسي فقد كان مع بني أمية كما تقدم ذكر ذلك في حياته ؟

يتبع : خليل مردم بك



بحث في اللغة العربية (١)

لا يعرف نواقص لغتنا العربية في هذا العصر إلا من عانى الترجمة منها واليهـا في موضوعات مختلفـة زمناً طويلاً ، خذ ابن الأثير وابدأ بترجمة بعض صحائفه مما يتعلق بالعصر العباسي مثلاً ، فإنك لا تلبث أن تقف حائراً أمام كثير من الألفاظ التي دخلت اللغة بتوسع حضارة العرب ، ولا تجد لتلك الألفاظ أثراً حتى في المطولات كلسان والتاج ، كأن اللغة عبارة عن الشعر الجاهلي وما رواه الرواة من كلام أهل البادية ، وإن كل ما خرج عن ذلك هو من اللغو الذي لا يلتفت اليه ، أو كأن اللغة جسم مات بعد ذلك الدهر فكفن بأكفان تلك الأشعار والألفاظ، ودفن في قبور ضيقة من حديد بلا بعث ولا نشر ؟ وتناول كذلك كتاباً يبحث عن صناعة من الصناعات الحديثة في لغة أخرى وحاول ترجمته الى العربية ، فإنك تقف في ذلك الموقف نفسه وتأخذ منك الحيرة كل مأخذ ، فتتوقف في أكثر المصطلحات ولا تجـد معجماً يهديك إلى ما يقابلها في العربية ، فتضطر أحياناً أن تخلق لها لفظاً من عندك أو أن تفيد معناها بألفاظ عديدة ، والأمر فوضى في يد المترجم وقد يحسن وقد يسيء .

ازداد نمو اللغة العربية بعد دوريها الجاهلي والإسلامي وتوسعت بمـا دخلها من مئات

---

(١) المجمع : كان الاستاذ زكي مغامز عضو مجمعنا العلمي قد أرسل قبيل وفاته هذا البحث إلى المجمع ، فعدت عواد حالت دون نشره ، واليوم ننشره تجديداً لذكرى فقيدنا الذي كان رحمه الله يحرص على ان ينشر في حياته ، وفيه من الآراء ما لا يوافقه المجمع عليه ، وقد أشير في التعليقات اليه .

الألفاظ الجديدة من أسماء المأكول والمشروب والملبوس والأثاث وتنوع أسباب المعايش ومصطلحات الصناعات والحرف والعلوم الإسلامية والدخيلة ، دع المصطلحات الإدارية والقضائية والعسكرية والمالية التي حدثت بعامل توسع الدولة كما هو معروف ، لان السلف الصالح من العرب قد نقلوا علوم الاوائل إلى لغتهم وتوسعوا فيها بالاختراع والابتكار ، واقتبسوا من الامم التي تقدمتهم في المدنية كل ما ليس عندهم ، وقد كتب علماء العرب كل ذلك في مؤلفات مخلدة ما زالت تشهد لهم بالذكاء المتكامل والجهاد العظيم في سبيل العلم فتوسعوا في اللغة وأفادوا بها كل معنى دخلها ووضعوا لكل علم مصطلحه وجعلوا كل ذلك ملكاً حلالا للغة ، كما توسع الناس من جميع الطبقات في مظاهر العيش وانتشرت بينهم أسباب الرخاء والترف مما لم يكن لهم به عهد في سالف الزمن ،وعينوا لكل شيء ما يميزه من الاسماء والألفاظ وتداولوها في أحاديثهم وكتاباتهم ؛ ولكن علماء اللغة عدوا كل ما لم ينطق به قدماء العرب من الدخيل الركيك ، وجعلوا الاعتداد به عيباً وعاراً ، فخلت المعاجم العربية من هذه الألفاظ وامتلأت بأشياء لا يحتاج اليها الا المتبحرون من علماء اللغة وهم القليل من أفراد الامة،وبقي السواد الأعظم بلا معجم عام يرجعون اليه في ما يلزمهم فهمه ولا يفهمونه ؛ زد على ذلك افتراق اللغات العامية عن لغة الكتابة في كل صقع وقطر ، بحيث أصبح العربي العامي غريباً عن لغة آبائه وأجداده ، لا يستطيع الإحسان فيها إلا بعد الجهد الكبير ، كأنه يتعلم لغة أجنبية ، وهي مصيبة عظمى لا يعادلها مصيبة ، مني بها العرب في كل مكان و كانت من أكبر عوامل تأخرهم في هذا العصر وفي العصور التي سبقته ، اذ خالفوا السنة المتبعة في لغات سائر الأمم الراقية من وحدة اللغة تكلماً وكتابة . ولا ريب ان رقي تلك الامم كشف عنهم هذه المصيبة بعكس ما هو عندنا فإن في تأخرنا قد عضل هذا الداء وظل أعظم عثرة في سبيل تقدمنا ، ولا يرجى للعرب نجاة من هذه البلية الا ان يبلغوا شأو الامم الراقية في العلوم والترقي فتأتي وحدة اللغة من نفسها .

اللغة ملك للأمة بأسرها لا ملك أفراد معدودين منها ، والحاجة اليها عامة سواء للخواص والعوام ، فكما أن للغة منهجاً شعرياً وأدبياً فكذلك لها أيضاً مناهج كثيرة أخرى تتألف منها أجزاء اللغة ، فلها منهج لمن يقرؤون الحكايات والقصص ، ولها منهج

لارباب العلوم والفنون على تنوعها ، ولها منهج لاهل الصناعات والحرف على اختلافها وكثرتها ، فالنجار مثلا ينبغي ان يرى في فهرست اللغة المتداولة في أيدى الناس (المعجم) جميع حركاته في صناعته وأسامي آلاته وادواته حتى اصغرها وأدقها ، فإن ذلك جزء من اللغة غير خارج عنها ، وهكذا الجزار والطباخ والحوذي والصباغ والحائك والعطار والبقال والبزاز والملاح والحلاق والتاجر والصراف والصحاف والفلاح والحداد والإسكاف والبيطار والحجام والكحال والحجار والصقال والقصار الى ما لا يحصى من الصناعات والحرف القديمة ، فضلاً عما جد من الصناعات المصرية وأهلها ، ومن جملتها الآلات المختلفة الحديثة التي تتحرك بقوة البخار كالقاطرات في سكك الحديد، أو بقوة الكهرباء كالترام الكهربائي او بالمحركات الكهربائية (موتور) على اختلاف أشكالها وقوتها كالسيارات والطيارات والدراجات والغواصات وما شابهها . ان كل ذلك يلزم أن يسمى بأسماء معينة لا يشوبها ظن ولا ريب ويجمعه معجم مختصر مفيد (منقح متناسب متناسق) بأسلوب عملي خال من التعقيد موضح بالصور والمصورات مراعى فيه المنفعة العامة لا براعة اللغويين (ممن يليق ان نسميهم كتاب العصور الوسطى الذين يعيشون في هذا العصر بذلك الرأس) على مثال معجم لاروس الصغير الجامع لكل شيء متصل بالحاجة بعيد عن الزوائد التي لا تمس الحاجة اليها ، وهذا المعجم (أي معجم لاروس) هو مثال ينادي بأن كل أمة لا يكون لها معجم مثل هذا لا يطلق عليها اسم امة راقية .

زارني أحد أصدقائي القدماء ، وهو عربي الأصل ، ولكنه لا يعرف اللغة العربية حق معرفتها لأنه نشأ في المدارس التركية وقضى أوقاته في وظائف الحكومة ولم يشتغل بالعلم بعد المدرسة ، وكأنه قد شعر في الزمن الأخير بأنه أخطأ في إهماله لغة آبائه وأجداده ، فأحب أن يمارس قراءة الكتب العربية تلافياً لما فاته منها ، فسألني عن معجم عربي تسهل مراجعته ولا يمل قارئه بزوائد ليس له حاجة بها ليستعين به على فهم ما يشكل عليه فهمه من ألفاظ اللغة ، وبعد أن أعملت الفكر ونظرت إلى مقدار استعداد صديقي لم أستطع أن أرشده إلا الى (المنجد) ذاك المعجم الصغير المختصر طبع اليسوعيين مع علمي بنقصانه وببعض أغلاط رأيتها فيه من قبيل المصادفة وهي أغلاط

وقعت في بعض أسماء الحيوان والنبات ، وكاتبه معذور في ذلك فإن تلك الأسماء جاءت من معجمات اللغة التي يكثر فيها الاكتفاء بقول (اسم حيوان) أو (اسم نبات) بلا تعيين وإيضاح فاضطر المؤلف إلى تعيين أسماء وصور لمسميات أخرى ؛ والسبب في اختياري (المنجد) على سواه هو علمي بأن صديقي لم يعتد إلا مراجعة المعاجم الفرنسوية أو التركية السهلة الخالية من الزوائد وليس له جلد على قراءة صحيفة أو صحيفتين للوصول إلى الكلمة التي يريدها كما هو الحال في محيط المحيط واللسان والتاج والقاموس ، وهو فوق ذلك لا يعرف تجريد الكلمات إلى الثلاثي أو الرباعي ليهتدي إلى أماكنها ، والمجرد هو العمدة في معاجم لغة العرب كما هو معلوم ، وهو بالطبع يجهل تماماً البحث عن الألفاظ بأحرفها الأخيرة كما في اللسان والتاج والقاموس وسائر المعاجم القديمة ، بل يضيق صدره إذا رأى أقرب الموارد وهو من أحدث المعاجم وأجودها طبعاً وورقاً وأحرفاً بتألف من ثلاث مجلدات ضخمة فيزيد على حالة المبتدئ والمتوسط ولا يغني المنتهي اللغوي الجشم ، وهو أيضاً عمدته الثلاثي والرباعي المجردان لا أحرف الالفاظ كما هي الحال في معاجم اللغات الأخرى ، وكل فضيلة في هذا المعجم هي في حسن الترتيب والتنسيق في الكلمات وحذف الألفاظ المستهجنة التي لا توافق هذا العصر ، وقد أوصيت صديقي بأن يقتني أيضاً المعجم الفرنسوي طبع اليسوعيين من الفرنسوية إلى العربية ، ومن العربية إلى الفرنسوية ، حتى إذا أشكل عليه فهم كلمة راجعها في هذين المعجمين [1] ولا يستغني عن معجم لاروس الصغير فإن ذلك يتلافى ما لا يراه في هذين المعجمين وينفعه كثيراً ، لأني فرضت أن حالة صديقي تعادل حالة تلميذ في مدرسة غربية متوسطة ولا يجوز تحميله أشياء فوق طاقته .

وهنا لا بد لي من أن أعترف بحقيقة لازمتني في حياتي العلمية في كتابة الجرائد والترجمة وهي أني لم أستفد من اللسان والتاج الا نادراً ، بل اني ما زلت في عجب

(١) كل هذه المعاجم هي معاجم ناقصة ابتدائية لا تفي بالحاجة الا أنها تصلح أن تكون أساساً لمعاجم أكمل منها تكتب بعدها .

عجيب [1] أن يبقى العرب محتاجين في هذا العصر الى مراجعة معاجم كتبت قبل مئات من السنين، وهذا يكفي وحده للدلالة على أنهم مازالوا يعيشون في تلك العصور القديمة ولا يعلمون ان حق هذه الكتب ان تحفظ في المتاحف كالمتحجرات القديمة ، وان حقهم في هذا العصر أن يكون لهم معاجم عصرية راقية ؛ ولكني قد استفدت كثيراً من محيط المحيط وترجمة الفيروزابادي في التركية ، لاحتواء الاول على ألفاظ دخيلة لا غنى عنها في مطالعة الكتب العلمية العربية ، وعلى بعض فوائد خارجة عن موضوع المعجم اللغوي ، علمها المؤلف في أثناء مطالعة الكتب الاخرى فأضافها الى معجمه عند تأليفه وقد أحسن عملا وأفاد ، ولولا ذلك لما كان حوى هذا المعجم فضلا يمتاز به على غيره ، إلاما كان من تسهيل المراجعة بالحرف الاول من الالفاظ؛ اما ترجمة قاموس الفيروزبادي فقد أضاف المترجم خلال الترجمة الى الاصل أشياء ذات فائدة لا تنكر، وعين لبعض الاسماء مسمياتها بالتركية ، بما دل على غزارة علمه وكفايته لمثل هذه الترجمة ، وكل ذلك جاء فيه بوضوح تام بحيث أصبحت الترجمة احسن من الأصل واوسع مادة واصح قولا لمن يعرف التركية ؛ ولو استطاع أحد الكتاب العصريين أن يجرد من هذه الترجمة الاصل العربي ، ويعتمد على ما يقابلها في التركية من الالفاظ ، وينسقها في صورة معجم عصري ، لتألف من ذلك احسن معجم كتب بالتركية للتركية حتى الآن ، لان هذه الالفاظ مازالت مستعملة في معظم أنحاء الاناضول وشتان بينهـا وبين ما يتشدق به بعضهم من الالفاظ الطورانية القديمة التي تذهب هباء بعد وضعهـا ولا يستعملها الآتي بها الا مرة ، فجامع الفاظ قاموس الفيروزابادي بالتركية قد ضم الالفاظ التركية الصحيحة المستعملة .

وكذلك استفدت من المعاجم الفرنسوية لليسوعيين ومعاجم شمس الدين سامي بك بالفرنسوية وبالتركية ، فكنت كلما اشتبهت بلفظ من الالفاظ أبحث عما يقابله في احدى الثلاث اللغات التي أعرفها العربية والفرنسوية والتركية ، فأهتدي الى ما ينفعني في الكتابة

---

(١) المجمع : وهذا رأي غريب ، فان من ينقر عن ألفاظ المصطلحات العلمية ، والذي يكتب في موضوعات علمية يحتاجان الي المعاجم القديمة ابداً .

والترجمة بفضل مثل هذه المقابلة والتحقيق ، وما ذلك الا لان هذه المعاجم مكتوبة على نمط عصري، ويكفي ان يراجع الانسان الكلمة التي يريدها ليجدها بسرعة ولا يضيع لوقت عبثاً ، وقد ضاق الوقت في هذا الزمان بحيث لا يستطيع الانسان اضاعته في غير محله ؛ ومن الفوائد التي وجدتها في المعجم التركي لشمس الدين سامي بك إشارته الى أصول بعض الالفاظ الدخيلة العربية وخصوصاً الالفاظ التي عربها العرب من اليونانية والفارسية والعبرانية والسريانية وتثبيته الاصول بأحرف اللغات التي نقلت منها لان المؤلف كان له المام بلغات عديدة ، وهذا لم يفعل مثله مؤلفو المعاجم قديماً وحديثاً ، وكل ما أشاروا اليه في بعض ألفاظ دخيلة اكتفاؤهم بقولهم انها من الدخيل فقط غير مصرحين باللغات التي جاء منها اللفظ الدخيل ، وهذا يؤيد ما روي من القول عن احد كبار الاساتذة المحدثين في احدى المقالات التي نشرت في مجلة مجمعنا العلمي من انه يجب على الذين يشتغلون بعلوم اللغة العربية أن يكون لهم المام باللغات اليونانية والعبرانية والسريانية والفارسية والحبشية والمصرية القديمة والحميرية الخ لان هذه اللغات كان لها تأثير كبير في العربية سواء في دورها القديم اوفيما بعده .

وليست غايتي مما تقدم من القول ان أنتقد المعاجم او أمدحها ، أو أن اطلب للغة العربية معجماً راقياً مثل قاموس لاروس الصغير ، وأعيب على العرب تأخرهم وعجزهم عن ذلك ، لان معجم لاروس هو نتيجة رقي تلك اللغة وتفوق أهلها على العرب زمناً لا يقل عن قرن أو قرنين ، وليس للعرب لغة مترقية مثل تلك اللغة ، ولا علماء قديرون مثل أولئك العلماء ، ولا أحرف ومطابع وطابعون مثل أحرفهم ومطابعهم وطابعي الكتب عندهم، ولا رواج للعلم عند العرب كالرواج الذي عند اولئك ، فمعجم لاروس مثلا يباع منه في السنة مئات الالوف ، وكلما مر على طبع الكتاب برهة من الزمن يضيفون اليه ما جد في اللغة ، ويكررون طبعه في شكل أحسن واكمل بأحرف جديدة وطبع نظيف متقن ، والطابع عندهم يسترد رأس مال الكتب التي يطبعها في سنة او سنتين فيطبع غيرها ، هكذا تنمو وتزداد مطبوعاتهم على عكس ما في بلاد الشرق القريب ، فان المعجم او الكتب العلمية الاخرى التي تطبع فيها قد لا يستوفي طابعها رأس المال الذي وضعه إلا بعد عشر سنين أو عشرين سنة ، وقد لا يستوفيه بعد خمسين سنة ، وما ذلك إلا

لقلة ميل الناس للعلوم ولا سيما النافعة منها ، وهناك بون شاسع بين حروفهم وحروف العربية ، وإذا شئت أن تعلم ذاك الفرق العظيم تخذ صحيفة من صحائف معجم لاروس وترجم ما فيه الى العربية ، واجمعه بأحرف مطبعية ، واطبعه فانك ترى الصحيفة أصبحت أربع صحائف ، وذلك لان احرفهم صغيرة لا تشغل محلاً كبيراً من الورق ، وهي جميلة جيدة لانها تتجدد في كل وقت ، وحالتهم الاقتصادية تسمح لهم بالتجديد والتحسين على الايام ، وبالجري على ما يقتضي به الزمان والحاجة ، وهذا ما لم يسمح به الزمان للعرب ولا لطابعي كتبهم الى اليوم ، ولذلك ترى معظم الجرائد السورية والمجموعات والكتب التي تطبع في بلاد الشام في منتهى التأخر والقبح من حيث أحرفها القديمة المكسرة وجمع الاحرف على غير قاعدة علمية وطبعها بشكل وسخ وبلا قياس (عيار) منتظم بين الصحائف ولا سيما الصفحة الاخرى التي في ظهرها ؛ وهذا يقال عن الاكثرية ، ولكن هناك مطابع قد اتقنت صناعة الطبع بما في وسع الاحرف العربية من إمكان الاتقان كالمطبعة التي طبعت (مجمع اللآل) للاحدب وهي مطبعة فذة في بابها ليس لها ما يعادلها في بلاد الشام ولا في غيرها من البلاد العربية الاخرى أو غير العربية ، ولا بأس ببعض مطابع مصر وإن كانت لم تبلغ مدى مطبعة مجمع اللآل [1] ، ولكن محاسن الطباعة العربية ضئيلة أمام الأكثرية في منتهى التأخر ، وما زلت أتعجب والترك يضحكون من طبع معظم الجرائد المصرية بأحرف كبيرة من نوع ٢٤ بنطاً ، وجرائد أمم الغرب تسعى لتصغير أحرفها حرصاً على تزييد المادة الفكرية بما يتسع لها من المجال من صغر الاحرف ، ويكفي أن يلقي الانسان نظرة الى الانسيكلوبيدية الانكليزية المطبوعة بأحرف دقيقة على ورق رقيق لا يتمزق بسهولة ليرى الفرق بين مطبوعات الامم الراقية ومطبوعاتنا المتأخرة ويعلم سر تفوق تلك الامم وقوتها وسيطرتها ؛ وهنا يجوز لي أن أذكر السبب الاساسي الذي جعل الترك يتركون الاحرف العربية ويستبدلونها بالاحرف اللاتينية ، والسبب الحقيقي ليس افتراق العرب فقط عن الترك كما يظن بعضهم ، ولا عداؤهم للعرب فقط بعث بهم الى هذا التبديل ، بل ان القضية اجتماعية وتاريخية ، لا مسألة عواطف وغضب ، فان الترك لما رأوا تقدم امم الغرب اقدموا على إصلاح الاحرف

(١) أما اليوم ففي مصر مطابع تفوق مطبعة الآل في الاتقان والجمال .

العربية بكل ما لديهم من الجهد والغيرة ، وهم الذين خدموا الخط العربي عصوراً طويلة خدمةً لا ينكرها عليهم احد ، والمصاحف التي كتبها خطـاطو الترك المتداولة والمخطوطات المحفوظة تشهد لاولئك الخطاطين بالفضل الكبير على هذا الخط ، ولكن كما كان النابغون من الترك يتقدمون خطوة في سبيل ترقية الطباعة بالاحرف العربية كانت الموانع الكامنة في اشكال الخط العربي ككتابة الاحرف بعضها فوق بعض واتصال بعضها ببعض والنقط والحركات ترجعهم الى الوراء خطوات ؛ ومن المعلوم ان اللغة التركية ليس فيها بعض الاحرف العربية كالثاء والحاء والخاء والذال والصاد والضاد والطاء والظاء والعين والقاف والواو (بتلفظها العربي) فكانوا يستعملون هذه الاحرف على الاغلب في الكلمات العربية ولا يتلفظون بها كما يتلفظ بها العرب ، وكانوا يضيفون الى الاحرف العربية الباء المثلثة والجيم المثلثة والزاي المثلثة والكاف الفارسية والكاف الصامتة التركية لتأدية بعض الالفاظ التركية والالفاظ الفارسية المستعملة في اللغة التركية ؛ وقد بلغ عدد اشكال الاحرف العربية ـ التركية في صفات المطابع خمسة وثمانين شكلا على النمط البسيط ، وبلغ عدد أشكال الصفة الكاملة الجامعة للاحرف الهوائية أيضاً مائة وعشرين شكلا ، ولا يخفى ما في ذلك من الصعوبة وضياع الوقت لجامعي الحروف ، وقد أرادوا الكتابة بآلات الكتابة الحديثة كما يفعل الغربيون حتى الروم والارمن من الامم المحكومة الشرقية فلم ينجحوا ، لكثرة الاحرف وقبح منظرها كما قل عددها ، فضلا عن الصعوبة التي يصادفها العامل على الآلة ، ثم ارادوا ايضاً جمع الاحرف المطبعية بالآلات المستعملة في اوربا بعد اقتنائهم آلات الطبع السريعة العمل (روتاتيف) وتفرغ لهذا الامر بعض جامعي الاحرف وسافروا الى لوندرة وقضوا فيها زمناً طويلا في صب الحرف العربي وترتيبه على الآلة والتمرن عليه ، ثم عادوا واشترت المطبعة العامرة (التي أصبح اسمها الآن مطبعة الدولة) آلتين من هذا النوع تتحركان بالكهرباء حتى اذا نجحتا يقتني أصحاب الجرائد والمطابع مثلهما تخفيفاً للنفقات الكبيرة التي يدفعها أصحاب الجرائد والمطابع أجرة الى جامعي الأحرف ، لان أعظم نفقة في الجرائد كانت أجرة جامعي الأحرف ، وكانت حملا ثقيلا عجز أكثر أصحاب الجرائد عن تحمله ، والجامع الواحد على آلة الجمع يستطيع أن يقوم بعمل ستة من الجامعين ؛ ويصب الأحرف صبا

كما جمعها فتكون أحرفاً جديدة وتطبع الجريدة بها قطعة واحدة أو بعض قطع بشكل نظيف وطبع متقن . ثم تذاب بعد انتهاء الطبع ولا يتحمل صاحب الجريدة الخسارة التي تأتي من كثرة استعمال الأحرف وعتقها وتجديدها من آن لآخر ؛ ولكن هذه التجربة أيضاً لم تأت بفائدة فإن الآلتين كانتا لا تجمعان الأحرف بسرعة ، وكانتا في كل يوم تتعطلان فيقف الجامعون بلا عمل إلى حين إصلاحهما ، وكانت الأحرف التي تجمع بواسطة الآلة مختصرة بعض الاختصار من حيث الخط كما هي الحالة في آلة الكتابة ، فما كان يستحسنها الناظر إليها لنقصها عن حسن الأحرف التي تجمع باليد ، فلما تحقق عدم إمكان استعمال هذه الآلة بالأحرف العربية تركها أصحابها وذهبت النفقات هباء منثوراً . ثم توسلت العسكرية قبل الحرب العالمية للكتابة بالأحرف منفصلة بلا وصل بينها ، فحدث من جراء ذلك فوضى لم يعهد الناس مثلها في الجندية ، فعدل المبتدعون عن بدعتهم وعادت الأمور إلى ما كانت عليه قبلاً ؛ ولكن بقي النشء الجديد من الأتراك يتذمرون من الأحرف العربية وعدم قابليتها للإصلاح ، وكانوا كلما نظروا إلى تقدم الغرب ازداد حنقهم على الأحرف العربية وعداؤهم لها ، ومما زاد نفورهم من الأحرف العربية والألفاظ العربية المستعملة في اللغة التركية هو أن أكثر النشء الجديد التركي انصب على تعلم اللغات الغربية منذ أكثر من أربعين سنة وضاق الوقت أمامه عن تعلم اللغة العربية بعكس ما كان في القديم ، بل صعب عليه تعلم القواعد العربية الواردة في الصرف التركي فبقي يجهلها وأصبح يكتب لغته بكثير من الأغلاط القبيحة فيها ، وكان هذا يأتي بالتشديد من انتقاد المتضلعين في اللغة فنشأ من ذلك حزبان حزب المحافظين وحزب المجددين ، واتصلت بينهما المناقشات عهداً طويلاً حتى كان الظفر في نهاية الأمر للحزب الثاني مع ارتكابه الغلط وجهله بآداب اللغة ؛ لأن الزمان كان في عونه ، كما أن حزب تحرير المرأة قد فاز وحزب المحافظة على الحجاب قد خذل ، وليس الفضل في الظفرين إلا للحاجة ودواعي الزمان لا سعي الساعين فقط ؛ ولما انتهت الحرب العالمية بافتراق العرب عن الترك وأحرز الكماليون بعد ذلك الظفر على اليونان ، وقضوا على مطامع الغرب كما يقولون ، ولم يبق لهم في البلاد معارض من الحزب القديم ولا رجل من العرب الذين كان لهم أكبر تأثير في الشؤون الإسلامية ، تولى الغازي مصطفى كمال

باشا قيادة الثورة الادبية التي قام بها النشء الجديد التركي ، وأعلن إبطال الأحرف العربية ، واستعمال الاحرف اللاتينية في محلها ، وهي فكرة قد جاءت بتأثيرها ، بعدما اختمرت أحقاباً طويلة كما مر ، ولا يتحقق الشيء إلا بعد أن تتهيأ أسبابه ، وعلى ذلك أحضر الناس والحكومة من أوربة عشرات الالوف من آلات الكتابة بالاحرف اللاتينية ، وعم استعمالها في مصالح الحكومة ومكاتب المحامين وبيوت التجارة وإدارات الجرائد ، بحيث انك لا ترى بعد هذا الانقلاب محلا خالياً من هذه الآلات ، وأعظم المولعين بهذه الالات اليوم هم الشبان والاولاد والفتيات خصوصاً العاجزين منهم عن حسن الخط والكتابة بلا غلط ، وقد أحضر بعض أصحاب الجرائد آلات جمع الأحرف ، وأخذوا يجمعون أحرف جرائدهم بهذه الالات ، ومن يمر بجادة الباب العالي (وهي جادة أنقرة الآن) يرى مصفة أو مجمعة جريدة (مليت) معروضة على أنظار العابرين ، وفيها ثلاث أو أربع آلات كبيرة وأمام كل آلة جامع يجمع الاحرف وهو قاعد على مقعد كأنه يكتب على آلة الكتابة ، ومثل هذا الانقلاب العظيم لا يقال عنه انه خطوة الى الامام بل هو من قبيل الطيران الحلق في الجو المجهول العاقبة الذي لم يسبق له أمثال في التاريخ منذ ظهور الكتابة في دور العمران البشري . ولم يذكر لنا التاريخ ان أمة ذات لغة وكتابة قطعت مراحل كثيرة في العلوم والأدب كالامة التركية أبدلت فجأة أحرفها بأحرف أخرى ، ولذلك لا يستطيع أحد أن يتنبأ منذ الآن بما عسى أن تكون نتيجة هذا الانقلاب ، هل تكون خيراً أم شراً ؟ ولكن النشء الجديدالتركي يرى أن لا إمكان لتأورب الترك (أي أن ينقلبوا أوربيين) وتقدمهم في العلوم والتمدن ولحوقهم أمم الغرب المترقية الا بهذا الانقلاب ، فاما أن تعيش أمتهم في مصاف تلك الامم ، واما أن يفعل الله بها ما يشاء ؟ وعندهم أن الانتحار أفضل من أن تعيش أمتهم مصابة بأدواء عضالة قديمة لاتستطيع النهوض منها، من جملتها الاحرف العربية المخالفة لفن الكتابة والطباعة العصري ، وتسلط اللغة العربية على لغتهم ، والعرب متأخرون في كل مكان ، ولم يبق للترك منفعة من اهتمامهم باللغة العربية ولا بالعرب ، بل لا يكون لهم من التصاقهم بالعرب الا التأخر والسقوط .

هذا ما يقوله شبان الترك ، والمنصف الذي يأخذ الامور على حقائقها يرى أن

الباعث للترك الى تغيير أحرفهم واستبدالها بالاحرف اللاتينية ليس الا يأسهم من ماض طال عهده ولم يأت بالتقدم الذي يطلبه العصر ؛ وهم غيورون على استقلالهم ، فرأوا أنهم اذا لم يتشبهوا بالغرب وترقيه ضاع منهم الملك والاستقلال ضياعاً لا يمكن تداركه ، وما أصاب البلاد الاسلامية في كل مكان من الاسر والرق والعبودية كان لهم أكبر عبرة اعتبروا به ، فهجروا القديم من قوانين وعادات ومعيشة وعلم وأدب ، ولبسوا الجديد من الأساليب العصرية ، وهم دائبون في هذه الطريق ، والغاية التجرد من التشرق ، والتأورب في كل شيء ، وقد يبلغون غايتهم عاجلا او آجلا ما لم تحدث أمور عظيمة غير منتظرة كظهور حرب عالمية في وقت قريب واشتراك تركية بها ، ومها يكن من الامر فانهم فرحون بما فعلوا ويفعلون وتسليتهم في ذلك انهم فعلوا الممكن واجروا الواجب عليهم امام التيار الجارف الناشئ عن ترقي امم الغرب .

إن غايتي من هذا البحث هي لفت أنظار العرب ولاسيما أرباب الاقلام منهم الى ما يحتاجون اليه من نهضة سريعة عصرية في اللغة ووسائطها ، لان اللغة هي آلة الترقي والتقدم وعجزها ونقصانها يوجب العجز والنقصان في جميع اسباب الترقي والتقدم ، وقد التزمت تطويل البحث تعمداً وتوسعت في البحث كثيراً ، والرائد الاصلي هو الترقي في العلوم العصرية حتى تترقى اللغة ويشمل الترقي كل شيء ، وهذا لا يكون الا بمتابعة الامم الراقية في العصر الحاضر التي بلغت في التقدم شأواً لم يبلغه احد قبلها لا من العرب ولا من غير العرب متابعة بلا تردد ولا توقف ولا مناقشة ولا مكابرة .

وها انا اذكر باختصار آرائي فيما يتعلق باللغة العربية ولا ادعي العصمة والصواب ؛ ولكني اعتقد ان الصواب ليس بعيداً عما اقول ، واني اقوم بواجب وجداني للامة العربية باختياري اللهجة الواضحة في اقوالي ، ولا يهمني ان رضي بعضهم او سخط آخر ، فان الزمان أصبح شديد الوطأة لا يهمل ولا يمهل ، وكفى ما افتخرنا به من المكابرة والجهل والرياء الذي موّه به ، ومازال يتاجر به كثير من كتاب الغرب الذين يستثمرون الغفلة المستولية على الامة العربية في كل مكان ، واول ما اقول هو ما يقوله الترك لامتهم : يجب الخروج من الحالة الشرقية والتأورب في كل شيء ، واليك التفصيل بالبيان الصريح :

اولا ـ يجب ترك [1] جميع الكتب التي الفها العرب او ترجموها في عصورهم القديمة وحفظها في دور الكتب ككتب تاريخية في العلوم القديمة يطالعها من يشاء من المتبحرين في تاريخ تلك العلوم ، وعدم طبعها وتداولها بعد الآن ، كما يفعل علماء المشرقيات في الغرب بأمثالها ، فهذه الكتب ألفت لزمان انقضى وجيل مضى ولهجتها لهجة ذاك الزمان ، وكانت مفيدة يتداولها الناس في ذلك الزمان القديم ، اذ كانت جامعة لمنتهى ما وصل اليه الناس من العلوم ؛ ولكنها اليوم أصبحت ضارة اذا أضاع الناس أوقاتهم بمطالعتها وسمموا أذهانهم بما توحيه اليهم من تأثير قهقرى وضيق فكر وتأخر وخذلان ، لان العلوم قد ترقت وتبدلت وبعدت عن تلك الدائرة بعداً شاسعاً ، فابن هذا العصر لا يتغذى بمثل ذلك الغذاء ، فاذا تغذى به قتلت ذاكرته وعميت بصيرته ؛ ولا استثني منها كتاباً حتى كتب التاريخ والادب ؛ وعلى طابعي الكتب العربية أن يطبعوا الكتب العصرية من نتائج الترقي الحاضر ، ولاسيما الترجمة الصحيحة الجيدة منها التي تجعل قارئها ابن العصر الحاضر بدلا من طبع الكتب القديمة التي تجر بقارئها الى العلم الابتدائي الخاص بالعصور الوسطى وبذلك تزداد المادة العصرية ويقف تيار التقهقر الذي مازال يجرف تقدم الامة العربية .

ثانيا ـ تحويل اللغة العربية الى شكل بسيط سهل الفهم ، سهل الكتابة ، مع عدم الاخلال باساس اللغة ، ومن حظ العرب أن الزمان قد نسج هذا النسيج ونمت اللغة البسيطة نمواً طبيعياً ، وهي لغة الجرائد ولغة بعض الكتاب والمؤلفين الذين ينظرون الى المعاني لا الى الالفاظ ، فترى عباراتهم سلسة لا يحتاج قارئها الى قراءتها ثانيا وثالثاً ليتمكن من فهم المعنى ، الا أنك ترى من جهة أخرى أنه ما زال كثير

(١) المجمع — هذا رأي مضر كل الضرر . افكان يظن الكاتب ان الامة العربية يمكنها التخلي عن تلك الثروة ، او ان الانكليز والفرنسيين مثلا يمكنهم التخلي عن الثروة التي تركها لهم كتابهم في القرن السابع عشر والثامن عشر والتاسع عشر لا في الآداب فحسب بل في أسس العلوم الحاضرة ؟

ومن قال له إننا لا نطبع كتباً في العلوم الحديثة وهل يظن أن هذه تغني عن كتبنا القديمة ولاسيما الادبية منها ، فما هذا الرأي ؟

من كتاب العربية وأدبائها يتوخون في الكتابة الجمل المغلقة والالفاظ المهجورة أو شبه المهجورة اظهاراً لبراعة الانشاء ، فتأتي كتاباتهم عبارة عن الفاظ بلا معنى وجعجعة بلا طحن ، وسبب طاي عدم الاخلال باساس اللغة هو ان المتكلمين بالعربية منتشرون في ممالك مختلفة ، وكل مملكة بل كل بلد منها له لغة عامية تختلف عن الاخرى ، ولا قياس أو معادلة بين ترقي مكان منها وترقي المكان الآخر ، والكل في تأخر وتدني تختلف الدرجات بالنظر الى ترقي حضارة العصر الحاضر ، ولا يوجد بين هذه الممالك الشاسعة الاطراف جامعة أو رابطة الا جامعة اللغة التي احتفظ بها السلف الكريم وتركوها خير ذخر للخلف واكرم تراث ورثناه عنهم ، ولكن الضغط الاتي من رجحان كفة الغربيين أخل بتوازن الحالة الاجتماعية في الشرق وكان له تأثير كبير في كل شيء ، حتى في اللغة فلم تسلم منه ، وهل اللغة غير شيء من الحياة الاجتماعية للامة تعلو باعتلاء حضارة الامة وتتأخر بتأخرها ؟ وكان من جملة التأثير الذي أصاب اللغة العربية محاولة بعضهم اقامة اللغة العامية محل لغة الكتابة التي بقيت واحدة عند العرب مهما اختلفت المذاهب والديار بينهم ، وما تولد مثل هذه الاراء الا أمر طبيعي لا يستغرب ظهوره ما دامت اللغات العامية في كل قطر غير لغة القطر الآخر وغير لغة الكتابة ، فالمحاولون لمثل هذه البدعة قد يجدون استعداداً واسعاً إذا لم يتدارك امره الغيورون على الجامعة العربية ولذلك أرى من الضروري تقريب لغة الكتابة من أذهان العوام ، وهذا لا يكون الا بجعل لغة الكتابة بسيطة سهلة القواعد لاتحتوي إلا على الالفاظ التي يحتاج اليها الكاتب العملي وترك الزوائد التي أهملها الزمان .

ثالثاً - لاجل الوصول الى ذلك يجب اصلاح معاجم اللغة وكتب الصرف والنحو والقراءة والانشاء والبيان ونشر القراءة بين أعلى الطبقات وادناها ، ويقوم اصلاح المعاجم بحذف جميع الالفاظ والمعاني القبيحة والمشتقات التي لم يستعملها السلف الا نادراً ، وهي كثيرة جداً فانك لا تجد اصلا من الثلاثي أو الرباعي ولا من مزيداتهما الا وترى فيه معنى أو معاني كثيرة تدل على العلاقة الجنسية أو ما شابهها ، ومثل هذا لا تراه في معاجم اللغات الاخرى ، وكذلك ترى كثيراً من الالفاظ قد ملأت المعاجم ، ولم يستعملها الا شاعر جاهلي ، أو جاءت في ضرب مثل أو غيره نقل عن البادية ولم

ولم يستعمله الناس الا في الكتب ، فهذه الالفاظ يجب حذفها أيضاً ، وهكذا يجب حذف كثير من الفاظ أهل البادية التي أصبح أهل البادية أنفسهم يجهلونها ولا يتكلمون بها ولم يعد لها فائدة الا تسويد بطون الاوراق عبثاً وتشويش الاذهان بمطالعتها . كل ذلك مما يجب حذفه بتجريد معاجم اللغة منه ، وبذلك يخف عن اللغة نصف الحمل وتبقى الالفاظ اللازمة للغة هذا العصر ، ومن شاء أن يتوسع في علم اللغة ويطالع أشعار أهل الجاهلية وما كتبه أئمة اللغة وفحول الشعراء والبلغاء (أصحاب المقامات العجيبة الشكل والمعنى) فلا يصعب عليه مراجعة المعاجم وكتب اللغة التي كتبت في تلك العصور لاهل ذلك الزمان ، ولا تجد في العرب واحداً في الالف يميل الى هذا التوسع ، ولا يهمنا هذا العدد القليل بل يهمنا التسعمائة والتسعة والتسعون ، وهم ركن الامة ، ومتى انطوت تلك الالفاظ وفرغ مكانها يجب ملؤه أو ملء قسم منه بما دخل اللغة من الفاظ جديدة كالطيارة والسيارة والدراجة والمنطاد والمدفع والبندقية والكهرباء والبرق والهاتف والقطار والمحطة والمطار والمعمل (فابريكة) والمصحة (كلينيك) والمشرحة والباخرة والبارجة والمدرعة والطرادة والغطاسة والغواصة والمرجل والرذاذ والقذافة والشاحنة والقاطرة والمنطاد المسير (ديريجابل) والحافلة الساهرة وكثير من أمثال هذه الالفاظ التي دخلت اللغة وثبتت لسهولة استعمالها وشدة الحاجة اليها . وسيدخل اللغة مئات اخرى من أمثال هذه الالفاظ بعامل الرقي الحاضر ، وهذا غير ما دخل ويدخل اللغة عن طريق الاقتباس والتعريب كالميكروب [1] ورسم الكروكي وغاز الكبريتيك والتحليل البكتريولوجي والتيفوس الطفحي والملاريا والحمى التيفوئيدية والدفتريا (الخناق) والانفلونزة والتيتانوس والدوسنطاريا والبالة والبلاج والكازينو والروليت والترام والكربون والبترول والترانسيت وكثير غيرها من الاسماء والمصطلحات

(١) المجمع : قد وضع لاكثر هذه الالفاظ اسماء عربية عم استعمالها كالتحليل الجرائيمي والكزاز (التتانوس) والارومة (الكربون) والنفط (اسم عربي قديم للبترول) ومن هذه الاسماء الاعجمية ما يمكن تعريبه كالترام (للترامواي) والراد (للراديو) والبت في ذلك لمجمعي اللغة العربية في الشام ومصر .

في سائر العلوم والحرف والاشياء التي اكتشف العلم والحضارة مسمياتها في العصور الاخيرة ولم تكن معروفة عند العرب ، وسيدخل اللغة الفاظ اخرى من صفات وافعال واسماء لتأدية المعاني التي تنقل من اللغات الاخرى ولا يوجد ما يقابلها في اللغة العربية كتعريب السلف من الفارسية (تازه) بلفظ طازج و (ساده) بلفظ (ساذج) وغيرهما من الالفاظ ، ولا يعرف حاجة اللغة لمثل ذلك الا من عانى الترجمة من اللغات الاخرى .

وبمثل هذا التمكن والانقلاب يمكن تحويل اللغة العربية الى لغة عصرية جامعة لما كان وما يكون في السماء وفي الارض ، ويمكن وضع معجم عصري على مثال لاروس يتكمل مع الزمان ؛ ويجب قبل كل شيء تحرير اللغة من عبوديتها اليدوية وترك الحكم فيها لعوامل التمدن الحاضر ؛ اما كتب الصرف والنحو والقراءة والانشاء والبيان فينبغي ايضاً أن نأخذ فيها مأخذ كتب اللغة ، فالقواعد يجب أن توضع للالفاظ المستعملة والامثال يجب أن تؤخذ من الكلام الشائع بين الناس لا أن يؤتى بكل ما نطق العرب به ويوضع له قواعد ويؤخذ مثالا لها كما هو الواقع في كتب الصرف والنحو عند العرب . وأمامنا أمم قد اعتلت علواً كبيراً في سماء التمدن الحاضر وعلوها هذا قد شمل جميع وسائل الحياة العلمية ، فينبغي أن نجعل كتبنا في الصرف والنحو والانشاء والبيان وأشكال التعليم والتدريس قدوة لنا ، وان نأخذ الامثلة من أقوالنا العصرية المشبعة بما وصل اليه الترقي الحديث ، لا أن نقلد القديم وننقل القديم الذي لا يلائم هذا العصر ونحن في غفلة لا ننتبه منها .

رابعاً ــ التسامح في توسيع المجاز عند ايجاد ما يقابل الالفاظ الجديدة ، على شرط أن تكون الالفاظ معروفة لا مهجورة ليسهل قبولها واستعمالها والا فانها تذهب عبثاً ؛ وينبغي منذ الآن التسليم بأننا مهما اجتهدنا وبالغنا في البحث والتنقيب فاننا لا نستطيع أن نجد لكل شيء حديث اسماً في العربية يميزه عن غيره ، ولذلك لا بد من تعريب كثير من الالفاظ الاجنبية وادخالها في اللغة ، واضرب لذلك مثالا صغيراً وهو اننا قد اطلقنا اسم (سيارة) للاوتوموبيل ولكن للسيارة انواع وكل منها له اسم مخصوص وهذا فضلا على الكاميون والكاميونيت والاوتوكار ، فكل هذه الاسماء تحتاج الى ما يقابلها في اللغة العربية ؛ ولو اردنا ان نجمع هذه الالفاظ من كل مبتكر حديث لبلغ عددها

الاول . ولذلك لا بد من تعريب أكثر هذه الألفاظ الحديثة ، إذ ليس في الامكان ايجاد ألفاظ عربية لها كلها ؛ ومتى عربناها دخلت في ألفاظ اللغة ودواوينها

خامساً — أرى أنه لا بد من ضم اربعة أحرف الى الالف باء العربية وهي الباء المثلثة والجيم المثلثة والكاف الفارسية واستعمال الغين والواو والهاء في الاسماء الخاصة الاجنبية في محل G و V و E مع إثبات حروف الحركات ، وبذلك يمكن التلفظ بتلك الالفاظ كما هي في أصولها وحفظها من المسخ والتحريف الذي يطرأ عليها من التعريب ، فلا تصبح مشكلة يصعب معرفة أصلها كما هي الحالة في كثير من المعربات ، يجب أن يكتب پيهر في محل بيار أو بيير ، وبوانكاره في محل بوانكاري ، وويانه محل فينا ، وويكتور هوغو في محل فيكتور هيكو ، وبورتوآلله غرو محل بورتواليغرو ، ودانته في محل دانتي ، وچلپي في محل جلبي أو شلبي ، ومارسيليه في محل مرسيلية وهكذا في جميع الاعلام نتابع فيها تلفظ الاصل .

سادساً — إصلاح الشعر العربي بتحريره من اللهجة البدوية والفاظ البادية والتوسع في الاوزان والقوافي وترك الالفاظ المهجورة التي يستعملها الشعراء اضطراراً لضيق الوزن والقافية ، ولا يفهمها من يقرأ تلك الاشعار الا بعد مراجعة المعاجم وضياع لذة الشعر ، فقد وضع اهل الجاهلية هذه الاوزان والقوافي ومعاني البادية قبل عهد لا يقل عن الف وخمسمائة سنة ، وكانت متناسبة مع عصرهم وكانوا الموجدين المبدعين فيها ، فهم آباء الشعر العربي كما ان بقراط كان ابا الطب وهيرودوت أبا التاريخ ، وقد انقضى عهد الجاهلية وخلقنا في عصر لا شبه بينه وبين العصور القديمة ، فكما ان كل شيء توسع وتكمل تابعاً للترقي الحاضر فكذلك لابد من توسيع نطاق الشعر وجعله ملائماً لحاجة هذا العصر .

سابعاً — اني ألفت النظر الى الموسيقى الغربية لانها الموسيقى العلمية التي لا بد لكل أمة تطلب الحياة أن تقتبسها ، ولا يجسر أحد على التنبؤ بأن العرب سيبقون في تأخرهم الحاضر ولا يتأوربون ، ولا يشتد ساعدهم فيجارون حملة الحضارة في الامم الحاضرة ؛ بل أقول إنه لا بد من أن يأتي يوم قريب أو بعيد ينظم فيه شعراء العرب الوقائع المرسحية على شكل اوپيره او اوپيريت ، وتقوم جوقة من

العرب تترنم بهذه الأشعار ، وكل صوت له نغمته الموسيقية تحت قيادة مؤلفة من خمسين أو ستين موسيقياً ؛ وليست القضية الا قضية زمان ليس غير ، ولذلك أرجو من قادة الشعر العربي الواقفين على علوم الغرب أن ينظروا الى المستقبل عند نهضتهم في الشعر ، فان الامة متى ترقت لا تتغذى الا بالموسيقى العلمية وهي موسيقى الغرب فيلزم أن تنتبه الأذهان منذ الآن الى ذلك .

ثامناً — أكرر لفت النظر الى آلات الكتابة وآلات الطبع فكما ان اللسان هو الآلة الناطقة ، فآلات الكتابة والطبع ، وفي جملتها الاحرف ، هي آلات النطق الصامت ، ولا يمكن ان تترقى الامة في عامة الامور الا اذا ترقت في وسائط الكتابة والطبع . وكما ينبغي استعمال احدث الالات في الطيران واللاسلكي كذلك يجب استعمال احدث آلة وجدت للكتابة والطبع ، ولهذا الفت النظر واترك الفكرة فيه لمن يقومون بالنهضة الحقيقية للعرب لاعلاء شأن العرب الى مستوى الغرب وتأريبهم .

فهذا ما اردت كتابته ولفت النظر اليه ، وارجو ان يتأمل فيه كل من يهمه شأن هذه الامة ويبدي فكره بكل صراحة كما فعلت ، ولا يهاب فيما يقول الا ضميره . ومرمى نظري هو البعيد لا الحالة الحاضرة ، ولكن اذا لم يفكر الانسان بالبعيد يمر الوقت ولا يصل الى الغاية المقصودة ، وهذا هو سبب استمرار تأخر العرب في هذا العصر . وخلاصة القول اني اطلب للعرب التأووب في كل شيء ومتى عزموا وتوسلوا بالاسباب وفقوا حتى وجدانهم امام سيل ترقي الغرب الذي لا ينصف ولا يرحم الا اذا قوبل بمثل تفوقه وتقدمه .

زكي مغامز

عضو المجمع العلمي العربي



طرائف لغوية

مقتبسة من سيرة « السيد رشيد رضا »
تأليف عضو مجمعنا العلمي الامير شكيب
أرسلان ، وفي هذا الجزء من المجلة
بيان وتقريظ لهذه السيرة الجليلة .

يقول أمير البيان في حاشية الصفحة ٣٤٦ من هذا الكتاب ما نصه :

« كنت دائماً إذا وجدت في كلام السيد لفظة لا أجد لها أصلا في اللغة أعترض عليه فيها ، وأسأله عن الوجه الذي عنده في هذه اللفظة ، وكان هو يفعل معي كذلك ، وسنورد جل ما وقع بيننا من المطارحات اللغوية لأن فيها فوائد لطلاب العربية . »

جاء في رسالة للسيد رشيد رضا رحمه الله ص ٣٤٤ ما نصه :

(الدعاية) وردت في كتاب النبي (ص) إلى هرقل قال : « أدعوك بدعاية الإسلام » كما في كتاب « بدء الوحي » من أول صحيح البخاري ، وهي كالدعوة الكثيرة الاستعمال في كل ما يدعى اليه ، فأحييت استعمال الكلمة الطريفة في الدعوة الخاصة بالمذاهب العامة من سياسية ودينية ، واتبعني بها كثير من الكتاب (١) .

وجاء في رسالة أخرى للسيد رشيد ص ٦٩٥ ما نصه :

« سألتني في كتاب سابق عن كلمة دعاية وقد خطرت في بالي الآن فذكرتها

هنا بغير مناسبة لئلا أنساها بعد كما نسيتها من قبل فأقول : انها وردت في أصح الروايات في كتب النبي (ص) إلى الملوك كما تراه في البخاري وغيره ، وأنا الذي روّجتها في الاستعمال ، فهي من شواهد حجتك على الذين ينكرون كل ما لم يرد في كتب المعاجم المتداولة ، ونقل رواة الصحاح من الحديث أوثق من رواة اللغة ، وقد ورد دعاوة بالفتح في دعوة النسب وقلب الواو في الكسر ياء لمناسبة الكسرة ، وهذا القلب جائز لا واجب كما ورد في القوام والقيام » .

وجاء في رسالة أخرى للسيد ص ٦٦٨ ما نصه :

« وأما المنتقد اللغوي فقد ذهب به الادلال بنظرياته إلى الجرأة على ما تقول في الحديث النبوي ، فلفظ الدعاية ثابت في رواية البخاري وفي أصح الروايات ، وهو مقيس ومثله الشكاية من شكا يشكو ، وهو أيضاً منقول في لسان العرب ومستدرك الزبيدي على القاموس (٣) ... هذا وإنني لم أذكر لك أن لفظ الدعاوة قد ورد في اللغة إلا لبيان أن كون أصل المادة واوية لا يمنع قلب الواو ياء لمناسبة كسر أول الكلمة ، وجملة القول أن لفظة الدعاية وردت بأصح الروايات وهي مقيسة . »

وعلق مؤلف هذه السيرة الرشيدية الامير شكيب أرسلان على الرقم (١) من الشذرة الأولى ما نصه :

« نعم قد صار هذا الاستعمال تماماً في معنى ما يسميه الافرنج (بروباغندا) وقد سألت السيد رشيداً عن مصدرها فأجابني بهذا الجواب ، وسألت غيره من علماء الحديث مثل الاستاذ تقي الدين الهلالي المغربي السجلماسي فأيد كلام السيد رشيد ، وقد جاء في لسان العرب خبر هذا الكتاب من النبي عليه السلام إلى هرقل : « أدعوك بدعاية الإسلام » أي بدعوته ؛ ولكنه قال بعدها : وفي رواية « بداعية الإسلام » وهو مصدر بمعنى الدعوة كالعافية والعاقبة ، والأنصر صاحب المصباح على الدعاوة ، ولهذا تمسك بعضهم بأن دعاية قد تكون خطأ نسخ ، وأن أصلها الدعاوة لا يجوز غيرها ، وعللوا ذلك بأن الفعل واوي ، وأن الدعاية بالياء ، والحقيقة أن نسخ البخاري لا تعد ولا تحصى ، فلو كانت الدعاية من خطأ النسخ

لكان العلماء أصلحوها ، ومن المعلوم أن علماء اللغة في المحدثين كحمصي البطحاء ، فليس السيد رشيد رضا وحده بالذي روى ذلك ؛ وأما كون الفعل واويا قد يمنع من انقلاب الواو ياء ، ولذلك أمثال كثيرة ، جاء في لسان العرب : سنت السانية تسنو سنواً إذا استقت ، وسناية وسناوة ، وهو في صوّابة قومه وصوابة قومه ، والنقاوة والنقاية من كل شيء ، والنقاوة والنقاية من كل شيء ، وهي الثغية والثغوة ، وداهية دهواء ودهياء ، وله غنم قنوة وقنية وقنوان وقنيان ، وأهل العالية يقولون القصوى وأهل نجد يقولون القصيا ، وأتوت به أتاوة وإتاية ، ورغاية اللبن ورغاوته ، وجباية الخراج وجباوته وهو بلو سفر وبلي سفر وهلم جرّاً مما لا يحصى .

وجاء في التعليقة الارسلانية على الرقم (٢) من الشذرة الرشيدية الثالثة ما نصه :

« جاء في مخصص ابن سيده صفحة ١٩ من الجزء الرابع عشر ما يلي : وأرى كيف تدخل الياء على الواو ، والواو على الياء من غير علة ، إما لمعاقبة عند القبيلة الواحدة من العرب ، وإما لافتراق القبيلتين في اللغتين ؛ فأما ما دخلت فيه الواو على الياء والياء على الواو لعلة فلا حاجة بنا إلى ذكره في هذا الكتاب لأنه قانون من قوانين التصريف ، قال الأصمعي : سألت المفضل عن قول الأعشى :

لعمري لمن أمسى من القوم شاخصاً . لقد نال خيصاً من عفيرةَ خائصا

فقلت . ما معنى خيصاً خائصاً ؟ فقال : أراه من قولهم : فلان يخوّص من العطاء في بني فلان ، أي يقلله » . فكأن خيصاً شيء يسير ، ثم بالغ بقوله : خائصاً كما قالوا موت مائت ؛ قلت له : فقد كان يجب أن يقول : لقد نال خوصاً إذ هو من قولهم : هو مخوّص العطاء . فقال : هو على المعاقبة ، وهي لغة لأهل الحجاز وليست مطردة في لغتهم ، وأنا أذكر منها بحسب ما يحضرني إن شاء الله . قال ابن السكيت : أهل الحجاز يسمون الصّوّاغ الصياغ ، قال : ويقولون المياثر والمواثر ، والمواثق والمياثق (وأخذ يورد من الأمثال) . التأوّب والتأيب

وشيطه وشوّطه ، وقد دوّخوا الرجل وديخوه ، وقد فاد يفود ويفيد في الموت ، وعار يعور ويعير إذا ذهب ههنا وههنا ، وغارني الرجل يغيرني ويغورني إذا أعطاك الدية ، وقد تحيزت وتحوّزت ، وتوّهت الرجل وتيهته ، وطوّحته وطيحته ، وماهت الركية تموه وقد قيل تميه وتماه ، ويقال طال طولك وطال طيلك ، وضاره يضيره ، وزعم الكسائي أنه سمع بعض أهل العالية يقول : لا ينفعني ذلك ولا يضورني ، وأن فلاناً لسريع الأوبة وقوم يحوّلون الواو ياء ، فيقولون سريع الأيبة ، وقوم يقولون : لاته يليته ولغة أخرى يلوته ، إلى أن يقول :

تبوّغ الدم بصاحبه غلبه ، وفي الحديث : إذا تبيّغ الدم بصاحبه فليحتجم وما أعيج من كلامه بشيء ، وبنو أسد يقولون : ما أعوج بكلامه ، ويقال : هو من صيابة قومه وصوّابة قومه ، وثور وثورة وثيرة ، وقد تصيّح البقل إذا هاج وتصوّح ، وتصيّم ، وتصوع وأقاوم وأقايم ، وتهير الجرف وتهور ، وفاحت ريحه تفيح فيحاً وفاحت ريحه فوحاً ، والطوع والطيع ، ويقول بعضهم : حكوت عنه الكلام أي حكيت ، وطما الماء يطمي ويطمو ، وكذلك ينمي وينمو ، ومقا الطست أي جلاها يمقوها ويمقيها ، وقد نثوت الحديث ونثيته ، وقليت رأسه بالسيف وقلوت ، ونأيت ونأوت ، وداهية دهياء ودهواء ، وغنم قنوة وقنية ، والنقاوة من كل شيء خياره ، والنقاية والنقاوة ، وعزيته إلى أبيه وبنو أسد يقولون : عزوته الى أبيه ، وحثيت عليه التراب وحثوته ، وما كان مرضياً ومرضواً ، وأهل العالية يقولون : القصوى وأهل نجد يقولون القصيا ؛ وحكى الفراء عن الكسائي : سناها الغيث يسنوها فهي مسنوّة ومسنية ، ومحوت الطين عن الارض ومحيته ، وقد أتوت به إتاية وأتاوة ، ورثوته ورثيته ، ورغابة اللبن ورغاوته ، ومحوت أمحو ومحيت أمحي ، وجبوت الخراج وجبيته جباوة وجباية ، وطغوت يارجل وطغيت ، وهذوت وهذيت ، ولحوت العصا ولحيتها ولحيت اللحم ولحوته ، وقد صغوت وصغيت ، ولغوت ولغيت ، وعلوت وعليت وسلوت وسليت ١٠٠ هـ باختصار .

ب ـ ولم يذكر الفيروزابادي إلا الدعاوة بالواو ؛ ولكنه ذكر أن دعيت لغة في

دعوت ، وذكر الزبيدي فيما استدركه على القاموس دعاية الاسلام بكسر أوله وهي دعوته .

وقد أعاد الاستاذ الرشيد طبع « آخر بني سراج » في مطبعة المنار ، وهي رواية شاتوبريان المشهورة التي كان الأمير شكيب قد عرّبها في شباب آدابه ، فعثر السيد رشيد على بعض ألفاظ وتعابير لم يرض نسبتها إلى أمير البيان فأرسل إليه رسالة لغوية مطولة ص ٣٨٣ نقتصر منها على ما يلي ص ٣٨٥ :

« النوع الثاني ما هو من الاصل وسببه في الاكثر كثرة استعمال المعاصرين وهو قسمان : أحدهما المفردات والثاني الجمل والأساليب ، فمن المفردات قولكم : الخطر المحيق (هذه وقعت سهواً) ، والصواب في مثله الثلاثي كقوله تعالى : (وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون) وقوله : (ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله) ويعدى حاق بالهمزة فيقال : حاق به السوء وأحاق الله به .

ويشبهها قولكم : ضجة مهولة ، وإنما يقال : هاله الأمر أو الخطب ، وفي الأساس : أمر هائل وهوّل الأمر جعله هائلا ، ثم في مجازه : مكان مهول أي فيه هول ، ولا يظهر مثله في وصف الضجة ، وإنما صححت مثل هذا مع علمي باحتجاجكم أو إمكانه بمثل « مكان مهول (١) »

ومنها قولكم : (إن هذا لنبأ عظيم) وهنا غيرتُ الموصوف فقلتُ : الخطب عظيم ، لان النبأ خاص بالكلام ، وليس المقام مقام كلام بل مقام وصف ابن سراج لأرقه وذله .

ومنها (ارتياد التعاشيب) والتعاشيب نص في مرادكم فإنها النبذ المتفرقة من العشب ، وأظن أن هذه من غلط الطبع ، وإلا فهي من سبق القلم ، والاول أرجح ، فإن الكلمة من الفرائد غير المستعملة عند ضعفاء الكتاب الذين جنوا على جهابذتهم (إنما كتبتها تعاشيب وأردت أن أحيي بها كلمة فصيحة مجهولة تقريباً عند ضعفاء الكتاب .)

الثاني : الجمل والأساليب ، وما استنكرته من هذا القسم أكثر من غيره وقد كاشفتكم بشيء منه قبل الشروع في الطبع ، فعلمتم مما رجعتم إليّ من القول فيه : ان بعض ما هو قطعي عندي أو قريب من القطعي مما يترجح أو يمكن أن يكون موضع بحث وجدال طويل عندكم ، فصححتُ ما رجحت أو جزمت باستحسانكم لتصحيحه إن لم يكن لاعتقادكم بأنه خطأ أو غير فصيح فلاعتقادكم بأن بدله صحيح فصيح أو أنه أفصح ، وأذكر بعض الأمثلة على هذا القسم غير مرتبة :

(١) قولكم : (ومرت الفلك بريح طيبة) استبدلت به (وجرت الفلك به بريح طيبة) ووجهه أن السرى خاص بما كان في الليل ، ولا محل لهذا التخصيص ، وان ما ذكرته موافق لقوله تعالى : (وجرين بهم بريح طيبة) وقد خطر ببالي أنكم أردتم استعمال أسلوب القرآن فلم تتذكروا الآية ، وقد راجعت أستاذنا (الشيخ محمد عبده) مرة في كلمة كتبها في مقالات الإسلام والنصرانية مخالفة لاستعمال القرآن وهي صواب في نفسها ، وكانت المراجعة كتابية فكتب إليّ بأن أصححها أو أغيرها ، وعلل ذلك بأنه لا يجب مخالفة أسلوب القرآن ولو إلى صواب ، والكلمة المذكورة « نصح له » أو « وهب له » لا أتذكر أيهما الآن .

(٢) مثل (وما هو ذلك القصر) ، وهذا مما يكثر في كلام المعاصرين وهو مأخوذ من اصطلاح المناطقة في السؤال عن ماهية الشيء ، وكلمة الماهية مشتقة منه ، وهو من اصطلاحهم وقلدهم كثيرون والضمير فيه (هو لا حاجة اليه ولا مرجع له) والمدققون من الكتاب ومصححي الانشاء في وزارة المعارف يخطئونه ويرمجون الضمير مما يصححون ، وفي الكتاب العزيز : (قال وما رب العالمين) .

(٣) قولك : (ولذلك فإن بقايا آياته) وفيه ان ما بعد الفاء لا يعمل فيما قبلها ، وان الجمع بين لام التعليل وفاء السببية لا حاجة اليه في أكثر هذه الاستعمالات

التي كثرت جداً في اسلوب المعاصرين غير المدققين ، والوجه في الجمع بينهما تقديم الفاء كأن يقال : فلذلك يقال كذا .

(٤) كلمة (فضلا عن كذا) في مقام الاثبات ، وقد تكرر في كلامكم لانه صار من الاستعمال المألوف عند العلماء منذ قرون ، ولكن المتقدمين قلما يستعملونه الا بعد النفي ، لما لهم من التخريج النحوي له مع تصريح بعضهم بأنه ليس من كلام العرب ؛ فتقدير الكلام في (فلان لا يملك درهماً فضلا عن دينار) : أنه فقد ملك درهم فقداً فاضلا وزائداً عن فقد ملك دينار الخ... ولا بد ان تكونوا اطلعتم على هذا ونسيتموه ، ولا سيما عند الاستعمال فجريتم على ما تقرأون دائما في الكتب والجرائد ، وكم وقعت أنا وغيري في مثل هذا ، ومنه قولكم في كون المسلمين أحوج من النصارى الى الماء : (لانه فضلا عن الشراب يلزمهم لاجل الوضوء) فبمَ تنصب كلمة فضلا هنا ؟

واستعمال (يلزمهم) هنا بمعنى يحتاجون اليه لا أعرف له أصلا في اللغة ، وإنما هو عصري حديث ، ولكن لا ادري متى كان استعماله ، ولعلكم تعرفون له اصلا فانني لم أراجع عنه باستقصاء؟

ومنه قولكم في وصف غناء أو ماء (وتجود بكل نغمة يترنح لها الجلمود فضلا عن كون الموسيقى الاسبانية في طبيعتها ما اشتملت عليه من كذا وكذا تفعل كذا وكذا) فيجوز ان تكونوا اطلعتم على تخريج يرضيكم لمثل هذا الاستعمال ، ويجوز أيضاً ان تكونوا قد اطلعتم على نص فيه لم نطلع عليه نحن، ولا مثل أبي حيان الاندلسي الذي بحث ما لم نبحث ؛ ولكن ما أظن انه يسخطكم تغيير هذا الاستعمال أنا وأمثالي مما لا تنكرونه بدليل انكم قرأتموه ولم تعدوه خطأ ، على أني لا اتذكر أني غيرت هذا الاستعمال في كل مكان ، وإنما عرفت هذين الموضعين لانهما مما كنت وضعت عليه علامات الاستنكار.

(٥) يقرب من هذا الاستعمال مثال قولكم : (ولكن كأني بهذا الطريق بدلا عن أن يزداد بهم حركة وأنساً ازداد وحشة ووحدة) وقولكم (ولكن وا أسفاه بدلا من قرع الطبول لم يكن حول ابن حامد إلا السكوت التام)

فيقف الذهن هنـا في (بدلا) المنصوبة حتى يجيء ما بعدها فيلتمس لها ناصباً بالتقدير في الكلام ، وبتأخيرها معا يتعلق بها يزول هذا التعقيد ، ومن الخطأ في الجملة الاولى وضع (عن) مكان (من) والمنقول (بدل منه) كما في الجملة الثانية ، وربما كانت الاولى من غلط الطبع ، والمعاصرون يستعملونها .

(٦) ومثله فيما تقدم وحقه التأخير قولكم (وأصلحته تزيد رونقـا وجلالا صباحةَ وجهه) فصباحة وجهه مفعول أول ، ورونق مفعول ثانـ ، وتقديمه خلاف الاصل ، فلا ينبغي الا لضرورة شعر او نكتة من نكت المعاني ، وانا أعتقد انك اذا لم توافقني الان على هذا فطتّه انك ألفت قراءة هذه الرواية لانها من أوائل ترجمتك ، بل أعتقد انك لولا هذه الالفة لصححت منهـا عند قراءتها الاخيرة الفاظاً وجملاً كثيرة مما لا تراك تستعمله الان ، واعيد التذكير بأن المراد تصحيح ما ينافي الفصاحة والبلاغة لا ما ينافي قواعد الاعراب ومفردات اللغة فقط .

(٧) قولك (ثم تحفزا وتواثبا الواحد على الآخر) ولا يعزب عنك انـ معنى تواثبا وثب احدهما على الآخر ، فلا حاجة معها الى قولك : الواحد على الاخر .

(٨) ومثله (وصاروا يتظاهرون بعضهم على بعض) وهو ما يسمونه لغة البراغيث والفصيح يتظاهر بعضهم على بعض .

(٩) وأبعد منها عن الفصاحة بل عن الصواب قولك : (وبقيت سرايا الفريقين تتردد الى غزو بعضها بعضاً ، فانه من عدوى الجرائد واشالها من مكتوبات المعاصرين التي لا نقبلها لغة البراغيث وبتجنبها من دونك من الكتاب المتأنقين .

(١٠) وأتذكر ان مما تكرر وهو لا يرضيك الان مثل (نحو ثلاثمائة) باضافة نحو الى العدد ، والمنقول عن الفصحاء (نحو من كذا) فانـ وجد نقل للاول فلا اذكره ولا أجد وقتاً للمراجعة الطويلة وحسبي من القصيرة اقتصار أساس البلاغة على قوله : وعنده نحو من مائة رجل .

(١١) قولك : وكانت المقبرة عبارة عن روضة معروشة من النارنج والسرو والنخيل ، كلمة (عبارة) خاصة بالكلام ، واستعملها كثير من علمائنا في تفسير بعض الكلم أو تعريف بعض الاصطلاحات اللفظية ، وأنكر هذا بعض اخواننا

من نظار المدارس في احدى جلسات المجمع اللغوي فصوبت كلامه في مثل هذا الاستعمال الذي يكثر في الجرائد وأمثالها فقط ، وفي العبارة ايضاً ان المعروش من الشجر والنجم ما كان كالدوالي ، وغير المعروش ما كان كالسرو والنخيل، وهو ما حققناه في تفسير « جنات معروشات وغير معروشات »

(١٢) قولك : (ان يصلح ذات البين بين الفرسان) الوجه ان يقال : ذات بين بين الفرسان بالاضافة فقط كما قال تعالى :« واصلحوا ذات بينكم » .

(١٣) قولك في حث البغال وزجرها : (بأن يناديها تارة يا جيدة يا ضربعة ، او ان يزجرها طوراً بقوله عدس ، لا حاجة هنا (لأو) ولا (لأن) فالمقام مقام مقام الواو وحدها .

هذا بعض ما بذلت من الاجتهاد في تصحيح كتاب أجل اصدقائي فضلاً وادبا ووطنية وخدمة للامة من طريق المساعي السياسية وقتات البراع، الى ان يقول : وما جريت معك في هذا الا على الطريقة التي استقمت عليها في معاملة شيخنا الاستاذ الامام في عهده وبعد عهده ، فقد كنت اراجعه في حالة القرب بما أرى انه يحتاج الى اصلاح لفظي او معنوي من كلامه فيسر بذلك جد السرور ويعمل به ، وكنت اصحح في حالة البعد ما أقطع بأن تغييره اولى ، وقد علقت على رسالة التوحيد حواشي لا تخلو من تخطئة الاصل ، وقد اذن لي بتصحيح خطابه الذي ألقاه في تونس بعد ان طبع فيها مصححاً بقلمه ، ولم يبال ان يرى علماء تونس وادباؤها ان ما طبع في المنار اصح مما طبع عندهم ، فقد كانت هذه المعاملة من استاذنا الاكبر في الانشاء وعلوم البلاغة سببا في تمكن تلك العادة التي اشار اليها سيدي الامير ، واعترفنا له مع ذلك بالحق فيما انتقده منها...

هذا بعض ما جاء في هذه الرسالة اللغوية الطويلة ، وقد راجع الأمير صديقه الرشيد في كثير من تصحيحاته ، منها لفظة مهول فقد علق عليها بقوله : « كلا لم نجز لفظة مهول لأجل قولهم مكان مهول ، بل لورود مهول في الكلام العربي . جاء في لسان العرب : وهول هائل ومهول ، وكرهها بعضهم وقد جاء في الشعر الفصيح وقال :

ومهول من المناهل وحش ذي عراقين آجن مدفان

وتفسير المهول أي فيه هول ، والعرب إذا كان الشيء « مُهولة » أخرجوه على فاعل مثل دارع ذي الدرع ، وإن كان فيه أو عليه أخرجوه على مفعول كقولك مجنون فيه ذاك ومديون عليه ذاك اه وقد قال بديع الزمان الهمذاني لأبي بكر الخوارزمي في المناقشة التي جرت بينهما مرتجلاً :

أراك على شفا خطر مهول بما أودعت لفظك من فضول

وبديع الزمان يجعل ما يقوله بمنزلة ما يرويه

وناقشه الأمير في عبارة (وما هو ذلك القصر) بقوله : لا شك أن القاعدة هي ما قال ، ولكن ليس بخطأ أن يقال « ما هو ذلك القصر » وما في ضربه ، وقد ورد كثيراً في كلامهم وذكر سيبويه أن هذه الضمائر : أنت وأنا ونحن وهو وهي وهم وهن وأنتن وهما وأنتما وأنتم تأتي وصفاً للمضمر المجرور والمنصوب والمرفوع وذلك قولك مررت بك أنت ورأيتك أنت وانطلقت أنت، وليس وصفاً بمنزلة الطويل إذا قلت مررت بزيد الطويل ، ولكنه بمنزلة نفسه إذا قلت مررت به نفسه وأتاني هو نفسه ورأيته هو نفسه ، وإنما تريد بهن ما تريد بالنفس إذا قلت مررت به هو (إلى أن يقول) : واعلم أن هذا المضمر يجوز أن يكون بدلاً من المظهر وليس بمنزلته في أن يكون وصفاً له لأن الوصف تابع للاسم مثل قولك رأيت عبد الله أبا زيد ، فأما البدل فمنفرد كأنك قلت زيداً رأيت أو رأيت زيداً ثم قلت إياه رأيت وكذا أنت وهو وأخواتها في الرفع . وأورد سيبويه قوله تعالى « ولا يحسبنّ الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيراً لهم » وقال : صارت « هو » هنا بمنزلة ما إذا كانت لغواً في انها لا تغير ما بعدها عن حاله قبل أن تذكر ، واعلم أنها تكون في إن وأخواتها فصلاً وفي الابتداء ولكن ما بعدها مرفوع لأنه مرفوع قبل أن تذكر الفصل (قال) : واعلم أن « هو لا يحسن أن تكون منفصلاً حتى يكون ما بعدها معرفة أو ما أشبه المعرفة مما طال ولم تدخله الألف واللام (قال) : وقد جعل ناس كثير من العرب « هو » وأخواتها في هذا الباب اسماً مبتدأ وما بعده مبني

عليه ، فمن ذلك أنه بلغنا أن رؤبة كان يقول أظن زيداً هو خير منك وناس كثير من العرب يقولون (وما ظلمناهم ولكن هم كانوا الظالمون) و كان أبو عمرو يقول : إن كان لهو العاقل ، ثم يقول سيبويه إن « هو وأخواتها » يكون بمنزلة اسم مبتدأ وذلك قولك ما أظن أحد خير منك وما أجعل رجلاً هو اكرم منك ، فلم يجعلوه فصلاً وقبله نكرة كما أنه لا يكون وصفاً ولا بدلاً لنكرة وكما أن كلهم وأجمعين لا يكرران على نكرة فاستثقلوا أن يجعلوها فصلاً في النكرة كما جعلوها في المعرفة لأنها معرفة فلم تصر فصلاً إذاً لمعرفة كما لم تكن وصفاً ولا بدلاً إلا لمعرفة اه

وقد جاء في مغني اللبيب لابن هشام أن « ما » نكرة متضمنة معنى الحرف وأن « ما » الاستفهامية معناها أي شيء نحو : ما هي ؟ ما لونها ؟ وما تلك بيمينك ؟ قال موسى : ما جئتم به السحر وذلك على قراءة أبي عمر وآلسحر بمد الألف فما مبتدأ والجملة بعدها خبر ، وآلسحر إما بدل من ما ولها قرن بالاستفهام وكأنه قيل آلسحر جئتم به ، وإما تقدير أهو السحر أو السحر هو ، ويقويه قراءة عبد الله ما جئتم به سحر ؛ إذاً لو قيل ما هو السحر مثلاً « فما » مبتدأ والجملة بعدها خبر والسحر بدل من ما ، وقد سألت عن هـذا الاعتراض العلامة السيد تقي الدين الهلالي السجلماسي فاستغرب وقال لا أظن أن السيد رشيداً يمنع جوازه كما أنه لم يتبين لي أن الجملة منافية للبلاغة وقال : ما هو ذلك القصر . الضمير يعود على القصر وإن كان متقدماً لفظاً فهو متأخر رتبة لأن « ذلك » مبتدأ والقصر بدل وجملة « ما هو » خبر ووجب تقديمها من أجل ما الاستفهامية .

وأما إنكار السيد رشيد على الأمير قوله (ولذلك فإن بقايا آبائه) بحجة أن ما بعد الفاء لا يعمل فيما قبلها وأن الجمع بين لام التعليل وفاء السببية لا حاجة إليه وأن الوجه تقديم الفاء كأن يقال : فلذلك كان كذا ، فقد رده الأمير مستدلاً على صحة قوله ص ٣٩٠ بما نصه : « إن هذا الاستعمال وارد من القديم حتى في كلام سيبويه نفسه ففي الكتاب صفحة ٣٩٠ من الجزء الأول يقول : فعلى هذا فأجر ذا الباب . وفي الجزء الأول أيضاً صفحة ١٨٩ : فعلى

هذا فقس المعرفة . وفي الجزء الثاني صفحة ٩٧ : فكذلك نقس هذه الأشياء ، وفي صفحة ١٦٧ : فعلى هذا فقس هذا النحو ، ومثله ما لا يحصى في كلام أئمة اللغة قديماً وحديثاً ، وابن هشام وهو من هو في النحو يقول في الصفحة الخامسة من الجزء الثاني من مغني اللبيب الذي عليه حاشية الأمير : وعلى هذا فلا يصح استئناف ما الخ ... وقال في الآية الكريمة « وما بكم من نعمة فمن الله » الأرجح أنها موصولة وأن الفاء داخلة على الخبر لا شرطية والفاء داخلة على الجواب اه ، وقال الله تعالى : (والذين كفروا فتعساً لهم) .

وأنكر رحمه الله على الأمير استعماله في مقام الإثبات (فضلاً عن كذا) فرد إنكاره بقوله : إن استعمال (فضلاً عن كذا) بمعنى زيادة عن كذا مستفيض في كلام المؤلفين والكتاب من زمن قديم كما يعلمه كل من تتبع كلام القوم ، وإن كنا لم نعرف متى بدأ هذا الاستعمال ؟ وقول ابي حيان الاندلسي انه ليس من كلام العرب لا يدل على عدم جوازه لاننا لو تقصنا كلام المؤلفين من بعد الاسلام الى اليوم لوجدنا فيه ما لا يحصى من الاستعمالات التي لم يكن يعرفها العرب ليس في الامور العلمية والفنية والمواضيع الفلسفية فحسب بل في الامور المعتادة الاجتماعية ايضاً ، فقد استعمل العرب بعد الاسلام جملا وألفاظاً لا يأخذها الاحصاء ، لو نشر عرب الجاهلية والقيت على أسماعهم لم يفهموها ولا عرفوا المراد منها حتى انهم قالوا ان بدوياً سئل عن القلم فلم يفهم معناه فقيل له : ماذا تتصور من كلمة القلم ؟ فقال : أتصور انه شيء يقطع أو يقلم ولا أقدر أن أفهم شيئاً وراء ذلك . وبقي العرب بعد الاسلام بكثير يتحامون كثيراً من الاصطلاحات قال سيبويه في باب الجموع : إعلم انه ليس كل مصدر يجمع كالاشغال والعقول والحلوم والالباب ألا ترى انك لا تجمع الفكر والعلم والنظر ١٠ اه . فتأمل الآن لغة عربية لا يجوز فيها جمع العلم والفكر والنظر ... والحال انه لا يكاد الكاتب ينمق بضعة

استطار حتى يضطر الى ذكر العلوم والافكار والانظار وهي مستفيضة في النظم والنثر فقولهم (فضلا عن هذا) زيادة على هذا لان الفضل هو زيادة، وقد رأيت في بعض كتب المتقدمين قوله : فضلا عن كذا وزائداً على كذا . نعم ان اكثر استعمال فضلا عن كذا يجيء بعد نفي ، ولكن قولهم ان ذلك في الاكثر صريح بأنه قد يجيء ايضاً بعد ايجاب ، والسيد رشيد رحمه الله قبل ان كتب الينا هذا الاعتراض قرأ ما جاء في « المصباح » فانه يقول : لا يملك درهما فضلا عن دينار وشبهه معناه لا يملك درهماً ولا ديناراً وعدم ملكه للدينار أولى بالانتفاء وكأنه قال لا يملك درهما فكيف يملك ديناراً وانتصابه على المصدر والتقدير فقد ملك درهم فقداً يفضل عن فقد دينار . وقال قطب الدين الشيرازي في شرح المفتاح : إعلم ان فضلا يستعمل في موضع يستبعد فيه الادنى ويراد به استحالة ما فوقه ولهذا يقع بين كلامين متغايري المعنى وأكثر استعماله ان يجيء بعد نفي . وقال شيخنا ابو حيان الاندلسي نزيل مصر المحروسة أبقاه الله تعالى : ولم أظفر بنص على ان هذا التركيب من كلام العرب وبسط القول في هذه المسألة وهو قريب مما تقدم . اه .

وقد نقل الزبيدي في شرح القاموس ما ورد في المصباح عن قضية (فضلا عنه) أما سؤال الاستاذ عن اعراب فضلا في قولي (لانه فضلا عن الشراب يلزمهم لاجل الوضوء) فأجيب بأنه منصوب على المصدر مثل قولهم لا يملك درهماً فضلا عن دينار ، وتخريجه ان الماء يلزم المسلمين لاجل الوضوء لزوماً فاضلا عن لزومه للشرب . أما استعمال (يلزمه) (ويلزم له) فهو ايضاً مستفيض اكثر من استفاضة الاول ، ومعنى لزم ثبت ودام وكأنهم لحظوا ان ما يحتاج اليه الانسان بصورة دائمة بعد من الامور اللازمة أي التي يحتاج اليها الانسان لزاماً فصار هذا الاصطلاح يفيد معنى الاحتياج ولو لم يكن كذلك في الاصل . وقد سألت العلامة السيد تقي الدين الهلالي المتقدم الذكر عن جملة : (لانه فضلا عن الشراب يلزمهم لاجل الوضوء) فأجاب : الذي يظهر لي أن هذا جائز وان نصبه على المفعولية المطلقة كما ذكرتم

سائغ (قال) وبدا لي وجه آخر في نصبه وهو أن يكون حالا بمعنى فاضلا من فاعل يلزم وتقديم الحال جائز . قال ابن مالك :

والحال ان ينصب بفعل صرفا او صفة اشبهت المصرّفا

فجائز تقديمه وهو هنا كذلك فان (يلزم) فعل متصرف ؛ واما كون المصدر حالا فكثير قال ابن مالك :

ومصدر منكر حالا يقع بكثرة كبغتة زيد طلع

وفي ذلك خلاف معروف .

وراجع الامير في استعماله مثل (نحو ثلاثمائة) باضافة نحو الى العدد لان المنقول عن الفصحاء (نحو من كذا) ، فأجابه الامير بما يلي : متفق على ان الافصح ان يقال « نحو من كذا » ولكن ليس بغلط إن قيل نحو كذا وقد رأيت هذا الاستعمال في كتاب سيبويه وليس مرة واحدة فقدجاء في الجزء الثاني صفحة ٢٣٥ من طبعة الكتاب في باريز ما يلي : وقالوا نظير كما قالوا وسيم فبنوه بناء ما هو نحوه في المعنى . وجاء في صفحة ٢٣٦ من الجزء الثاني : وما كان من الصغر والكبر فهو نحو من هذا وجاء في صفحة ٣٣٥ : وقالوا ضخم ولم يقولوا ضخيم كما قالوا عظيم ثم قال في الصفحة التي تليها : وقد يبنون الاسم على فعل وذلك نحو ضخم وفخم وعبل وجهم اه ، ثم يقول : فهذا يدلك على انه نحو الطويل والقصير ، إذاً يجوز الوجهان ووضع (من) بعد (نحو) هو أولى . وسألت صاحبنا السيد الهلالي وهو الغاية البعيدة في النحو واللغة عن هذه المسألة فقال لي : نعم الافصح العربي الخالص (نحو من ثلاثمائة) ، واما المؤلفون من عهد سيبويه الى الان والشعراء فانهم اكثروا من ذلك ، والنحو من معانيه المثل كما هنا فلا إشكال في جوازه . اه .

وسألته أيضاً عن بقية اعتراضات السيد رشيد رحمه الله فقال : (بدلا من قرع الطبول الخ) يظهر لي ان السيد إنما اعترض هنا من جهة البلاغة وكان يدقق فيها كثيراً ، واما الجواز فلا أراه ينكره وأمر ذلك سهل إذ لا يخلو انسان ان يوجد في كلامه خلاف الاولى من جهة البلاغة . (قال) : واسلحته تزيد رونقاً وجلالاً صباحة وجهه) هذا الاعتراض ايضا من جهة البلاغة بلا شك

ويظهر لي أن الصواب فيه مع السيد رشيد لأن ركاكته بادية ولست أمنعه وما أجبتم به فيه أن استجلاب الفكر لصباحة الوجه أهم وأولى . (قال) : « وبقيت سرايا الفريقين تتردد إلى غزو بعضها بعضاً » جائز وليس هو من لغة الجرائد لأن لغة الجرائد ولغة عامة مصر أن يقال مثلاً : « وبقيت السرايا تتردد على غزو بعضهـا » نعم لا تخلو تلك العبارة من ركة ولو قيل : « وبقيت السرايا يغزو بعضها بعضها » كما قال تعالى : (وتركنا بعضهم يموج في بعض) لكان أولى اه .

وقد ختم الامير هذه المناقشات بقوله : تقدم لنا كلام في أننا ترجمنا هذا الكلام ترجمةً عن الإفرنسية من أربعين سنة وراعينا فيه الترجمة الحرفية .

ويعثر قارىء السيرة الرشيدية في غير حواشي الرسائل على فوائد لغوية يحسن بنا نشرها إتماماً لهذه الطرائف الممتعة ، منها ما جاء في ترجمة السيد رشيد رضا لنفسه وفيهـا ألفاظ عامية يرويها السيد على سبيل الحكاية كلفظة (تعبان) ص ٢٧ ، قال الأمير معلقاً عليها ما نصه :

روى الأستاذ هنا لفظة (تعبان) على الحكاية ، والا ففي الصحيح لا يقال تعبان ، بل هو تعِب ومُتعب على وزن كتف ومكرم ؛ وعلق على لفظة « البخشيش » التركية أنها مصدر « بخش ايتمك » أي أعطى ، ومقابلها في العربي « الحلوان » أو ما يعطى للخادم « النُّحل » والنحلان بالضم ، وتأمل هنا أيضاً مشرب الشيخ رشيد رحمه الله في نقل الأخبار على علاتها .

وعلق الأمير على لفظة (صادرت) الواردة في كلام السيد ما نصه :

جاء في لسان العرب : ومن كلام كتّاب الدواوين أن يقال : صودر فلان العامل على مال يؤديه أي فورق على مال ضمنه . وهكذا نقل ذلك صاحب « أقرب الموارد » بلفظ « فورق » ولكن هذه العبارة نفسها منقولة في التاج بلفظ « قورق » بالقاف أولاً وهي في التاج غلط طبع أو نسخ إذ لا معنى « لقورق » هنا ؛ وأما « فورق » فهو للمجهول من فارقه

من حسابه على كذا إذا قطع الأمر بينه وبينه على امر وقع عليه اتفاقهما ومثله صادره على كذا ، وكله مولد ليس من كلام العرب الأُلى . وقد جاء في تاريخ الوزراء تأليف أبي الحسن الهلال المحسن بن إبراهيم الصابي الكاتب المتوفى للسنة الثامنة والأربعين بعد الأربعمائة قوله في ترجمة أبي الحسن علي بن محمد بن موسى بن الفرات : « وصودر على مائة وعشرين ألف دينار وصح منها ستون نجيّ به من محبسه الخ . . . وقوله عن لسان الخليفة المعتضد في ابن الفرات أبي الحسن وأخيه أبي العباس : أسأنا اليهما وصادرناهما . وقوله في موضع آخر : وسلم اليه عليّ بن عيسى ومحمد بن عبدون فاعتقلها في دار بدر اللاني وقرر عليها مصادرة خففها عن علي بن عيسى وثقلها على محمد بن عبدون لعداوة كانت بينهما ، وهكذا هذه اللفظة تدور كثيراً في أخبار ديوان الخلافة .



أثر الرحلة في الحياة العلمية والادبية[1]

يكثر الراحلون من بلاد إلى اخرى ، والغاية من هذه المحاضرة النظر في رحلات أهل العلم والادب لنعرف كيف يكون للرحلة أثر عظيم في ترقية العلوم والآداب ، وتهذيب النفوس وإصلاح حال الاجتماع .

ولعل قائلاً يقول : إن فائدة الرحلة قد عرفها الناس على اختلاف أصنافهم وتفاوت طبقاتهم فهي من المعلومات الموضوعة على ظاهر اليد ، والحديث عنها صرف للوقت في غير جدوى فأقول : إني في شك من هذا ، فإن كثيراً ممن وهبهم الله القدرة على الرحلة وهيأ لهم وسائلها لا يقبلون عليها وينصرفون عنها ، انصرافهم عن الاشياء التي يرونها خالية من كل فائدة .

على أني أريد التنبيه لما في الرحلة من آثار صالحة لأضعها أمام نشئنا حتى إذا خطر لهم ما في الرحلة من حرج وعناء نظر الى هذه الآثار الحميدة ، فيخف وزن تلك المتاعب وتذهب في جانب هذه الآثار هباء .

الرحلة في نظر الإسلام

لم يدع الإسلام وسيلة من وسائل الرقي ، إلا نبه عليها وندب إلى العمل بها ، وهكذا شأنه في الرحلة فقد دعا إليها راميا إلى أغراض سامية ، مثل طلب العلم قال تعالى : فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا

---

(١) عنوان المحاضرة الممتعة التي ألقاها في ردهة المجمع العلمي العربي العلامة السيد محمد الخضر حسين عضو المجمع العلمي بدمشق والمجمع اللغوي المصري والاستاذ في كلية أصول الدين بالازهر، وذلك في ٤ جمادى الآخرة ١٣٥٦ الموافق ليوم ١١ آب ١٩٣٧ .

قومهم إذا رجعوا اليهم لعلهم يحذرون . ويلحق بالتفقه في الدين كل علم يعد من وسائل الرسوخ في علوم الدين كالنحو والبلاغة ، بل يلحق بالتفقه في الدين كل علم يكسب الأمة قوة ويكون له أثر في نجاحها والاحتفاظ بعزتها كفن صناعة الغواصات والطيارات .

ومن هذه الأغراض أخذ العبرة من أحوال الأمم الماضية ، قال تعالى : قل سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين ، ويلحق بأحوال الامم الماضية أحوال الامم الحاضرة متى كان في النظر اليها عبرة ينتفع بها في الوصول الى سعادة الحياة ، ومن هذه الأغراض الرحلة من دار الضلال والبغي الى دار الهداية والعدل ، قال تعالى : ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الارض مراغماً كثيراً وسعة ، ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله . هذه الآية وردت في قوم كانوا يقيمون في دار عسف وغواية فحرضهم على الرحلة إلى المدينة حيث يشدون أزر المسلمين ويقفون في صفوفهم ويكثرون عددهم ، واذا تشابهت البلاد في الاستخفاف بأمور الدين فعلى العالم المصلح أن يجاهد في سبيل الدعوة الى الحق والإصلاح بقدر ما يجد من حرية القول أينما كان .

ومن فرائض الاسلام ما لا يؤدى إلا بوسيلة الرحلة وهو حج البيت الحرام ، وفي الرحلة الى الحجاز في أشهر الحج جانب عظيم من معنى التجول في أقطار مختلفة ، حيث يلاقي فيها الرجل طوائف من امم مختلفة الاجناس متباعدة البلاد .

ولا يسعني المقام أن أسوق شواهد من عناية علمائنا بالرحلة لأمثال هذه الاغراض النبيلة ، وأكتفي بأن أسوق على هذه الغاية قصة جابر بن عبد الله الانصاري ، ذلك أنه سمع وهو بالمدينة أن عبدالله بن انيس بالشام يروي حديثاً عن رسول الله ﷺ فاشترى بعيراً ثم شد رحله وسار الى الشام فسمع الحديث من عبدالله وقفل راجعاً الى المدينة .

المثبطات عن الرحلة وعلاجها

لاأريد من المثبطات عن الرحلة العوائق التي ليس في استطاعة الشخص علاجها ، كفراغ يده من نفقات السفر وكقيامه على اسرة إذا فارقها وقعت في حاجة ونكد من العيش، بل أريد من المثبطات ما يعرض للنفوس الضعيفة ويغلب على أمرها ، ولولا ضعفها لما كان له عليها من سبيل مثل استعظام مفارقة من يعز عليه من أقارب أو أصدقاء ، مثل إمام الحرمين وهو على المنبر لماذا كان السفر قطعة من العذاب ؟ فقال : لان فيه فراق الأحبة .

وفي الناس من يذكر ما في الرحلة من متاعب بدنية فيحجم عنها ، وأكثر من يعرض لهم هذا المثبط اولئك الذين ينشأون في ترف والخلال عزة فيخشون ان يفوتهم ما اعتادوا من الرفاهية ولو زمناً قليلاً ، ومنهم من يترك الرحلة حيث تضطره لركوب البحر فرقاً من أهواله ، عزم الحافظ ابو الوليد هشام الوقشي على ركوب البحر الى الحجاز فهاله ذلك فقال :

لا أركب البحر ولو أنني ضربته فيه بالعصا فانفلق
ما إن رأت عيني أمواجه في فرق إلا تناهى الفرق

وقد يحجم الرجل عن الرحلة مخافة أن ترمي به بين أقوام لا يعرفون حسبه وأدبه فيلاقي من مرافقتهم أو معاشرتهم ما لا يليق بمنزلته ويرتاح له ضميره وقد أشار إلى ما يعرض للرجل من هذه الآلام النفسية الرحالة ابن جبير إذ قال :

لا تغترب عن وطن واذكر تصاريف النوى
أما ترى الغصن إذا ما فارق الأصل ذوى

وأشار يحيي بن حكم المعروف بالغزال إلى أن الغربة سبب لفقد جانب من العزة . فقال :

فصمصام عمرو حين فارق كفه رموه ولاذنب لعجز المضارب
وما عزة الضرغام إلا عرينه ومن مكة سادت لوءي بن غالب

وتألم الرحالة بن سعيد الأندلسي حين نزل ببعض بلاد الشرق وناداه بعضهم باسم المغربي فقال :

وأنادى مغربياً ليتني ... لم أكن للغرب يوماً أنسب
نسب يشرك فيه خامل ... ونبيه أين منه المهرب
أتراني ليس لي جد له ... شهرة أو ليس يدرى لي أب

وعلاج أمثال هذه المثبطات الناشئة عن ضعف النفس وقلة تمرينها على احتمال المكاره أن يذكر الرجل ما تأتي به الرحلة من ثمرات علمية أو أدبية عامة أو خاصة، فإذا وثقت نفسه بنيل غايتها وحسن عاقبتها سهل عليها كل صعب واستهانت بكل خطر، قال عبد الملك بن سعيد في وصية ابنه علي بن سعيد عندما عزم على الرحلة إلى الشرق:

وكل ما كابدته في النوى ... إياك أن يكسر من همتك

وعزم المأمون الخروج الى بعض الحروب فوقفت له جارية ممن شغف بهن ورغبت اليه ألا يخرج فقال لولا قول جرير:

قوم إذا حاربوا شدوا مآزرهم ... دون النساء ولو باتت بأطهار

لما خرجت.

واذكر أن أبا بكر بن العربي الاندلسي الذي قضى في رحلته ثمانية أعوام أورد في بعض كتبه مسألة من مسائل الخلاف حررها وهو في العراق وقال: لو لم أظفر في رحلتي إلا بهذه المسألة لكفتني، على أن ابن العربي قد لقي في رحلته نصباً في البحر ومخاوف في البر[1]

ليذكر الراحل أن ثمرة الرحلة لذيذة باقية، وأن تلك الآلام النفسية والمتاعب البدنية زائلة، قال القاضي محمد بن عيسى أحد الراحلين من الاندلس الى الشرق بعد أوبته:

كأن لم يكن بين ولم تك فرقة ... إذا كان من بعد الفراق تلاق
كأن لم تؤرق بالعراقين مقلتي ... ولم تمر كف الشوق ماء آماقي
ولم أزر الاعراب في جنب أرضهم ... بذات اللوى من رامة وبراق
ولم أصطبح بالبيد من قهوة الندى ... وكأس سقاها في الأزاهر ساق

(١) أنظر كتاب القواصم والعواصم له.

وجاء في كتب الادب أشعار يرد ناظموها على من يحاول تثبيطهم عن الرحلة كما قال بعضهم :

تقول سليمى لو أقمت بأرضنا   فقلت الى ذاك المقام أطوف

وقال ابن دراج :

ألم تعلمي أن الثواء هو النوى   وان بيوت العاجزين قبورُ

وربما كان المثبط عن الرحلة إعجاب الرجل بوطنه إذ يخطر له انه لا يرى في غير وطنه أحسن مما يرى فيه كما قال أبو القاسم عامر بن هشام :

يا من يزين لي الترحال عن بلدي   كم ذا تحاول نسلا عند عنين
وأين يعدل عن أرجاء قرطبة   من شاء يظفر بالدنيا وبالدين

وإعجاب الرجل بوطنه واعتقاده انه أجمع لمطالب الحياة قد يمنعه من رحلة الانقطاع ولا ينبغي أن يمنعه من الرحلات المحدودة بزمان .

وترى من الادباء من يمتلئ قلبه حباً لوطنه ولكنه يتغلب على هذه العاطفة ويذكر الداعي الى الرحلة فتطمئن اليها نفسه كما قال ابن سعيد لما خرج من حدود افريقية :

رفيقيّ جاوزنا حدود مواطن   صحبنا بها الأيام طلقاً محياها
وما ان تركناها لجهل بقدرها   ولكن ثنت عنا أعنة سقياها
فسرنا نحث السير عنها لغيرها   الى أن يمن الله يوماً بلقياها

فوائد الرحلة

إذا درسنا تاريخ العلماء والأدباء الذين رحلوا عن أوطانهم ووجهنا النظر الى ما نتج عن رحلاتهم من فوائد عادت عليهم أو على قومهم أو على الاوطان التي نزلوا بها ، وجدناها من الاهمية بمكان يدعو الى ان تعد في مقدمة وسائل الرقي والتهذيب .

ماذا يستفيد الرجل من الرحلة

من أقنى ما يكسب الرجل في رحلته أن يعلم ما لم يكن يعلم ، كم من عالم

لم يبلغ المقام الذي يشار اليه بالبنان إلا بالرحلة . والباحث في تراجم العلماء يقف على أسماء رجال كثيرين بلغوا في العلم الذروة ، وإنما بلغوها بما قاموا به من رحلات تقلبوا بها في مدن زاخرة بالعلوم ولاقوا بها كثيراً من اكابر العلماء مثل الامام الشافعي والحافظ بن عساكر و أبي الوليد الباجي وأبي بكر بن العربي وأسد بن الفرات ، ولابن خلدون في مقدمته التاريخية فصل افتتحه بقوله : أن الرحلة في طلب العلم مزيد كمال في التعلم وختمه بقوله : فالرحلة لا بد منها في العلم لاكتساب الفوائد والكمال بلقاء المشايخ والتلقي عن الرجال .

وللرحلة أثر في سمو الفكر إذ يأخذ الرجل فيها من التجارب ما لايأخذه وهو مقيم في بلد لا يخرج منه الى غيره ، وقد يكنون بها عن قوة العقل وحسن التصرف في الامور ، وانظر الى بديع الزمان الهمذاني حين أراد الدلالة على كمال عقله كيف عبر عنه بركوبه ظهري البر والبحر ، إذ قال في كتاب كتبه الى القاسم المرجي : فإني وإن كنت في مقتبل السن والعمر قد حلبت شطري الدهر وركبت ظهري البر والبحر .

والرحلة أثر في تهذيب الطباع ورقي الآداب ذلك أن كثرة ما يلاقيه الرجل في السفر من المشاق يقوي في نفسه خلق الحلم والمداراة وقد قال بعض الحكماء للغريب :

إن ترمك الغربة في معشر تطابقوا فيك على بغضهم
فدارهم ما دمت في دارهم وأرضهم ما دمت في أرضهم

ولا يخلو الراحل متى كان بصيراً بمواقع العبرة أن يلاقي رجالاً ذوي آداب سامية فيقتبس من آدابهم ما يزداد به أدباً على أدبه ، وهذا ابن وهب رحل من مصر وتلقى العلم بالمدينة عن الإمام مالك وقال : تعلمت من أدب مالك أفضل من علمه ،وأقام يحيي بن يحيي بن بكير عند مالك بعد ان فرغ من سماع الحديث عنه وقال : إنما أقمت لاستفيد من شمائله .

وقد ينشأ الفتى في نبوغ ويضيق بلده عن انظاره الواسعة فيرحل الى مدينة تكون أوسع مجالاً للاراء الخطيرة فتعظم مكانته ويكثر الانتفاع بحكمته ، ولولا

الرحلة لما عظم شأنه ، ولما كثرت ثمرات نبوغه ، أذكر أن الشيخ عز الدين ابن عبد السلام مر عند خروجه من الشام بالكرك فتلقاه صاحبها وسأله الإقامة عنده ، فقال له الشيخ بلدك صغير عن علمي ، وتوجه إلى القاهرة . وأسوق شاهداً على هذا أن القاضي يوسف بن أحمد بن كج بلغ في العلم مرتبة كبيرة ، قال له بعض من لقيه : يا أستاذ الاسم لأبي حامد الغزالي والعلم لك ، فقال القاضي : ذاك رفعته بغداد وأنا حطتني الدينور .

وقد تكون رحلة العالم أو الأديب من أسباب ظهور علمه أو أدبه وانتشاره في الآفاق ، قال الأديب أبو بكر المعروف بابن بقي :

ولي هم ستقذف بي بلاداً ... نأت إما العراق أو الشآما
لكيما تحمل الركبان شعري ... بوادي الطلح أو وادي الخزامى
وكيما تعلم الفصحاء أني ... خطيب علّم السجع الحماما
وقد أطلعتهن بكل أرض ... بدوراً لا يفارقن التماما

وربما أدرك الرجل في وطنه ضيق عيش يخشى أن يعوقه عن الازدياد من العلم أو التفرغ لنشره بالتدريس والمذاكرة ، فيرحل حيث يلقى كفافاً أو يساراً يساعده على أن يقبل على الدرس والبحث بنفس مطمئنة : رحل القاضي عبد الوهاب بن نصر من بغداد إلى مصر ، ونبه على سبب رحلته فقال :

سلام على بغدادَ في كل موطن ... وحق لها مني السلام المضاعف
فوالله ما فارقتها عن قِلىً لها ... وإني بشطي جانبيها لعارف
ولكنها ضاقت عليّ بأسرها ... ولم تكن الأرزاق فيها تساعف

وكذلك قال أبو سعد النيرماني :

لقد سرت في شرق البلاد وغربها ... وطوفت خيلي بينها وركابيا
فلم أر فيها مثل بغداد منزلاً ... ولم أر فيها مثل دجلة واديا
ولا مثل أهليها أرق شمائلاً ... وأعذب ألفاظاً وأحلى معانيا
وكم قائل لو كان حبك صادقاً ... لبغداد لم ترحل فكان جوابيا

يقيم الرجال الموسرون بأرضهم وترمي النوى بالمقترين المراميا

ومما يظفر به الرجل الفاضل في رحلته أن يتخذ في البلاد التي ينزل بها أصدقاء يغتبط بصداقتهم، والصداقة الخالصة من ألذ ما يتمتع الانسان به في هذه الحياة، وكتب الأدب ملوءة بالرسائل والقصائد التي دارت بين علماء وأدباء اختلفت مواطنهم وهي عامرة بروابط صداقات ناشئة بوسيلة الرحلة، وهذا ابن خلدون ارتبط بصداقات كثيرة من علماء البلاد كلسان الدين بن الخطيب وابن زمرك، وجرت بينه وبينهم مراسلات، وأذكر من قصيدة بعث بها اليه ابن زمرك بعد نزوله مصر قوله :

بعيشك خبرني ولا زلت مفضلاً أعندك من شوق كمثل الذي عندي

ومثل الحافظ بن عساكر رحل إلى بلاد العجم بعد بلاد العرب وأذكر من قصيدة بعث بها إلى صديقه أبي سعد السمعاني قوله :

أنسيت ثدي مودة بيني وبينك وارتضاعه

ماذا يستفيد قوم الرجل من رحلته

قد تحظى البلاد بالعلم بعد انقطاعه عنها، أو تقوم سوقه فيها بعد خمولها، والفضل في ذلك لرجال يرحلون إلى الحواضر التي هي منبع العلوم، ثم يعودون وقد امتلأوا مما اغترفوه من العلوم والفنون، وقد بلغت الحالة العلمية بالأندلس بعد عودة أبي الوليد الباجي من رحلته الشرقية منزلة أرفع وأرسخ مما كانت عليه قبل أن يعود وارتحل أبو القاسم بن زيتون التونسي في أواسط المائة السابعة إلى المشرق فبرع في العقليات والنقليات ورجع إلى تونس فأمتعها بعلمه الكثير وأسلوب تعليمه البديع .

ويرحل العالم أو الأديب من وطنه وهو يحمل علماً غزيراً ويتحلى بأدب سني وينزل بين جماعات من بلاد مختلفة فيرونه مثالاً لأهل العلم والأدب من قومه فيرتفع شأن قومه في أنظارهم، هذا إلى ما يصفه لهم من محاسن قومه أو ينقله اليهم من ثمرات أفكارهم .

ماذا تستفيد البلد ممن يرحلون اليها

يرحل العالم أو الأديب ، وينزل ببلد ، فيبذر بها متى كانت في حاجة إلى أمثاله — علماً أو أدباً ، ومن ذا ينكر أن بلاد الاندلس قد استفادت من العلماء الذين رحلوا اليها من الشرق ، مثل تاج الدين بن حموية السرخسي ، وأبي علي القالي ، كما استفادت دمشق من أمثال ابن مالك وابن السبكي ، واستفادت مصر من أمثال أبي حيان وابن خلدون .

وهذا المعري يحمد السفر الذي جاء بالقاضي عبد الوهاب بن نصر من بغداد إلى المعرة فقال :

والمالكي بن نصر زار في سفر ... بلادنا فحمدنا النأي والسفرا
إذا تحدث أحيا مالكاً جدلاً ... وينشر الملك الضليل إن شعرا

وتفقه البربر في علوم الدين عن عشرة من فقهاء التابعين بعثهم عمر بن عبد العزيز لهذا الغرض خاصة .

ونرى في تراجم كثير من العلماء الراحلين أنهم كانوا يلقون في البلاد التي ينزلون بها دروساً أو يدرسون بها علوماً يتلقاها عنهم بعض أهل العلم .

فرحلات العلماء والأدباء تنقل العلم والأدب من بلد إلى آخر على وجه أثبت وأنفع مما تنقله المؤلفات وحدها .

أثر الرحلة في تنمية العلوم

للرحلة فضل في نماء العلوم واتساع دائرتها ، وكم من كتاب يعد في علمه من أمهات الكتب هو وليد الرحلة ، ذلك أن أسد بن الفرات الراحل من القيروان إلى الشرق ورد مصر بعد أن تلقى العلم في الحجاز والعراق ، وألقى على ابن القاسم أسئلة يطلب الجواب عنها على مقتضى مذهب الإمام مالك ، وجمع تلك الأسئلة وأجوبتها في كتاب كان يسمى الأسدية ، ثم رحل سحنون بن القيروان بالأسدية إلى ابن القاسم ، وعرضها عليه ، وهذبها ، وأضاف اليها مسائل أخرى وصارت تسمى المدونة ، وهي المشار اليها بقول بعض أهل العلم :

أصبحت فيمن له علم بلا أدب ومن له أدب عار عن الدين
أصبحت فيهم فقيد الشكل منفرداً كبيت حسان في ديوان سحنون

وبيت حسان الذي لم يرد في المدونة غيره من الشعر قوله :

وهان على سراة بني لؤي حريق بالبويرة مستطير

ومن فضل الرحلة أنها حفظت جانباً عظيماً من التاريخ ، حفظته الكتب التي يودعها مؤلفوها ما شاهدوه في أسفارهم من وقائع وأحوال ، مثل رحلة ابن بطوطة ورحلة العبدري ورحلة ابن جبير ورحلة خالد بن عيسى البلوي وغيرها ، فانا نرى في هذه الرحلات أشياء لا نجدها فيما بين أيدينا من كتب التاريخ .

أثر الرحلة في ثراء الأدب

للرحلة أثر في ثراء الادب لا يقل عن أثرها في ثراء العلم ، فكم من قصيدة لا ينظمها الشاعر إلا حين يعزم على الرحلة لالقائها بين يدي ملك او وزير او وجيه مثل قصيدة :

أدرك بخيلك خيل الله أندلسا إن السبيل الى منجاتها درسا

فان صاحبها ابا عبدالله بن الابار الراحل من الاندلس قد نظمها استنجاداً لأمير تونس وألقاها بين يديه .

ومما يرجع الفضل فيه للرحلة ذلك الشعر الوارد في التشوق الى الوطن او لاهل والاخوان ، ومن هذا الباب قول محمد بن يوسف الدمشقي يتشوق الى دمشق وهو ببلاد الروم :

بعاد يزيد الجوى والحنينا وبين يعلم قلبي الانينا
فراق أذاب الحشا أدمعا فأجرى بصافي الدماء العيونا

الى ان قال :

وجاد الحيا أربعاً بالشآم وسلم صحباً بها قاطنينا
رحلنا فما تابعتنا القلوب وسرنا فظلت لديكم رهونا

واذكر بهذه المناسبة ان استاذنا المرحوم الشيخ سالم ابا حاجب كان قد سافر

الى ايطاليا وبعث برسمه الى بعض اصدقائه في تونس وكتب عليه البيتين:

لما شكت شط النوى روحي التي ابقيتها عند الاحبة بالوطن
ارسلت تمثالي لها(1) بوّاً عسى تسلو فلا تبغي التحاقاً بالبدن

أثر الرحلة في تعارف الشعوب

لا ينزل الرجل الفاضل بوطن إلا التقى بطائفة من فضلائه ، والشأن أن يصف لهم بعض النواحي من حياة قومه العلمية والاجتماعية ، ثم إذا عاد الى قومه ، وصف لهم حال الأوطان التي نزل بها ، فيكون كل من الشعوب التي رحل منها أو نزل بها ، على خبرة من حال الشعوب الاخرى ٠

وقد نبهنا على أن الرجل الطيب السريرة ، يتخذ في كل وطن أصدقاء ، وهذه الصداقات تعد فيما يربط بين الشعوب الرابطة الوثيقة ، وتعارف الشعوب بوسيلة العلماء والادباء ، يثير في نفوسهم عواطف الائتلاف والاحترام ٠

وإذا كان من أفضل آثار الرحلة عقد رابطة التعارف والتعاطف بين الشعوب ، فعلى المستطيعين منا أن يخصوا البلاد الشرقية بجانب عظيم من رحلاتهم ولو وجدوا في سبيل ذلك مشاق فوق ما يلاقونه في سبيل الرحلة الى البلاد الاجنبية ٠

أدب الرحلة

الآداب السنية كمال الانسانية ، فيجب على الانسان الاحتفاظ بها في وطنه ، كما يحتفظ بها في غير وطنه ، ورأينا بعض الحكماء يوجهون الى الغريب أو من رام الغربة عناية خاصة ، ليؤكد عليه في الاحتفاظ بالآداب الشريفة ، فقال بعضهم : يا غريباً كن أديباً ، ومن هذا القبيل وصية عبد الملك بن سعيد الاندلسي لابنه علي عند عزمه على الرحلة الى بلاد الشرق ، تلك الوصية التي يقول فيها :

اودعك الرحمن في غربتك مرتقباً رحماه في أوبتك
فلا تطل حبل النوى إنني والله أشتاق الى طلعتك

(1) البو جلد الحوار يحشى ثماماً او تبناً فيقرب من ام الفصيل فتعطف عليه ، فتدر ٠

وقال:

فليس يدرى أصل ذي غربة وإنما تعرف من شيمتك

ونبهه لآداب سامية فقال :

وامش الهوينـا مظهراً عفة وابغ رضاالاعين عن هيئتك
وكل ما يفضي لعذر فلا تجعله في الغربة من إربتك
ولا تجـادل حاسداً ابداً فانه أدعى الى هيبتـك

وقال :

وانطق بحيث العي مستقبح واصمت بحيث الخير في سكتتك

ومن أدب الراحل أن ينصف البلاد التي ينزل بها فيذكر محاسنها ، ويغتبط بما يلاقيه بها اهلها من احتفاء ومؤانسة . ورد تاج الدين بن حموية السرخسي بلاد المغرب ،فسأله سلطان المغرب يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن قائلا : أين هذه البلاد من بلادك الشامية ؟ فقال السرخسي : « بلادكم حسنة أنيقة ، وفيها عيب واحد ، فقال السلطان : ما هو؟ قال : إنها تنسي الاوطان . »

وممن قاموا على هذا الادب الجميل العلامة المقري صاحب كتاب نفح الطيب ، فقد نظم في الثناء على دمشق أشعاراً ، وتمثل فيها بأشعار ، ومما أنشده قول شمس الدين الأسدي :

إذا ذكرت بقاع الارض يوماً فقل سقياً لجلق ثم رعيا
وقل في وصفها لا في سواها بها ما شئت من دين ودنيا

وأختم هذه المحاضرة بأبيات خطرت لي معانيها عند ما نزلت دمشق ، واني لست بشاعر ولكنني درست علم العروض ، فأستطيع أن أقول كلاماً موزوناً ، والى حضراتكم هذه الابيات :

زارها بعد نوى طال مداها فشفا قلباً مُجداً في هواها
راح نشوان ولا راح سوى أن رأى الشام وحياه شذاها

نظرة في ساحها تذكره   كيف كان العيش يحلو في رباها
ما شكا فيها اغترابا وإذا   حدثته النفس بالشكوى نهاها

* * *

من يحث العيس في البيد الى   يردى يحمد للعيس سراها
فهنا قامت نوادي فتية   تبلغ النفس بلقياهم مناها
أدب يزهو كزهر بهج   أرشفته السحب من خمر نداها
خلق لو نصح المحود به   ناصح لاتخذت منه حلاها
ملأوا جلق أنساً فأرى   ليلها طلق المحيا كضحاها
شد ما لاقوا خطوباً فانتضوا   مرهفات العزم طعناً في لهاها

* * *

عزة الامة في نشء إذا   نشبت في خطر كانوا فداها
وجناحا نوزها استمساكها   بهدى الله وإرهاف قناها
هي عين والمدى إنسانها   فاذا ما فقئت لاقت عماها

* * *

رتل الذكر مليا تره   يغرس الحكمة أو يدني جناها
أطلق الافكار من أصفادها   فمضت ترعى الثريا وسهاها
خض علوم الكون أحقاباً وسر   في سماها إن تشأ أو في ثراها
لا ترى في الدين إلا مغرياً   بجلاها أو مزيحا لقذاها

* * *

ذكرونا سلفاً قاموا على   سيرة غراء والدهر طواها
أمة يذكي التقى غيرتها   مثلما يذكي الندى نار قراها
شرف لو آنسته الشمس في   افقه الأعلى لظنته أباها

***

أو يجدي مجد أسلاف إذا　　غرقت أجفان خلف في كراها
امة تلهو بذكرى تالد　　عن طريف لم ترم عهد صباها

* * *

فابعثوها همما تسمو كما　　سمت الجوزاء تزهو في سناها
ما الفخار الحق إلا نهضة　　أحكم الإيمان والعلم عراها



دور الكتب

في حلب قديماً وحديثاً (١)

سادتي :

لم تقف همة أجدادنا العظام وسلفنا الصالح عند تأسيس المدارس وتشييد بنائها ، بل انهم ذللوا كل عقبة تعوق عن تحصيل العلم وتحول دون الورود إلى مناهله واجتناء ثمراته .

وقد وجدوا أن من أعظم الوسائل لرفع منار العلوم ونشر ألوية المعارف ، تأسيس خزائن الكتب في المدارس التي أنشأوها وتنظيم شؤونهـا واسنادها إلى أهل الفضل وذوي المعرفة والخبرة بها . فأخذوا في التباري في هذا المضمار ، وتسابقوا في حلبة هذا الميدان ، ووقفوا من الكتب على اختلاف العلوم والفنون ما لو بقي إلى الآن لعد بالملايين .

غير أن الحوادث والمصائب العظمى التي حلت بالإسلام في كثير من الأقطار شتتت شمل هذه الخزائن ومزقتها كل ممزق ، ولما انتبه العالم الغربي

(١) مجلة المجمع : ألقى الاستاذ محمد راغب الطباخ عضو مجمعنا العلمي هذه المحاضرة النفيسة في حفلة افتتاح دار الكتب الوطنية بحلب ، ويرى القارئ وصف هذه الحفلة في باب الآراء والأفكار من هذا الجزء .

كان في طليعة أعماله أن وجه نظره وهمته إلى الاستحواذ على هذه الكتب بشتى الوسائل فتم له ما أراد ، وأنشأ في العواصم الاوروبية وغيرها مكاتب حافلة اشتملت على آلاف من الكتب العربية والفارسية والتركية ، وكثير منها من النوادر التي لا تجد منها شيئاً في بلاد الشرق ، وأكبوا على ترجمتها ونشرها والاستفادة منها وما زالوا دائبين على ذلك الى وقتنا هذا .

ولو أردنا أن نذكر المكاتب التي شيدها سلاطين المسلمين وأمراؤهم وعلماؤهم وذوو اليسار منهم في مختلف الأقطار الاسلامية في الشرق والغرب لاحتجنا إلى مؤلف حافل ، غير أنا بمناسبة الاحتفال في هــذا اليوم بافتتاح دار الكتب الوطنية التي هي فرع المجمع العلمي العربي في دمشق احببنا أن نقتصر بمحاضرتنا هذه على ذكر دور الكتب في حلب قديماً وحديثاً ، ومنها يعلم أن الشهباء كانت غنية بهذه الذخائر الثمينة جارت غيرها من البلاد العربية الكبيرة ، ولاريب أن دور الكتب في الأمم هي مقياس رقيها وعنوان تقدمها .

يرشدنا التاريخ الى أن حركة العلم والادب كانت في القرن الاول والثاني ضعيفة في حلب وما حولها الا أنها أخذت تتقوى في القرن الثالث للهجرة ، فقد ظهر فيها وفيما حولها حفاظ في الحديث ونبغاء في الأدب ، وحسبك من هؤلاء الوليد بن عبيد الشاعر المشهور المتوفى سنة ٢٨٤

وكانت حلب في ذلك الوقت قد أخذت بحظ وافر من العمران وازدحمت بالسكان فتطاولت اليها أعناق الملوك والامراء ومن جملتهم سيف الدولة بن حمدان فنهض اليها بجيشه واستولى عليها وذلك سنة ٣٣٣ ومن ذلك الحين عظمت الحركة العلمية فيها وقامت دولة الادب ، وذلك لما كان عليه سيف الدولة من العلم والفضل واغداقه الاموال الطائلة على العلماء والأدباء وصارت الشهباء في عهده محط الرحال وموئلا لعظام الرجال ، وأسس فيها مكتبة عظيمة عنها انبثت أنوار العلوم وتفجرت ينابيع الفنون ومنها انتهل المتعطشون .

قال الحافظ الذهبي في تاريخه : كان في خزانة الكتب بحلب عشرة آلاف مجلدة من وقف سيف الدولة بن حمدان وغيره ، وكان من جملة المتولين على هذه

الخزانة ثابت بن أسلم الشيعي المتوفى سنة ٤٦٠ فألف كتاباً في كشف عوار الاسماعيلية فحمل الى صاحب مصر فصلبة وأحرقت تلك الخزانة .

وقال الإمام الكبير والوزير الخطير عمر بن العديم في كتابه الانصاف والتحري في دفع الظلم والتجري عن أبي العلاء المعري الذي نشرناه على نقص قليل فيه في الجزء الرابع من تاريخنا (أعلام النبلاء) : وكان بحلب خزانة كتب في الشرقية التي بجامع حلب في موضع خزانة الكتب اليوم ، واتفقت فتنة في بعض أيام عاشوراء بين أهل السنة والشيعة ، ونهبت خزانة الكتب وكان ذلك في زمن أبي العلاء ولم يبق في خزانة الكتب إلا القليل ، وجدد الكتب فيها بعد ذلك الوزير ابو النجم هبة الله بن بديع وزير الملك رضوان ثم وقف غيره كتباً أخر بها ، وقد ذكر أبو محمد عبد الله بن محمد بن سنان الخفاجي (الشاعر المشهور مؤلف كتاب سر الفصاحة الذي طبع حديثاً في مصر) هذه الخزانة في قصيدته التائية التي كتبها من القسطنطينية يداعب أحد أصدقائه بها قال فيها :

أبلغ أبا الحسن السلام وقل له ... هذا الجفاء عداوة الشيعة
فلأطرفن بما صنعت مكابراً ... وأبث ما لا قيت منك لنكتة
ولأجلسنك للقضية بيننا ... في يوم عاشوراء بالشرقية
حتى أثير عليك فيها فتنة ... تنسيك يوم خزانة الصوفية

وهذا أبو الحسن سالم بن علي بن تميم الفقيه الكفرطابي المعروف بالحامي ، وكان من فضلاء حلب وكان سني المذهب وابو محمد الخفاجي شيعي وكان بينهما مودة ومكاتبة وبنكة من غوغاء الشيعة . ثم ذكر الصاحب ابن العديم ما يفيد أن أبا العلاء المعري كان يغشى هذه المكتبة في تردده الى حلب .

ماذا حصل في هذه المكتبة بعد ذلك

قال ابن خلكان في تاريخه في ترجمة أبي السعادات المعروف بالمسعودي: حكي أبو البركات الهاشمي قال : لما دخل السلطان صلاح الدين الى

حلب سنة تسع وسبعين وخمسمائة نزل المسعودي للذكور الى جامع حلب وقعد في خزانة كتبها الموقوفة واختار منهـا جملة أخذها ، لم يمنعه منها مانع ، ولقد رأيته وهو يحشوها في عدل ، وهذه الحادثة مما يؤاخذ عليها السلطان صلاح الدين رحمه الله .

ثم أسس بعد ذلك في أواسط القرن السابع القاضي الاكرم جمال الدين يوسف بن ابراهيم وزير حلب دار كتب بحلب وجمع بها ما لا يوصف ، و كان هذا القاضي الوزير من غواة الكتب ومن عشاقها المتفانين في حبها .

قال ياقوت في معجم الادباء : وكان القاضي الاكرم جماعة للكتب حريصاً عليها جداً لم أر مع اشتمالي على الكتب وبيعي لها وتجارتي فيها أشد اهتماماً منه بها ولا أكثر حرصاً منه على اقتنائها ، وحصل له منها ما لم يحصل لأحد ، وكان مقيماً بحلب (وبها توفي سنة ست وأربعين وستمائة)

وقال ابن شاكر في تاريخه فوات الوفيات في ترجمة القاضي الاكرم : وكان صدراً محتشماً كامل السؤدد جمع من الكتب ما لا يوصف وقصد بها من الآفاق وكان لا يحب من الدنيا سواها ، ولم يكن له دار ولا زوجة وأوصى بكتبه للناصر صاحب حلب ، وكانت تساوي خمسين الف دينار وله حكايات غريبة في غرامه بالكتب .

قال الصلاح الصفدي في تاريخه المرتب على السنين (في جزء منه هو الآن من مخطوطات المكتبة الاحمدية بحلب) في ترجمة القاضي الاكرم : وله حكايات عجيبة في غرامه بالكتب ، منها أنه وقع له نسخة مليحة من كتاب الانساب لابن السمعاني بخطه يعوزها مجلد من أصل خمسة ، فلم يزل يبحث عنه ويطلبه من مظانه فلم يحصل له ، فبعد أيام اجتاز بعض من يعرفه بسوق القلانسيين ، فوجدوا أوراقاً منه فأحضرها اليه وذكر القصة ، فأحضر الصانع وسأله عنه فقال : اشتريته في جملة أوراق وعملته قوالب للقلانس ، فحدث عنده من الهم والغم والوجوم ما لا يمكن التعبير عنه ، حتى أنه بقي أياماً لا يركب الى القلعة وقطع جلوسه ، وأحضر من ندب على الكتاب كما يندب على الميت المفقود

المؤيس منه ، وحضر عنده الاعيان يسلونه كما يسلى من فقد له عزيز . والحكايات الدالة على عشقه الكتب كثيرة . اهـ

وكتاب الانساب هذا كتاب عظيم في هذا الفن ذكره ابن خلكان في ترجمة مؤلفه عبد الكريم بن محمد المروزي وانه في ثمان مجلدات وقد اختصره عز الدين بن الاثير في ثلاث مجلدات والمختصر هو الموجود بأيدي الناس والاصل قليل الوجود . قال ذلك عنه ابن خلكان وهو من اهل القرن السابع . وهذا الكتاب يحتاج اليه مزاولو علم الحديث والتاريخ والادب والجغرافية فانه يوقفك على الصواب من اسماء الرجال والبقاع الى غير ذلك من الفوائد ، يوجد الان منه نسخة نفيسة في مكتبة كوبريلي زاده محمد باشا في الاستانة رقمها ١٠١٠ . وقد سبقنا الالمانيون الى طبع هذا السفر النفيس عندهم بالفوتوغراف (المصور الشمسي) وجاء منه نسخة الى حلب الى بعض باعة الكتب يبعث آخراً على ما اظن الى مكتبة للمدرسة الخلوتية ، ولا أدري أطبعه الالمانيون على هذه النسخة الموجودة في الاستانة ام على غيرها ، وعلى كل فان نسخه الاصلية نادرة الوجود .

ومن جملة المكاتب العظيمة التي اسست في حلب مكتبة العلامة شرف الدين الشيخ عبد الرحمن العجمي باني المدرسة الشرفية وراء الجامع الكبير واشتهرت عند الناس بالاشرفية وهو خطأ ، وكانت وفاته سنة ثمان وخمسين وستمائة في وقعة التتر لما دخلوا حلب .

قال مترجموه : وقد وقف الواقف رحمه الله تعالى على هذه المدرسة الكتب النفيسة من كل فن من حديث وتفسير وفقه ونحو وغير ذلك ، فمن كتبها مسند الامام الشافعي والأم وجميع كتب الامام الشافعي وكتب الاصحاب كتفسير الثعلبي وغيره من التفاسير وكالنهاية والحاوي الكبير والابانة والتتمة والذخائر والشامل ، (الى ان قال) وكان بها اربعون نسخة من التنبيه وجميع كتب الغزالي وكانت اسماء الكتب مثبتة عند اقاربه في درج كبير فذهب في محنة تيمر .

ومن دور الكتب في حلب جامع منكلي بغا المعروف الان بجامع الرومي في محلة باب قنسرين أنشيء هذا الجامع سنة سبع وستين وسبعمائة هجرية .

قال أبو ذر في تاريخه كنوز الذهب : ووقف منكلي بغا كتباً نفيسة لهذا الجامع ومنها التفسير للقرطبي والتبصرة لابن الجوزي ومجمع الاحباب للحسيني وغير ذلك من الكتب النفائس وقد ذهب نصف مجمع الاحباب وكان كله في مجلدين فذهب مجلد واحد وهو كتاب جليل ترجم فيه الاولياء والعلماء وتكلم فيه على طريق الصوفية ، ووضع الكتب في خزائن الجامع المذكور . وهذه الخزائن متقنة محكمة فيها الصنائع العظيمة على طريق النجارين وبلغني ان الشيخ قربكاً وهو من الصالحين كان نجار ذلك .

والان لا خزائن هناك ولا كتب وقد رأيت منها تفسير القرطبي في بعض البيوت وهو في (١١) مجلداً من اصل خمسة عشر وقد بيعت هذه المجلدات منذ عهد قريب ، ويغلب على الظن ان هذه النسخة النفيسة اصبحت الان في خزائن المكاتب الغربية .

ومن دور الكتب دار الحديث التي أمر ببنائها أحمد مطاف باشا من غلة دراهم قدرها عشرة آلاف دينار ذهباً وقفها في سبيل الخيرات وكتاب هذا الوقف محرر سنة ١٠٠٤ ، ودار الحديث هذه كانت شرقي تربة الواقف الكائنة في محلة الجلوم الملاصقة للخان المعروف بخان المطاف ، وقد ذكر في كتاب وقفه ثمانين كتاباً خطياً وقفها على دار الحديث هذه ، وهي كتب متنوعة من جملتها جلدان من لسان العرب وصل فيهما الى حرف الراء وقد تبعثرت هذه الكتب واستبدلت هذه الدار بدار في محلة وراء الجامع دعيت بدار الحديث أيضاً لكنها في عداد المدارس المعطلة التي لا تستفيد منها الامة .

هذا ما عثرت عليه في هذه العجالة من دور الكتب في الشهباء قبل الالف ، وكلها أصبحت أثراً بعد عين ونحن نلقي تبعة ذلك على أمراء ذلك العصر وعلمائه فانه لولا تهاونهم وسكوتهم لحفظ الى هذا الوقت ذلك التراث المجيد ولكنا نقتطف منه ثماراً يانعة ولكن الى الله المشتكى .

ما أنشئ من دور الكتب بعد الالف

من أعيان الشهباء في أوائل القرن الحادي عشر رجل يقال له الشيخ أحمد

القاري وكان خليفة للشيخ ابي بكر صاحب المزار المشهور الذي يعد اليوم في جملة آثار حلب القديمة وهو شرقي حلب الى شماليها ٠

وكان هذا الرجل ذا تدبير وحسن رأي وصلاح ومعرفة وسخاء يد محبوباً الى الامراء الذين يردون حلب والى الاهلين فأغدقت عليه الاموال ، فبنى تلك التكية المعروفة الى اليوم بتكية الشيخ ابي بكر ووقف لها عقارات ومزارع ونظم امورها على ما يطلبه ذلك العصر ، ومن جملة ما أسسه فيها مكتبة قيمة فيها مختلف العلوم والفنون إلا انها كانت كغيرها عرضة للناهبين ومنذ عشر سنين كان فيها بقية قليلة في خزانة تجاه ضريح الشيخ أبي بكر ، ورأيت في جملة هذه البقية مصحفاً كريماً محلى جميعه بالذهب وربعة أي أجزاء من القرآن العظيم وكل جزء منه محلى كذلك ، ولا أكون مبالغاً اذا قلت لكم ان هذا المصحف وتلك الاجزاء تساوي اكثر من ٣٠٠ ليرة ذهبية وقد فقد ذلك كله ، وتلك البقية من الكتب استلمتها دائرة الاوقاف منذ سنين قلائل وأضافتها الى كتب مكتبتها ٠

وهذا الرجل هو الشيخ أحمد القاري وقف كتباً قيمة أيضاً على التكية المولوية ، وهي مما بني في اواسط القرن العاشر وكان هو مولوياً أيضاً ، وأظن ان هناك اشخاصاً آخرين ممن تولوا أمر هذه التكية وقفوا فيها كتباً كثيرة إلا انها ايضاً كانت معرضة للنهب لعدم انتظام أمرها ففقد منها الكثير ، وفي فهرست كتبها الاخيرة عدد الكتب يناهز ١٢٠٠ ولما أحصتها دائرة الاوقاف بلغت ٩٥٠ كتاباً ، الا ان المهم من هذه المكتبة لا يزيد على خمسين كتاباً وهي اليوم بحالة لا يستفاد منها مطلقاً وذلك مما يؤسف له ، وقد قلنا ان تبعة ذلك ملقاة على عاتق امراء حلب وعلمائها فهم المسؤولون عن ذلك كله (فكلكم راع وكل راع مسؤول عن رعيته) ٠

وفي القرن الثاني عشر في اواسطه وأواخره أسس في الشهباء خمس مكاتب الاولى أسسها أحمد افندي طه زاده وتعرف اليوم بالمكتبة الاحمدية وهي في مدرسته التي أنشأها في محلة الجلوم ، تحوي الفاً واربعماية وخمسين كتاباً تبلغ

ثلاثة آلاف مجلدة كلها مخطوطه ، وفيها الكثير من النفائس ، وبالرغم عن تشديد الواقف في أمرها فانها لم تسلم من ايدي العابثين وعلى ما اقدر انها نقصت من حين إنشائها الى الان نحو ١٥٠ كتابا منها نحو السبعين فقدت منذ خمسين سنة الى الان ، وهي بالنسبة الى غيرها تعد محفوظة بالجملة • ومن جملة نفائسها اسطرلاب نحاسي بديع الصنعة محكم لا تقل قيمته عن خمسين ليرة ذهبية ، وفيها كرتان قديمتان من صنع اوربة الواحدة سماوية والاخرى ارضية بلغني ان زائرة ايطالية عالمة بالآثار اكدت ان هاتين الكرتين قل ان تجد كرة معاصرة لها في المتاحف الاوربية •

الثانية : اسسها المرحوم عثمان باشا الدوركي باني المدرسة العثمانية واضاف اليها المرحوم تقي الدين باشا المدرس الحلبي كتبا مخطوطة ومطبوعة وذلك في اوائل هذا القرن ، وفيها من وقف هذين العظيمين كتب من النفاسة بمكان ولم تسلم ايضاً من الايدي الاثيمة لعدم انتظام امر قوامها ، وبعض هذه الكتب لقلة الاهتمام بها اصابتها الامطار فالتصقت اوراقها بعضها ببعض ، والخلاصة ان الخلل في هذه المكتبة ليس اقل من الخلل الواقع في اوقافها وهذا مشاهد معلوم •

الثالثة : اسسها المرحوم احمد افندي الكواكبي في مدرسته التي انشأها في الجلوم ، وكانت لا تقل اهمية عن المكتبة الاحمدية ، وقد بددت كلها وبضع اجزاء منها آل الى مكتبة الاوقاف العامة ، وقد كان فيها عدة كتب هي من تأليف بني الكواكبي منها ذيل في تراجم الرجال لمحمد افندي الكواكبي ورحلة نفيسة الى احمد افندي الكواكبي جد احمد افندي الواقف •

الرابعة : مكتبة اسسها الشيخ محمد البخشي شيخ سجادة التكية الاخلاصية في محلة البياضة ، وزاد فيها بعد ذلك الشيخ ابو الوفا الرفاعي جد بني الرفاعي القاطنين بها الان ، ولم تسلم كغيرها من المكاتب بل امتدت اليها بعض الايدي ولم يزل منها جملة حسنة في خزانة آل الرفاعي ، وهي غنية بكتب الحديث والرجال وفيها ما لا يوجد في غيرها ، وقد كنت نشرت نفائسها في مجلة مجمعنا العلمي العربي •

الخامسة : المكتبة المارونية وهي في دار البطريركية المارونية ، و كون تأسيسها منذ قرنين اقوله ظنا لا يقيناً .

ونيها من النفائس في كتب الادب : مباهج الفكر ومناهج العبر لمحمد ابن ابراهيم الانصاري المعروف بالوطواط المتوفى سنة ثمان عشرة وسبعمائة ، ومن هذا الكتاب عدة نسخ في الاستانة وهو جدير بالطبع .

وفي القرن الثالث عشر انشئ في المدرسة البهائية المعروفة بالصلاحية ايضا مكتبة فيها الان نحو ٧٠ كتابا ، وكذلك في المدرسة المنصورية في محلة الفرافرة انشأها الشيخ منصور السرميني وقد تبعثرت واحضرت البقية الباقية منها سنة ١٣٤٥ الى مكتبة الاوقاف .

ومكتبة أنشأها اسماعيل باشا واقف المدرسة الاسماعيلية في مدرسته ، وقد بقي منها بقية أحضرت أيضاً إلى مكتبة الاوقاف .

ومكتبة في خزانة جامع السكاكيني في محلة القصيلة بقي منها بقية أحضرت الى مكتبة الاوقاف .

ومكتبة في خزانة المدرسة الطرنطائية في محلة محمد بك في باب النيرب عند بني الباونجكي لم يزل منها بقية إلى اليوم .

ومكتبة في المدرسة القرناصية في محلة الفرافرة بددت أيضاً وأصبحت في خبر كان .

ما أسس من المكاتب في هذا القرن

مكتبتان هامتان وقفهما رجلان جليلان في هذا القرن :

الاولى : مكتبة وقفها محمود أفندي الجزار ، وضعت بعد وفاته في الجامع الكبير .

والثانية : مكتبة الحاج عبد القادر الجابري بقيت في بيته بعد وفاته ، ثم أحضرت المكتبتان منذ خمسة عشر عاماً إلى المدرسة الخسروية ثم نقلتا إلى المدرسة الشرفية التي تقدم ذكرها ، وأضيف اليها ما تقدم ذكره من البقية الباقية في تكية الشيخ أبي بكر والمنصورية وجامع السكاكيني والمدرسة الاسماعيلية واشتريت لها بعض الكتب المطبوعة فتألف من ذلك مكتبة حسنة تابعة لإدارة

الأوقاف ، لكنها في حاجة كبرى إلى الزيادة مما طبع في مصر وأوربة وغيرها ليكون منها مكتبة حافلة يرتوي منها رواد مناهل العلم ، فعسى أن تلبي دائرة الاوقاف نداءنا وتضع لها في ميزانيتها كل سنة مقداراً حسناً يكون سبب نموها وانتظامها .

ومنذ سنوات وقف الشيخ أحمد الصديق رحمه الله كتباً مخطوطة ومطبوعة على مدرسة في محلة قارلق ولم تزل هناك إلى الآن .

وآخر مكتبة أسست في الشهباء هي مكتبة فرع المجمع العلمي العربي بدمشق وكان ذلك منذ أربعة عشر عاماً أرسل اليها المجمع من تأسيسها إلى الآن نحو ١٩٠٠ مجلد ، وفي هذه السنة أرسل اليها ١٢٠٠ كتاب فصار فيها جملة صالحة إلا أن المكان الذي كانت فيه وهو تلك الحجرة التي هي في الطابق العلوي في خان الكرك التابع لدائرة الاوقاف كان غير صالح لوضع مكتبة فيه وذلك لضيقه وعدم ارتفاع سقفه ، والانسان يضيق به ذرعاً بعد قعوده فيه قليلا وتعتريه السآمة فيغادر المكان وهو لم يشف غليلا ، وأمكنة المطالعة يقتضي أن تكون فسيحة الارجاء مرتفعة السقف ينشرح لها الصدر وترتاح بها النفس ليكون ذلك سبباً للدأب في المطالعة والاسترسال فيها من غير ملل .

وطالما ذاكرت المجمع العلمي بدمشق وفي حلب عند حضور رئيسه وبعض أعضائه عن حالة هذا المكان فلم يجد ذلك شيئاً ، إلى أن عين محافظ حلب المحبوب الامير مصطفى الشهابي . فذاكرته في ذلك لاول زيارتي له في فندق بارون على اثر حضوره فوجدت منه أذناً صاغية وقلباً ملء شغفاً بهذه المشاريع التي فيها مستنار العقول وحياة البلاد .

ولم تقف همة المحافظ حفظه الله عند نقل هذه المكتبة من مكانها الضيق الى هذا المكان المتسع الجميل بل سعى لدى المجلس البلدي بأن يضع في ميزانيته مبلغاً وافراً في كل سنة ليبني داراً عظيمة للكتب ويبتاع منه ما يطبع في مصر وغيرها من الكتب العربية وغير العربية ليجد المطالع فيها جميع ما يحتاج إليه

وما ينفق عليها ، ولا ريب أن هذا العمل مأثرة كبرى لمحافظنا يحفظها له التاريخ ويخلد له جميل الذكرى . والمجلس البلدي يكون في عمله هذا قد اقتدى بالمجالس البلدية في البلاد الأوروبية فان لها مكاتب عظيمة هي في تقدم مستمر .

ولم نسمع في الشرق لمجالس البلدية مكتبة إلا لمجلس البلدي في الاسكندرية فان له مكتبة قيمة اشتملت على آلاف من المخطوطات والمطبوعات وهو في كل سنة يزيد في عددها وتنظيمها .

فإذا أبرز المجلس البلدي في حلب هـذا المشروع لحيز الوجود وقام بهذا العمل المجيد يكون المجلس الثاني الذي قام في الشرق بأمثال هذه المشاريع النافعة للبلاد ، وهو الاول من نوعه في البلاد الشامية .

والذي نرجوه من المجلس البلدي ومن دائرة الاوقاف إذا أحبا أن يكون لنا مكاتب تدر بالفائدة الكبرى على هذه البلاد أن لا يقتصرا على ابتياع ما طبع وما يطبع فحسب بل عليهما أن يأخذا ما تعظم الفائدة به من آثار أسلافنا التي تسربت إلى مكاتب الغرب والاستانة ومصر بالمصور الشمسي ويستردا بضاعتنا الينا .

وأهم هذه الآثار بالنسبة إلى حلب بل الى بلادنا الشامية جميعها ذلك التاريخ العظيم وهو « بغية الطلب في تاريخ حلب » للامام الكبير والوزير الخطير والمؤرخ الشهير الشاعر الناثر ذي الخط الجميل الذي ضرب به المثل ونوه به شعراء عصره كمال الدين عمر بن أحمد بن العديم الحلبي المتوفى سنة ٦٦٠ وقد أفردت لهذا الرجل العظيم ولتاريخه كتاباً خاصاً في سبعين صحيفة .

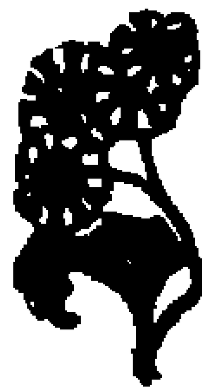
ومعظم تاريخه بخطه في ثمان مجلدات في سراي طوب قبو في الاستانة وجزء منه في لوندرة وجزء في باريس وثلاثة أجزاء في مكتبة أيا صوفية في الاستانة وهي بخطه أيضاً وقد سبقتنا الحكومة المصرية الى أخذ هذه الاجزاء بالمصور الشمسي ، وقد كان المرحوم أحمد زكي باشا أرسل لي سبع أوراق أخذها عن

النسخة المصرية وما هي أعرضها على أنظاركم الكريمة ، وجزء من هذا التاريخ العظيم في إحدى مكاتب الموصل قد استنسخناه وفيه ترجمة نحو عشرين شاعراً من شعراء المعرة قل منا من يعرف واحداً منهم الى غير ذلك من الفوائد التي اشتمل عليها هذا الجزء وما هو بين أيديكم ، وباسترداد هذا الكتاب وأمثاله مما نحن في حاجة اليه وإبرازه لعالم المطبوعات نزداد علماً بمجد آبائنا ومعرفة ببلادنا الشامية وما دثر منها والاحوال المدنية والعمرانية التي كانت عليها ؛ ونقف على ما أنبتته من الرجال وما قاموا به من جليل الاعمال وما خلدوه من الآثار الى غير ذلك من جلي الفوائد وعظيم العوائد ، وذلك ولا ريب من أعظم البواعث لنهضتنا واستيقاظنا من رقدتنا ، واسترجاع سالف عزنا ومجدنا ، والله الموفق ، والسلام عليكم ورحمة الله .

في ١٨ جمادى الاولى سنة ١٣٥٦

في ٢٦ تموز سنة ١٩٣٧

محمد راغب الطباخ



آراء وأخبار

وفاة

السيد مصطفى صادق الرافعي عضو المجمع العلمي العربي

ينعي المجمع العلمي الى أعضائه أخاهم الاديب العربي الكبير السيد مصطفى صادق الرافعي الذي استأثر به ربه يوم الاثنين من شهر صفر المنصرم ١٣٥٦ ١٠ — ٥ — ٣٧، وقد انتخبه المجمع العلمي عضواً مراسلا سنة ١٩٢٨ وهو من أعلام العرب في العلم والأدب قضى حياته في خدمة لغته وآدابها شعراً ونثراً في الصحف والمجلات والمصنفات الممتعة، فهو من زعماء الانشاء المحافظين على أسلوب البلغاء الابيناء من السلف، وبذلك عاش من الكرام الكاتبين الذين ارتقت بهم الكتابة، فقربت اللغة من بيان العرب بمقدار ما تجافت بها عن مضاجع العجمة وستؤبنه المجلة تأبيناً مفصلاً في الجزء التالي طاب ثراه، ورحمه الله .

أغلاط دائرة المعارف الاسلامية

اطلعت في العدد التاسع من المجلد الثاني من دائرة المعارف الاسلامية المصرية حديثاً بمصر على ترجمة السيد محمد الآلوسي المفسر الشهير وهي من إنشاء الدكتور بروكلمان المستشرق المعروف، وقد وجدت فيها غلطات تاريخية

لذلك أحببت أن ألاحظ على كاتبها، وليس لي من قصد غير خدمة العلم؛ قال الدكتور بروكلمان:

« ولد الآلوسي عام ١٢١٨ هجرية » والصحيح أن ميلاده في سنة ١٢١٧ هجرية مثلما هو مذكور في ترجمته في كتابه المسمى بكشف الطرة عن الغرة نقلاً عن كتاب جلاء العينين في محاكمة الاحمدين تأليف نجل المترجم — ثم قال : « إن الآلوسي تنازع هو والباشا التركي (يعني والي بغداد) ورغب أن يدافع عن نفسه وعن حقوقه في عاصمة الدولة العلية، فرحل اليها في جمادى عام ١٢٦٧ هجرية وبلغ صامسون بعد أن مرّ بالموصل وديار بكر ثم ركب البحر الى الاستانة، ولما لم يقابله الصدر الاعظم بما هو أهله عاد أدراجه الى موطنه دون أن يحقق غرضه » هذا أيضاً خلاف الواقع إذ الآلوسي نفسه ذكر في رحلته التي سماها « نزهة الالباب وغرائب الاغتراب » اجتماعه بالصدر الاعظم رشيد باشا وذلك بواسطة شيخ الاسلام حينئذ عارف حكمة، وقد قابله الصدر بما يليق بمقامه من التجلة والاحترام وقضى له مآربه وأغراضه كلها وقد رجع من عنده وهو يلهج بالثناء عليه وعلى شيخ الاسلام المذكور — ثم قال الكاتب : « وقد كتب أحد أقربائه واسمه نعمان خير الدين الآلوسي وكان يقطن كذلك في بغداد دفاعاً عن ابن تيمية عنوانه جلاء العينين في محاكمة الاحمدين (بلاق عام ١٢٩٨) ذكر الكاتب ان مؤلف الكتاب المذكور هو أحد أقرباء الآلوسي بل الصحيح انه نجل السيد محمود الآلوسي المترجم؛ وذكر الكاتب أيضاً أن مصنفه المذكور مطبوع في بلاق عام ١٢٩٨ وهذا تحريف من الكاتب والصحيح بولاق كما ذكره العلامة مؤرخ مصر تقي الدين المقريزي في المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار والسيوطي في حسن المحاضرة وكما هو مشهور عند العامة فضلا عن الخاصة، ثم ذكر الدكتور بروكلمان ان تفسير الآلوسي المسمى بروح المعاني طبع في ثمانية اجزاء بمطبعة بلاق فيما بين عامي ١٣٠١ و١٣١٠ هـ » والحقيقة ان تفسيره طبع بمطبعة بولاق في تسع مجلدات ضخمة لا في ثمانية اجزاء، وقد وهم أيضاً في قوله : بين عامي ١٣٠١ — ١٣١٠ بصيغة المثنى، والحال ان مدة استغراق

طبع التفسير المذكور كانت تسع سنوات فكان الاصح أن يقال بين أعوام كذا أو بين سنتي كذا .

طرابلس الغرب : علي محمد الفقيه حسن

رجاء

الى أعلام العربية والاستشراق

رجعت في معنى (السيرار) الذي عده المرزوقي في كتابه (الأزمنة والامكنة) من جملة بيوع العرب في الجاهلية إلى المعاجم الاتية :

١ — تاج العروس (شرح القاموس) .

٢ — لسان العرب لابن منظور .

٣ — الصحاح للجوهري .

٤ — المجمل لابن فارس (نسخة مخطوطة كاملة في المكتبة الظاهرية) .

٥ — الجمهرة لابن دريد .

٦ — الفائق للزمخشري .

٧ — أساس البلاغة .

٨ — النهاية لابن الاثير .

٩ — المصباح المنير .

١٠ — المخصص لابن سيده .

١١ — التهذيب للازهري (نسخة مخطوطة في المكتبة الاحمدية بحلب) .

ثم تحريت في شروح الحديث وكتب الفقه ، مظنة أن أجد فيها تعرضاً له في صدد كلام عن البيوع الفاسدة أو النهي عنها فلم أجد أحداً من أصحاب المعاجم المذكورة قد ذكر هذا الضرب من البيع ، ولم يتعرض له غير صاحب محيط المحيط (وقد روينا عبارته) ولم أهتد بعد الى المصدر الذي استقى منه هذا التفسير .

فالمرجو من علماء العربية ممن عندهم معاجم مخطوطة أو مطبوعة إذا عثروا على النص الموثوق في ذكر بيع السرار ان يتكرموا فيوافوني بالبيان الشافي عن طريق المجمع العلمي العربي بدمشق ولهم الشكر الجزيل ·

غرة صفر سنة ١٣٥٦

سعيد الافغاني

حفلة افتتاح دار الكتب الوطنية بحلب

عشية الاربعاء الواقعة في ١٩ جمادى الاولى سنة ١٣٥٦ (٢٧ تموز ١٩٣٧) أقيمت في عاصمة بني حمدان حفلة افتتاح دار الكتب الوطنية ، وقد ضمت جمهوراً من العلماء والاعيان ورجال الصحافة ·

وعند افتتاح الحفلة ألقى الاستاذ سامي الكيالي كلمة مفيدة عن دار الكتب ومساهمة دار الامانة (البلدية) في إخراج هذه الخزانة من سجنها القديم ، ثم القى الشيخ علي الكحال قيم خزانة الاوقاف كلمة عن خطورة الكتب ومكانتها عند الامم العربية والغربية ، ثم أنشد الاديب شارل الخوري قصيدة في الموضوع ، وعلى أثره نهض مؤرخ الشهباء ومدير المدارس العلمية فيها الشيخ محمد راغب الطباخ وألقى كلمة ممتعة عن خزائن الكتب الحلبية وعن تسابق الحلبيين في اقتناء نفائس الكتب وإنشاء الخزائن لها ، ولم ينس الاستاذ الفاضل وهو من أعضاء مجمعنا العلمي ، ان ينوه بشأن المجمع العلمي ويذكر يده البيضاء في تنشيط العلم والعلماء في حلب وذلك بانشاء فرع له فيها يضم أفاضل علماء الشهباء ، وبانشاء خزانة كتب تشتمل على نفائس الاسفار ·

وبعد ان القى الاستاذ الطباخ محاضرته التي نشرناها في هذا الجزء القى محافظ حلب وعضو مجمعنا العلمي الامير مصطفى الشهابي كلمة وجيزة قال فيها : « نحن هنا في حرم الادب بعيدون عن السياسة والتحزبات وضوضائها المنغصة » · ثم قال : ليس الفضل لي وحدي في إحياء هذه المكتبة بل لرئيس البلدية والمجلس

البلدي واعضاء فرع المجمع العلمي في حلب ، وهم الذين عطفوا على هذا المشروع العلمي وساهموا في إحيائه ، والذي أرجو ان يوفقنا الله لتحقيقه ذلك القرار الذي اتخذه المجلس البلدي بفتح اعتماد بعشرة آلاف ليرة سورية في موازنة بلدية حلب لانشاء دار كبيرة للكتب وردهة لالقاء المحاضرات .

وذكر انه أخذ وعداً صادقاً من الاستاذ سعدالله الجابري وزير الداخلية بأن يضع في موازنة المعارف لعام ١٩٣٨ عشرة آلاف ليرة سورية لهذا المشروع ايضاً .

والفضل الذي يعود لمحافظ حلب ، وهو عضو بمجمعنا العلمي ، يعود بالتالي للمجمع العلمي نفسه ، فهو الذي أنشأ خزانة الكتب الحلبية ، وقام بنفقات موظفيها مدة أربعة عشر سنة ، ولا يزال بها قائماً ، وأمدها بنفائس الكتب ، وآخر ما أرسله هدية اليها الف ومائتان من المجلدات .

ولقد كان في نية المجمع عند توفر المال ان ينقل خزانته الحلبية الى دار فخمة في سرة المدينة تليق بمكانة العلماء وبتاريخ الشهباء وقد كتبت أمانة سر المجمع الى الحكومة بذلك مراراً ، ومحافظ حلب آخر من راسلته في ذلك فالحمد لله الذي قدّر للمجمع العلمي على يد أعضائه ان يرفع من شأن خزانة الشهباء ، وان يجعلها مثابة للناس وينفع بها العلماء والادباء .



مطبوعات حديثة

السيد رشيد رضا

او إخاء اربعين سنة

تأليف

الامير شكيب ارسلان من اعضاء المجمع العلمي العربي

مطبعة ابن زيدون بدمشق ١٣٥٦ — ١٩٣٧

إن الحلية الخاصة التي تحلى هذا الكتاب بها هي سجية الوفاء للاصدقاء ، وهي الصفة التي امتاز بها مؤلف هذه السيرة الممتعة الأمير شكيب أرسلان ، لانها تشتمل على نحو الف صفحة في ذكر مناقب السيد رشيد رضا الذي يقول عنه الامير في المقدمة ما نصه : « وبعد هذا فلا شك في أنه إذا وزن عمل كل من أعيان هذا العصر بل من أعيان كل عصر كان السيد الامام محمد رشيد رضا من أرجحهم ميزاناً ، وأوفاهم قسطاً لا يجحد ذلك الا من ران عليه الضلالة أو أعماه الغرض ؛ وإني لأجد نشر مناقبه والتنويه بقدره والاشادة بحسناته الكثيرة والانارة لبراهينه الساطعة من عزائم الله الموجبة وفرائضه المبرمة عملاً بقوله تعالى : وزنوا بالقسطاس المستقيم » .

· ان سهر العظماء تشبه قصائد الرثاء ، ووجه الشبه بينهما ان مؤلفي هذين الصنفين لم يقصدوا من ورائهما جزاءاً ولا شكوراً ، فهما آيتان ناطقتان بالوفاء من آيات الثناء ، وجانب الخسارة المادية في كتابة السير يغلب في معظم الاعيان جانب الربح ، فالدلالة على وفاء الامير لصديقه أدبية ومادية معاً ، وقد أشاد بفضائله حياً وميتاً في كتاب حاضر العالم الإسلامي واعاد ما نشره فيه في الصفحة ١٤ من هذه السيرة تحت عنوان (ما قلته في السيد رشيد) ·

وقد جمع الامير في تاريخ الاستاذ الرشيد جميع ماله علاقة بها فمن تقريظ الامير للوحي المحمدي الى مقدمة السيد رشيد لكتاب الارتسامات اللطاف ، الى ما كتبه في المنار عن حديثهما مع أعضاء جمعية الامم ، وعن وفد الصلح والسلام ؛ ومن جملة فصول هذه السيرة ما قيل في السيد الرشيد عند وفاته في الجرائد والمجلات ، أو ما ألقي في الحفلات ·

وفي السيرة كثير من الابحاث التاريخية السياسية منها بحث المشانق العربية التي نصبها الطاغية جمال باشا في دمشق وبيروت ، وكيف غدر بالسيد عبد الحميد الزهراوي ، واستحضره الى المحاكمة في الديوان العرفي بعالية بعد أن كان من أعضاء مجلس الأعيان ، وقد أراد الزهراوي رحمه الله أن يقنع جمالاً ببراءته ويستل سخيمة صدره وذكّره بما كان بينهما من عهد فقال له : إنه ليس له مدخل في الامر وانه لن يصيبه أذى إذا كان الديوان العرفي يحكم ببراءته ، قال الأمير : وحقيقة الحال أنه كان من البداية ينوي البطش به ، وقد كنت بذلتُ كل ما في وسعي لأجل إنقاذه وإنقاذ زعماء السوريين الذين ساقهم جمال الى المشنقة برأيه الافين لامر يريده الله ، وتكلمت مع أنور عندما زار سورية خفية عن جمال ، واغضب ذلك جمالاً ، ولم أبال غضبه ، وسعيت لدى قنصل المانية في دمشق سعياً حثيثاً بعد أن استحلفته على كتمان السر حتى يبرق إلى سفارة المانية في الآستانة لعلها تتوسط في الامر وتكفي الدولة شر الشقاق بين العرب والترك ··· ولابد أن تكون الاوراق المحفوظة في سفارة المانية بالاستانة تشتمل على ما أفضيت به الى قنصلهم بدمشق ··· الى ان يقول :

أما السيد رشيد فكان الاتراك دعوه الى التفاهم معهم وان يتولى منصباً شرعياً في الاستانة فخاف أن يكون ذلك استدراجاً وأبى قبول دعوتهم ولم يقع في الخطإ الذي وقع فيه الزهراوي عفا الله عنه ·

لقد كان الامير شكيب من أشرف من كان حول جمال من رجال العرب دفع الله به كثيراً من الشر والاذى ، وما كان يدافع عن الدولة العثمانية الا دفاعاً عن العروبة والاسلام وخوفاً عليهما من مثل الانتداب والحماية والاستعمار وكان شبان العرب وأعضاء المنتدى الادبي في الاستانة لا يرضون عن هذه السياسة الشكيبية وهي سياسة اسلامية خالصة ، بل كنا نعدها انتصاراً للترك على العرب ، ولكنه كان مخلصاً في عقيدته ومشفقاً من الاستعمار على عروبته ، ولا أزال ذاكراً زيارتي له في الفندق مع الشهيدين عبد الكريم الخليل رئيس المنتدى وسيف الدين الخطيب وقد قلنا له : ان العرب لا يطلبون سوى الاصلاح شيئاً ، وهل في طلبه عداء للترك او خلاف ، فأجابنا : ان هذا الطلب ، والدولة في جهاد واعداؤها بالمرصاد ، ليس شيئاً من النجدة والانصاف ، وقد أعرب في هذه السيرة عن فكرته هذه بقوله ص ١٥١ : « اذ كنت ممن لا يجيز المضي في الاختلافات الداخلية الى ذلك الحد الاقصى حينما يكون البلقانيون على أبواب الآستانة عاصمة الإسلام »

سيرة مأثورة للامير شكيب العربي واخلاص منه لامة لا تبادله هذا الاخلاص ، ولو بقي العرب مع الترك يسفكون دماءهم الى آخر الحرب لما كان نصيبهم في هذه الايام غير نصيب الاكراد ، ولما كان لعمري جزاؤهم على ما أبلوه من البلاء الحسن غير التتريك والالحاد ·

وقد جمع الله العرب أخيراً على معرفة هذه الحقيقة ، فإن الامير أمتع الله ببركات حياته يقول في حاشية له ص ٤٣٦ ما نصه : « بعد ان رأيت ما رأيت من هدم أنقرة للاسلام اقتنعت بأن خطر الافرنج على العرب أصبح أهون من خطر ملاحدة الترك · »

وقد علق الامير على هذه السيرة حواشي مفيدة سيرية وتاريخية وسياسية

ولغوية وأدبية تذكّر بحواشي حاضر العالم الاسلامي التي فضلت متنها ، والحلة لا تحلى في العين مالم تستكمل حاشيتها وردنها ، ومن أين لي أن أحصي ما أفدته من مطالعة هذه السيرة المباركة ، لولا بعض هفوات من الطبع قلما خلا منها كتاب طبع في الشرق ، وقد تحدث والمطبعة دائرة كنقص بعض الحروف مثال ذلك ص ٤٣٤ حماه بالهاء وهي بالتاء المثناة ، أو كزيادتها نحو (فضله) ص ٤٣٩ في (فصّله) بالصاد المهملة ، وجاء في حاشية ص ٣٤٥ س ٧ (واقتصر صاحب المصباح) ولعل تتمة القول (على الدعاوة) ، وفي الصفحة عينها و س ١٦ : القصية والصواب القصيا ، وأنوت به أثاوة وإثابة ، والصواب بالتاء المثناة في الالفاظ الثلاثة كما في لسان العرب .

وجاء في صفحة ٤٤٣ : فنصل العجم غيرة الملك ولعله عين الملك ، وفي السطر الثالث من حاشية ص ٤٤٨ اللمي وصوابه اللخمي ، وفي ص ٤٨٩ : لكل مجتهد أجر إن أخطأ وأجر إن أصاب ، والصواب وأجران إن أصاب ، وفي ص ٤٩٣ : يحضّون نار الشقاق ، والصواب يحضئون ، وفي ص ٥٨٠ : ما يناسب المعركة العجيبة الذي ذكرتموه ، والصواب التي ذكرتموها . وقد نشرنا هذه الهفوات قبل أن تطبع المطبعة فهرس التصويبات ولعلها تكون فيها ، فبارك الله بأمير البيان مؤلف هذه السيرة الطيبة ، وأعز به دولتي العرب والادب معاً ؟

التنوخي

ابن سينا

للأستاذ جميل صليبا

١٥٠ ص متوسطة — مطبعة ابن زيدون بدمشق

هذه هي الحلقة الخامسة من السلسلة الفلسفية التي يعنى بنشرها مكتب النشر العربي بدمشق الذي أثنينا في مجلتنا (١) على همة رجاله الثلاثة ونشاطهم في نشر عيون الآثار ، والحلقات الأربعة المتقدمة على هذه الحلقة هي : ابن خلدون والغزالي وابن طفيل للدكتورين جميل صليبا وكامل عياد ، والرابعة من افلاطون الى ابن سينا ، والخامسة ابن سينا التي نكتب عنها هذه الكلمة ، وكلتاهما للدكتور جميل صليبا رئيس التعليم الثانوي ومفتشه في وزارة المعارف ·

الأستاذ جميل صليبا الحكيم « الدكتور » في الفلسفة من أفضل من أكمل تحصيله في مدارس الغرب محافظةً على قوميته وغيرةً على دوس رجال سلفه الصالح ، ولم يكتف بمصطلحات الفلسفة في الفرنسية أو بما نشر في تعريبها في العربية والتركية ، فعكف على مطالعة كتب السلف في الفلسفة وفي علمي الكلام والتصوف ، وهما العلمان العربيان اللذان حضنا الفلسفة ، منقباً عما وضع علماؤنا من المصطلحات ومختاراً منها ما يدل تمام الدلالة على المعاني الفلسفية الحديثة ، ولذلك جاءت ترجماته ومؤلفاته في حلة عربية قشيبة لا تشوبها عجمة ، ولا تخفيها ظلمة ، لصحة تعبيرها وتوضيحها وتنويرها ·

لا يكتب الاستاذ صليبا الا بعد أن يدرس ويحيط بموضوعه تحليلاً وتنقيباً او بعبارة أوضح بعد أن يفهم ما يدرس ويتمثله جيداً ، ولذلك يجيء ما يكتبه صحيحاً في معناه ومبناه ، فان ظلمة التعبير أثر من ظلمة التفكير ، وبحثه هذا عن « ابن سينا » دلالة واضحة على ذلك ·

بدأ رسالته بتوطئة عامة ذكر فيها ابن سينا وانه لم يشتهر عند الاوروبيين

(١) انظر المجلد ١٤ صفحة ١٠٩

بشرح مذهب أرسطو اشتهار ابن رشد ، غير أن قيمته عند فلاسفة الإشراق أعظم من أن توصف ، وأن كتبه الطبية قد ترجمت الى اللغة اللاتينية كما ترجمت كتبه الفلسفية ، وبحث عمن عني من علماء أوروبة بفلسفته كغليوم الاوفرني والقديس توما دكينو وروجه باكون ، ثم بين المؤلف الفوارق بين الفلسفة الرشدية وفلسفة ابن سينا والفارابي وان فلسفتها مستمدة من الفلسفة الافلاطونية ، واستشهد المؤلف على احكامه الصحيحة بشواهد اقتبسها في الحواشي من كتب فلاسفة العرب كتهافت التهافت والشفاء ومنطق المشرقيين .

وابحاث الكتاب ممتعة تجلو كثيراً من غوامض ابن سينا حتى تكاد تمثل لك صورته بكثير من الوضوح ، كأبحاث حياته وآثاره وفلسفته ومصادرها العربية والاعجمية ، ومنها بحثه عن منطق ابن سينا في كتابه منطق المشرقيين وعن رأيه في النفس مستخرجاً من كتبه الثلاثة النجاة والشفاء والاشارات .

وختم الحكيم جميل صليبا كتابه هذا ببحث (الاخلاق والتصوف في نظر ابن سينا) فبحث عن العناية واللذة في إدارك الكمال ولذة العارفين ومقاماتهم ورياضة المريد والوصول وصفات العارف الى غير ذلك من الرقائق واللطائف ، فجزاه الله عن فلسفة أمته العربية خيراً ، فقد كشف عن سرها وقدرها حق قدرها .

التنوخي

***

ديوان البراعم

٢١٥ صفحة ، بالمطبعة العلمية بحلب

الاستاذ عمر يحيى شاعر حماة انسان نبيل يمتاز بصفات سامية فهو كريم النفس مخلص في الود ، رقيق الحاشية ، دقيق الشعور ، تعجبه الكلمة الطيبة ، ويرقصه المعنى الجميل

اما علمه بالمكتبة الادبية فجد عظيم ، وما حفظه من دررها نظماً ونثراً اعظم ، قرأ كثيراً ، وحفظ كثيراً ، فلذلك ترى في شعره مسحة لا تراها في شعراء هذا الجيل فهو جزل ، متخير الالفاظ ، له قوة جعلت بعض من يدرسون شعره ينقدونه ويحملون عليه ، وهذا في رأيي ما كان ينبغي ان يبكر هذا الشاعر من اجله ، فما احوجنا نحن الآن الى شعراء يحيون الاسلوب الجزل وينهجون نهج شاعر النيل حافظ — بلّ الله ثراه — في احياء اللغة الحرة الصحيحة وطرد الالفاظ السمجة والتراكيب الدخيلة المبتذلة .

واما معاني عمر فمنها العادي المطروق ومنها الثمين السامي ومن ارق شعره واسماه قوله في وداع غرناطة على لسان آخر ملوكها ابي عبد الله الصغير :

أطل المليك غداة الجلاء على مجده والاماني النور
وراح يقلب في افقه الحيـ ـب مجوناً تسيل الدرر
فراق ولا كفراق الشباب وشجو يذوب لديه الحجر
يمد الى الدار كف الوداع ويبكي فتبكي عليه الزمر
ليالٍ نقضت عليها النعيم يرف رفيف الخزامى سحر
وشوق مقيم اليها وأنى تعود اصائلها والبكر
هنا السرو فوق قبور الجدود وتبدو هناك مغاني السمر
وشنيل يجري حزين الخرير كأن الزمان به قد أضر
على ضفتيه جنان الخلود وفي حافتيه نعيم النظر
غياض تضوع ريحانها وأزهر فيها ضياء القمر
عجبت لقلبي كيف انثنى معي ولعقلي كيف استقر
امنت الزمان وحدثانه ففاز العدو وأعيا الظفر
فلا تحقرن عدواً رماك وإن كان في ساعديه قصر

ومن شعره الرقيق قوله في الناعورة وانينها ، وقد تفنن في ذلك كثيراً . وله شعر قومي قوي ينطق بما لعمر من متانة في عقيدته الوطنية وليس ادل على ذلك من قصيدته في فيصل وصالح قتباز ونكبة فلسطين .

اسعد طلس

المجلد الخامس عشر الجزء ٩ و ١٠

مجلة المجمع العلمي العربي

أنشئت سنة ١٣٣٩ هـ الموافقة لسنة ١٩٢١ م
تنشر في دمشق مرة في الشهر

ايلول وتشرين الأول سنة ١٩٣٧ م
جمادى الثانية ورجب سنة ١٣٥٦ هـ

دمشق :
المجمع العلمي العربي

قيمة الاشتراك السنوي { في سورية ولبنان ١٥٠ قرشاً سورياً
الدفع مقدماً { وفي جميع الاقطار ٤٠ فرنكاً

مجاميع المجلة عن السنين الماضية

من السنة الاولى ، ثمن السادسة الى كل سنة منها في الداخل ٢٥٠
« السابعة الى الثانية عشرة « « ٢٠٠
« الاولى الى السادسة « في الخارج ٤٠٠
« السابعة الى الثالثة عشرة « « ٣٢٥

مطبعة ابن زيدون * بدمشق

كتاب الورقة

تأليف محمد بن داود بن الجراح [1]

الكاتب المتوفى سنة ٢٩٦ للهجرة

صاحب الورقة — محمد بن داود بن الجراح ويكنى أبا عبد الله من أسرة أدب وسياسة ، فقد كان والده داود بن الجراح يكتب للمستعين وله من الكتب : كتاب التاريخ وأخبار الزمان وكتاب الرسائل ، وكان ابن أخيه علي بن عيسى بن داود على ما يذكره [2] ابن النديم بمنزلة من الرياسة يجل وصفها ، ومن الصناعة والفقه بما هو أشهر وأظهر ، ووزر للمقتدر ثلث دفعات .

أما محمد بن داود فقد وزر لعبد الله بن المعتز في يوم خلافته ، وكان عالماً قد لقي الناس ، وأخذ عن العلماء والفصحاء والشعراء ، واتسع اطلاعه على أيام الناس وأخبارهم ودول الملوك وله في ذلك مصنفات ، وكتب بخطه ما لا يحصى كثرة ، وجميع ما يقع بخطه قد قرأه وأصلحه .

مصرعه — قال ابن النديم : وظهر بعد فتنة ابن المعتز إلى مؤنس الخادم

---

(١) انظر ترجمته في فوات الوفيات لابن شاكر الكتبي طبع مصر ٢ : ٢٠٢ ، والفهرست لابن النديم طبع لايبسيغ ص ١٢٨ وطبع الرحمانية بمصر ص ١٨٥ ، والكامل لابن الاثير ج ٨ ص ٣و٥و٦و٧ في سنة ٢٩٦ هجرية .

(٢) الفهرست طبع لا يبسيغ ص ١٢٨ ، طبع مصر ص ١٨٥

وكان له قدم في أمره ، وخافه أبو الحسن بن الفرات فأشار بقتله فقتل ؛ وقال أبو عمرو محمد بن يوسف القاضي [1] : لما جرت واقعة ابن المعتز حبست أنا وابن المثنى ومحمد بن داود الجراح ، فكنا في دار في ثلاثة بيوت متلاصقات وبيتي في الوسط ، واذا أجننا الليل تحدثنا من وراء الجدار وأفضى بعضنا الى بعض ، فلما كان في بعض الليالي دخل الناس بشموع الى بيت محمد بن داود وأخرجوه وأضجعوه للذبح ، فقال يا قوم ذبحنا كالشاة ، أين المصادرات ، أين أنتم من الأموال ، أنا أفدي نفسي بكذا وكذا ، فلم يسمعوا منه وذبحوه وأخذوا رأسه وألقوه في البئر ، ثم أخرجوا ابن المثنى بعد ما ذهبوا وعادوا ، وقالوا : يا عدو الله يقول لك أمير المؤمنين : بمَ استحللت نكث بيعتي ؟ فقال لعلمي أنه لا يصلح ، فذبحوه وأخذوا رأسه ، وألقوا جثته في البئر ، ومضوا وعادوا وأخرجوني وقالوا : يقول لك أمير المؤمنين : يا فاعل ، ما الذي حملك على نكث بيعتي ؟ قلت : لشقاوتي وقد أخطأت وأنا تائب الى الله تعالى ، فحملوني الى دار الخلافة ، وابن الفرات جالس ، فوبخني فتنصلت واعتذرت ، فقالوا : وهب لك أمير المؤمنين ذنبك ، واشتريت دمك وجرمك بمائة ألف دينار ، فقلت : والله ما رأيت بعضها مجتمعاً قط ، فغمزني الوزير فأديت البعض وسومحت بالباقي ، وكانت وفاة ابن الجراح سنة ست وتسعين ومائتين للهجرة

شعره — ولابن الجراح شعر يدل على صحة طبع وتشاؤم نفس ، ولم نظفر من شعره القليل بما يكفي للحكم الصادق عليه فمنه قوله :

قد ذهب الناس فلا ناسُ وصار بعد الطمع اليأسُ
وصار أسَّ القوم أذنابهم وصار تحت الذنب الراس

وقوله :

أعين أخي لو صاحبي في مصابه أقوم له يوم الحفاظ وأقصدُ
ومن يفرد الأقوام فيما ينوبهم تبته الليالي مرةً وهو مفرد

كتاب الورقة — وللمترجم مصنفات ممتعة جمة منها كتاب الشعر والشعراء

(١) وفاة الوفيات ٢ : ٢٠٢ .

لطيف ، وكتاب من سمي عمراً في الجاهلية والاسلام ، وكتاب الوزراء ، ولم نعثر منها على غير كتاب الورقة ، قال الكتبي في فواته : « سماه بذلك لأنه في أخبار الشعراء ، ولا يزيد في خبر الشاعر الواحد على ورقة ، ولهذا سمي الصولي كتابه في أخبار الوزراء بالأوراق لانه أطال في أخبار كل واحد بأوراق » .

إن التسمية بالورقة أو الاوراق وتخصيصها بنوع خاص من التأليف يدل على مبلغ التفنن في التصنيف في العصر العباسي ، والحضارة اذا استبحرت في أمة كثر فيها التفنن واختراع ما لم يكن معهوداً من قبل ، وهذه التسمية بالورقة يذكرنا بلفظة الوريقة **Feuilleton** في اللغة الفرنسية ، وهي تطلق على مقالة في الادب أو العلم أو النقد أو على رواية تظهر تباعاً في احدى الجرائد وتنشر ابداً في موضع خاص بها ، واكثر ما يكون ذلك في اسفل الصفحة من الجريدة .

ولقد أصبح كتاب الورقة لندرته في حكم المفقود ، وبلغنا أنه لا توجد منه نسخة قديمة الا في دار الكتب في طهران ، ثم علمنا أن لدى صديقنا السيد أحمد الصافي النجفي نسخة مخطوطة من كتاب الورقة ، فبادرت الى زيارته مع صديقنا السيد عبد العزيز الميمني ، فألفيناها بخط جميل على ورق صقيل ، وتشتمل على ترجمة خمسة وستين شاعراً منهم خمسة وعشرون ورد ذكرهم في الاغاني والوفيات وأمثالها من كتب التراجم ، والباقون اربعون شاعراً ليس لهم على أغلب الظن ذكر في هذه المظان .

وقد رأينا أن ننشر ترجمة الأصمعي من كتاب الورقة لتكون مثالا لسائر تراجمه ، وفيها من شعر الأصمعي ما لم نظفر به في المخطوطات والمطبوعات التي عرفناها ، وهذه الترجمة ، كما يرى القارىء ، في نحو ورقة أي صحيفة ذات صفحتين ، وهو السبب الذي من أجله سمى ابن الجراح مؤلفه اللطيف بكتاب الورقة كما نقله الكتبي في فواته الينا :

الاصمعي

عبد الملك بن قريب الباهلي ، ويكنى أبا سعيد البصري ، راوية للشعر والغريب ، موثوق به في الحديث ، روى عنه يحيى بن معين فأكثر ، وصحب الرشيد وأعطاه مالا جزيلا وخص به ، وله أشعار جياد وأراجيز ، ومن قوله في إسحق بن إبراهيم الموصلي :

إذا تغنّيت للشّرب الكرام ألا   حثّ الخليط جمال الحيّ فانطلقوا
وقيل: أحسنت فاستدعاك ذاك الى   «ياقلب ويحك لا يذهب بك الحزن»
وقيل أنت حسان الناس كلهم   وابن الحسان فقد برّوا وقد صدقوا
فما بهذا تقوم النادبات ولا   تبكي عليك اذا ماضمك الحزُن[1]

وكان الشعر سهلا عليه لو لا على لسانه[2] ، وفيه يقول عبد الصمد بن المعذل :

لن تلبسوا منطقي بشكله   الا عن الاصمعيّ أو خلف

يريد خلف الاحمر ؛ قال أحمد بن القاسم بن يوسف الكاتب عن عمه علي بن يوسف بن العباس عن الأحنف أنه أنشد الرشيد أبياته التي يقول فيها :

إذا ما شئت ان تبصر   شيئاً يعجب الناسا
فصوّر ههنا فوزاً   وصوّر ثمّ عباسا
وقس بينهما شبراً   وإن زاد فلا باسا
فان لم يدنوا حتى   ترى رأسيهما راسا
فكذّبها وكذّبه   بما قاست وما قاسى

قال فاستحسنها الرشيد وقال : هل سبقك إلى هذا المعنى أحد ؟ فقال : عليّ بالاصمعي وسأله : هل تعرف شيئاً منه ؟ قال : كثير ، ولكن حاقن

(١) لغة في الحزن بسكون النون وفتح الحاء او جمع حزنة ، أو تكون (الحزن) جمع حزن

(٢) كذا ، ولعل الاصل لولا ثقل على لسانه او حبسة

واعجلني الرسول عن البول ، فخرج ثم رجع وقد صنع أبياتاً مثلها على الراء وعلى القاف ، قال فيها :

يعجب الحلقا ، يعجب البشرا ، وأتمها على هذا ، وزعم انه سمعها مذ دهر فخجلت وانصرفت محزوناً ، فقلت له لما خرجت : سألتك بالله ، الست انت صنعتها ؟ قال : بلى ، وانت أيضاً فعاذ الرجال ! وكتب الي الكراني أنشدني عبد الرحمن ابن اخي الاصمعي لعمه أرجوزة طريفة اولها :

يارُبَّ خود من بنات الاحرارْ   من آل كسرى في ذرى الزند الوارْ
يستن في مفرقها مسك الفارْ   كأنها من جسد في الاعطار
وزعفران شرقٍ بالابصار   عدا على لباتها عرق ضار
يموت فيها فيشر كالطومار   مستغنياً عن عمرات العطار

وهي نيف وخمسون بيتاً ، قال ابو هفان : ليس في وصف وقع شيءٍ على شيءٌ احسن من قول الاصمعي :

كأنما وقع أقلام الرجال بها   حسن الطراف بوقع المسبل الساري

وهذا يقوله في قصيدته التي يرثي بها سفيان بن عيينة أنشدنيها ابن فهم عن الاصمعي ، ومن قول الاصمعي في الحية :

أرقش أن أسبط أو تثنى   حسبتَ ورساً خالط اليُرَنَّا (١)
خالطه من ههنا وهنّا   اذا تراآه الحداةُ أُستنا

التنوخي

---

(١) اليُرنّاء والَيرنا واليرنّاء : الحناء ، وقيل : إذا قلت اليَرَنّا بفتح الياء همزت لاغير ، وإذا ضممتَ جاز الهمز وتركه .

عدي بن الرقاع العاملي

٢

شعره

عاصر عدي بن الرقاع سبعة خلفاء من بني أمية وكان مقدماً عندهم لان مذهبه السياسي أموي ولا عمل له غير الشعر وقد حدث في زمانهم من الاحداث ما يبعث الشعر في نفس عدي فمن المفروض ان يكون قال كثيراً من الشعر وقد ذكر له ابن النديم في كتاب الفهرست ديواناً . ولكن الزمان لم يبق من شعره إلا مقداراً يسيراً مشتتاً في كتب اللغة والادب والتاريخ وتقويم البلدان من ذلك أبيات قالها في الوقعة التي ظفر بها عبد الملك بن مروان وانتهت بقتل مصعب بن الزبير وقصيدتان مدح بهما الوليد بن عبد الملك سبقت الاشارة اليهما وابيات مدح بها عمر بن الوليد ومقطوعات في معاني مختلفة كالوصف والغزل والادب والفخر والمدح والهجاء والتهنئة وكلها لا تبلغ ثلاثمائة بيت وهو مقدار يسير لا يعطينا عن الشاعر صورة تامة واضحة ولكنا نحاول ان ندرس هذه البقية من شعره إلى أن يجود الزمان بشيء مما ضن به علينا

* * *

عدي ابن الرقاع شاعر إسلامي والشعراء الإسلاميون عامة كالفرزدق

وجرير والأخطل وكثير وجميل والراعي ونصيب والقطامي ، وعدي واحد منهم أعذب لغةً وأحسن ديباجةً وأكثر طلاوةً من شعراء الجاهلية وذلك لتأثرهم بلغة القرآن وحسن انسجامه وسمو أسلوبه دع ما انفسح أمامهم من ميادين الحياة الإسلامية في مثلها العليا من دين وملك لم يكونا في أيام الجاهلية .

وربما كان عدي من أكثر هؤلاء الشعراء انسجاماً وتثقيفاً لشعره وتهذيباً لقوافيه وهو الذي يخبرنا كيف كان يحبر قصائده ويصقلها ويعود عليها بالتهذيب إذ يقول :

وقصيدة قد بتُّ أجمع بينها حتى أقوّم ميلها وسنادهـا
نظر المثقف في كعوب قناته حتى يقيم ثقافه منآدهـا

وهو في فنه صائغ ماهر لا يكره الشعر إكراهاً ولا يقتسر القوافي غصباً ولقد أتيح له من بارع الابيات في انسجامها ما ذهب مثلاً كقوله :

صلى الإله على امرئ ودعته وأتم نعمته عليه وزادهـا

فلقد صار عجز هـذا البيت رسماً من رسوم الكتاب في رسائلهم قال أبو هلال العسكري في ديوان المعاني في فصل دعاء المكاتبة : (فأما قولهم وأتم نعمته عليه وزاد في إحسانه اليه) فهو من قول عدي بن الرقاع:
صلى الإله ..... الخ

وكقوله :

فلو قبل مبكاها بكيت صبابةً بسعدى شفيت النفس قبل التندم
ولكن بكت قبلي فهيج لي البكا بكاهـا فقلت الفضل للمتقدم

وكم تمثل الناس بهذين البيتين

***

قالوا إن عدياً من حاضرة الشعراء لا من باديتهم وإنه كان أثيراً مقدماً عند بني أمية ومعنى ذلك أنه من دعاة سياستهم لا من الشعراء الذين يبيعون الشعر

بيعاً . فهل لذلك اثر في شعره ؟ نعم ان اطراد شعره وتساوق أبياته وتلاحم وتهذيب قوافيه وحسن صياغته وما في تشبيهاته من معان حضرية وفي قصائد من ماء وظل ونعيم كقوله:

فقد أبيت أراعي الخود راقدةً على الوسائد مسروراً بها ولها

وقوله :

وما شجاني أنني كنت نائماً أعلل من برد الكرى بالتنسم
الى أن بكت ورقاء في غصن أيكة تردد مبكاها بحسن الترنم

أثر من آثار نعيم العيش ورفاهته فان شعراء البادية يتوسدون في باديتهم أعضاد المطايا وعدي يراعي الخود على الوسائد ويعلل في ظلال الأيك بدمشق بنوم هنيء تترنم من فوقه الحمائم .

على أن حسن تأتيه في مدحه لبني أمية خلفائهم وامرائهم أدل على لباقته وتحضره فهو شاعر مجيد من شعراء القصور يحسن القيام برسوم الخلفاء والامراء في مخاطبتهم على الوجه الأكمل ويمدحهم بما هو أشبه بالدعاية السياسية ويضفي عليهم رداء الجلال والعظمة فاسمعه يقول في مدح الوليد بن عبد الملك :

صلى الذي الصلوات الطيبات له والمؤمنون إذا ما جمعوا الجمعا
على الذي سبق الاقوام ضاحية بالاجر والحمد حتى صاحباه معا
هو الذي جمع الرحمن أمته على يديه وكانوا قبله شيعا
عذنا بذي العرش أن نحيا ونفقده وان نكون لراعٍ بعده تبعا
إن الوليد أمير المؤمنين له ملك عليه أعان الله فارتفعا

ويقول في مدحه أيضاً :

صلى الإله على امرئٍ ودعته وأتم نعمته عليه وزادها
أو لا ترى أن البرية كلها ألقت خزائمها اليه نقادها
ولقد أراد الله إذ ولاكها من أمة إصلاحها ورشادها
أعمرت أرض المسلمين فأقبلت وكففت عنها من يروم فسادها
وأصبت في أرض العدو مصيبة عمت أقاصي غورها ونجادها

ظفراً ونصراً ما تناول مثله   أحد من الخلفاء كان أرادها
فإذا نشرت له الثناء وجدته   جمع المكارم طرفها وتلادها
تأتيه أسلاب الاعزة عنوةً   قسراً ويجمع للحروب عتادها

فهل ترى غلطاً أليق بمخاطبة الخلفاء من هذا النمط تحية الخليفة بالصلاة عليه وتعظيم للاسم المضطلع به وإشادة بعظائم أعماله في سبيل الامة وإخلاص في محبته وتأييد للملكة وعرشه بل كيف ترى الفرق بين هذا الاسلوب الحضري وبين أسلوب بعض بادية الشعراء الذين اعتادوا أن يصفوا الممدوح بالحية الذكر ويمدحوه بتأريث النيران وعظم القدور ونحر الجزور ودعوة الجفلى والنداء على الطعام وكثرة الهبات أو أن يصفوا عناء سفرهم إلى الخليفة وما لاقوه من المشاق وماهم عليه وعيالهم الذين خلفوهم وراءهم من الفاقة ليزيد الخليفة في رفدهم ·
هذا جرير أطبع أهل زمانه على الشعر لم يستقم له في مدح الخلفاء ذلك الاسلوب الذي استقام لعدي فانه في مدحه لعمر بن عبد العزيز أشبه بالمستجدي منه بالشاعر قال :

إنا لنرجو إذا ما الغيث أخلفنا   من الخليفة ما نرجو من المطر
أأذكر الجهد والبلوى التي نزلت   أم قد كفاني الذي بلغت من خبري
كم بالمواسم من شعثاء أرملة   ومن يتيم ضعيف الصوت والنظر
يدعوك دعوة ملهوف كأن به   مسا من الجن أو خبلاً من البشر
ممن يعدك تكفي فقد والده   كالفرخ في العش لم يدرج ولم يطر
خليفة الله ما ذا تأمرون بنا   لسنا اليكم ولا في دار منتظر
لتنعش اليوم ريشي ثم تنهضني   وتنزل اليسر مني موضع العسر

وما ذلك الا لبداوة جرير وبعده عن حياة الحاضرة على أنه بحر لا ساحل له ·

ولعدي أيضاً أبيات يمدح بها أحد أمراء بني أمية وهو عمر بن الوليد بن عبد الملك تدل على لباقة وحسن تأت لو قالها أحد شعراء القصور في هذه الايام لأثارت إعجاب الناس لما فيها من حذق ولباقة وهي :

وإذا نظرت الى أميري زادني ضنًّا به نظري الى الأمراء
تسمو العيون اليه حين يرونه كالبدر فرّج بهمة الظلماء
والقوم أشباه وبين حلومهم بون كذاك تفاضل الاشياء
كالبرق منه وابل متتابع جود وآخر ما يجود بماء
والاصل ينبت فرعه متأثلا والكف ليس بنانها بسواء
بل ما رأيت جبال أرض تستوي فيما غشيت ولا نجوم سماء
وللمرء يورث مجده أبناءه ويموت آخر وهو في الاحياء

وفي شعر عدي غدا النعومة الحضرية مفردات ومعان تدل على الحضارة كذكر الكتاب والقلم والدواة والبريد والتجار كقوله :

تزجي اغن كأن ابرة روقه قلم أصاب من الدواة مدادها

وكقوله :

لمن رسم دار كالكتاب المنمنم بمنعرج الوادي فويق المهزم

وقوله :

ونحن بأرض قلّ ما يجشم السرى بها العربيات الحسان الحرائر
كثير بها الأعداء يحسر دونها بريد الأمام المستحث المثابر

وقوله :

مستطير كأنه سابري عند تجر منشر وملاء

على ان أثر البادية ظاهر جلي في شعره أيضاً فأنت تدرك به روح البادية كما تبصر أفياء الحاضرة فتراه يصف المطايا والمفاوز وما فيها من أعلام طامسة وأطلال دارسة ووحوش راتعة ولكنه ينتزع لها تشبيهات مما شاهده في الحاضرة بمتانة وصف وقوة أسر وجزالة تركيب ولعل عدم انقطاعه عن البادية هو الذي كفل لشعره السلامة مما يعتري كثيراً من شعراء الحواضر ويسميه النقاد باللين ويعنون به الرقة التي تفضي الى الاسفاف ونجد هذا اللين في شعر عدي بن زيد

العبادي وأمية بن أبي الصلت وابن قيس الرقيات والوليد بن يزيد وكلهم حضريون .

وهكذا نشعر عدي بما فيه من روح البادية ورونق الحاضرة عربي في جزالته ووصفه وخياله ومعانيه وتفكيره ونظراته لا تجد فيه أثراً من ثقافة أجنبية شأن جميع الشعراء الاسلاميين لان الحياة بجميع مظاهرها أيام بني أمية كانت عربية إسلامية .

لقد أحسن عدي في الوصف فإنه وصف الطيف والغيث والبرق والليل والخمر والمطايا والظباء والوحوش في حركاتها وما تثيره من الغبار في عدوها . قال صاحب الاغاني قال عبد الله بن مسلم : « ومما ينفرد به (عدي) ويقدم فيه وصف المطية فإنه كان من أوصف الشعراء لها »

قال في الخيل :

يخرجن من فرجات النقع دامية كأن آذانها أطراف أقلام

وقال ابن قتيبة : عدي أحسن من وصف الظبية وولدها .

وقال جرير : سمعت عدي بن الرقاع ينشد الوليد بن عبد الملك قصيدته التي أولها :

عرف الديار توهماً فاعتادها

فحسدته على أبيات منها حتى أنشد في صفة الظبية والغزال

تزجي اغن كأن ابرة روقه

فرحمته من هذا التشبيه وقلت بأي شيء يشبهه ترى فلما قال :

قلم أصاب من الدواة مدادها

رحمت نفسي منه وحالت الرحمة حسداً .

قال أبو هلال العسكري في ديوان المعاني : (واما قول عدي في صفة قرن الظبي فليس له شبيه) .

ولم يقل أحد كما قال عدي يصف حماري الوحش في عدوهما وما يثيرانه من الغبار :

يتعاوران من الغبار ملاءة غبراء محكمة هما نسجاها
تطوى إذا علوا مكانا جاسيا وإذا السنابك اسهلت نشراها

والى ذلك أشار أبو تمام الطائي بقوله :

تثير عجاجة في كل ارض يهيم بها عدي بن الرقاع

وقال ابو هلال العسكرى في ديوان المعاني بعد أن أورد بيتي عدي : (لا اعرف في صفة الغبار أحسن ولا أتم من هذا)

وعدي في غزله محسن رقيق عذب يغلب عليه الوصف الدقيق في المعاني الغزلية ، من ذلك وصف تفتير العينين ولم يقل أحد مثله . قال نوح بن جرير يا أبت من أنسب الشعراء ؟ قال أتعني ما قلت قال إني لست أريد من شعرك انما اريد من شعر غيرك قال ابن الرقاع في قوله :

لولا الحياء وان رأسي قد عسا فيه المشيب لزرت أم القاسم
وكأنها بين النساء أعارها عينيه أحور من جآذر جاسم
وسنان أقصده النعاس فرنقت في عينه سنة وليس بنائم

ثم قال لي ما كان يبالي ان لم يقل بعدها شيئاً .

وهذه الابيات مما يتغنى به . قال محمد بن عباد كنت عند أبي عمرو وعنده رجل أعرابي كأنه مدني فقرأت عليه ابيات عدي : (لولا الحياء وان رأسي قد عسا) فقال ابو عمرو أحسن والله فقال الاعرابي أما والله لو رأيته مشبوحا بين اربعة وقضبان الدفلى تأخذه لكنت له أشد استحسانا يعني إذا كان يغني على العود .

قال القاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني في كتاب الوساطة : «واما قول عدي (وسنان ...) فقد زاد به على كل من تقدم وسبق بفضله جميع من تأخر ولو قلت اقتطع هذا المعنى فصار له وحظر على الشعراء ادعاء الشرك فيه لما اراني بعدت عن الحق ولا جانبت الصدق»

وقال ابو هلال العسكري في ديوان المعاني : قال ابو عمرو لاصحابه ما أحسن ما قيل في العيون ؟ قال بعضهم قول جرير

ان العيون التي في طرفها حور قتلننا ثم لم يحيين قتلانا
يصرعن ذا اللب حتى لا حراك به وهن أضعف خلق الله أركانا

وقال آخر قول ذي الرمة :

وعينان قال الله كونا فكانتا فعولان بالالباب ما تفعل الخمر

وقال آخر بل قوله

يذكرني ميًا من الظبي عينه مراراً وفاها الاقحوان المنوّر

فقال أبو عمرو أحسن من هذا كله قول عدي بن الرقاع العاملي:

وكأنها بين النساء أعارها عينيه أحور من جآذر جاسم
وسنان أقصده النعاس فرنّقت في عينه سنة وليس بنائم

ومن غزله العذب قوله:

صادتك أخت بني لؤيّ إذ رمت وأصاب سهمك اذ رميت سواها
وأعارها الحدثان منك مودةً واعير غيرك ودها وهواهـا
بيضاء تستلب الرجال عقولهم عظمت روادفها ودق حشاها
يا شوق ما بك يوم بان حدوجهم من ذي المويقع بغدوةٍ فرآها

وقوله :

ونبه شوقي بعد ما كان نائماً هتوف الدجى مشغوفة بالترنم
بكت شجوها عند الضحى فتساجمت اليها دموع العين من كل مسجم
فلو قبل مبكاها بكيت صبابةً بسعدى شفيت النفس قبل التندم
ولكن بكت قبلي فهيج لي البكا بكاها فقلت الفضل للمتقدم

وله نظرات في الادب والحكمة تغلب عليها السذاجة العربية زين بها بعض قصائده في مناسبات شتى كالابيات التي مدح بها عمر بن الوليد بن عبد الملك وقد سبق ايرادها وغيرها كقوله :

أخبر النفس انما الناس كالعيـ ـدان من بين نابت وهشيم

وقوله :

والدهر يفرق بين كل جماعة ويلف بين تباعد وتناء

وقوله :

وللمرء ليس وان طالت معيشته يرى الذي هو لاق قبل ان يقعا

وقوله :

إني إذا ما لم تصلني خلتي وتباعدت عني اغتفرت بعادها

ومن المعاني التي نظم بها عدي التهنئة وهو معنى لم تقل الجاهلية فيه قال يهنئ عبد العزيز بن الوليد بن عبد الملك حين تزوج :

قمر السماء وشمسها اجتمعا بالسعد ما غابا وما طلعا
ما وارت الاستار مثلهما فيمن رأيناه ومن سمعا
دام السرور له بها ولها وتهنآ طول الحياة معا

اثر الشام في شعر عدي

الشعر العربي ابن البادية تعبق منه رائحة الشيح والقيصوم في بوادي الحجاز ونجد وهضاب اليمن وظلال الشام وشواطئ دجلة وسقي الفرات ، والشاعر العربي لعهد عدي يعتد روح البادية عمود الشعر وقوامه ولكن بالرغم من ذلك فان أثر الشام واضح جلي في شعر عدي فلقد ذكر مدنها وحواضرها وقراها وربوعها ورياضها وظلالها وأنهارها ومياهها وجبالها وباديتها كما ذكر آرامها ووحوشها وطيورها مثل حمص وخناصرة والاحص وجاسم والمرج والمناظر والازرق واعامق وفلسطين وبيت رأس والاردن والغريفة وغيرها وطبيعة الشام المنسجمة الساحرة في ارضها وسمائها وما في دمشق يومئذ من جلال الخلافة وعظمة الملك أوحى الى عدي كثيراً من ذلك الانسجام واللباقة والتثقيف في شعره حتى صار يعتد ذلك فناً خاصاً بالشاميين لا يجيده غيرهم ولذلك كان عدي ينتقد كثير عزة ويغمزه ويطعن على شعره ويقول

(هذا شعر مجازي مقرور إذا أصابه قر الشام جمد وهلك) وهكذا نعده في نحور بربيته وشاميته معترف بما توحيه طبيعة الشام الساحرة الى الشاعر العربي حتى يرى نفسه فوق شعراء العربية .

ولقد وجد عدي في بادية الشام مجالا لرياضة الشعر على النحو الجاهلي في بوادي نجد والحجاز فاعتسف مفاوزها ووقف على الرسوم وبكى الاطلال ووصف الآل وحن إلى آكامها وداراتها وربوعها وشبب بغزلانها واهتاج للمع بروقها .

وهذه أمثلة من شعره يلوح عليها الطابع الشامي :

منعوا الثغرة التي بين حمص والكهاتين ليس فيها عريب
وإذا الربيع تتابعت انواؤه فسقى خناصرة الاحص فجادها
وكأنها بين النساء أعارها عينيه أحور من جآذر جاسم

والغريب أن القاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني صاحب كتاب الوساطة على نفوذ بصره وصحة أحكامه في النقد أساء فهم هذا البيت فظن أن ذكر جاسم من حشو الكلام لا فائدة في ذكره فقال بعد أن قرظ البيت « وقد رأيت ظباء جاسم فلم أرها إلا كغيرها من الظباء وقد يختلف خلق الظباء وألوانها باختلاف المنشأ والمرتع وأما العيون فقل أن تختلف لذلك » وفاته أن عديا شامي وجاسم من قرى الشام فلجآذرها منزل في قلبه لا يحتله غيرها .

ومن شعره المطبوع بالطابع الشامي :

فكأني من ذكركم خالطتني من فلسطين جلس خمر عقار
عتقت في الدنان من بيت راس سنوات وما سبتها التجار

وقوله :

حتى وردن من الازرق منهلا وله على آثارهن محبل

وقوله

فذرذا ولكن هل ترى ضوء بارق وميضا ترى منه على بعده لمعا
تصعد في ذات الارانب موهنا اذا هز رعدا خلت في ودقه شفعا

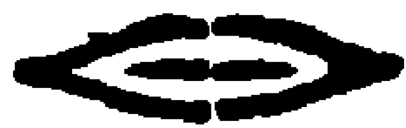
الى ما يشابه هذه الابيات في شعره . وهناك ابيات يلم فيها بالاحداث السياسية التي جرت في الشام كوقعة مرج راهط التي كانت بين مروان بن الحكم والضحاك بن قيس سنة أربع وستين وما كان من بلاء أهل الأردن الحسن مع مروان حتى قتل الضحاك وتم الأمر لمروان قال :

لولا الإله وأهل الاردن اقتُسمت نار الجماعة يوم المرج نيرانا

وكانتصار مسلمة بن عبد الملك على الروم سنة سبع وثمانين عند طوانة قال :

وكان أمرك من أهل الطوانة من نصر الذي فوقنا والله أعطانا
أمراً شددت باذن الله عقدته فزاد في ديننا خيرا ودنيانا

يتبع خليل مردم بك



المعجمية العربية

في ضوء الثنائية والألسنية السامية

(تابع للمقال السابق)

La lexicologie arabe à la lumière du bilittéraiisme et de la philologie sémitique

٩) صلّى صلاة

حسب قواعد الاعلال في العربية ، أصل صلاة ، صَلَوَة وزان فعَلة ، قلبت واوها الفًا لتحركها وانفتاح ما قبلها . « صلاة » اسم من الفعل الثلاثي المجرد الوارد ناقصاً ، واويا أو يائياً ، بالمعاني المضاربة التالية .

العربية

صَلى (يصلي) اللحمَ : شواه ، و— القاه في النار للاحراق ، و— فلانا : خدعه ، و— زيداً النار ، وفيها : أدخله إياها ، واثواه فيها ، و — الطير : نصب له الشرك ، و— لفلان في أمر : أوقعه فيه ليهلكه .

صَلِيَ النارَ ، وبها : قاسى حرها ، و— الامر ، وبه ، عانى شدته ، وصليَت الناقة : وقع ولدها في صلاها ، و— استرخى صلاها لقرب نتاجها .

صَلىّ عصاه على النار : لينها وقومها ، و— يده : سخنها ، و— الشيءَ القاه في النار ليحترق ، و— اللحم : احرقه ، و— الرجل الشيءَ لزمه .

تصلّى النارَ، قاساها، و— استدفأ .

الصلا النار، و— الوقود .

الصلاء النار، و— الوقود، و— الشواء .

* * *

صَلا صلاه : اصاب صلاه .

صَلّى الفرسُ تصلية : اذا جاء مصلياً، وهو الذي يتلو السابق، لان رأسه عند صلاه، و— الحمارُ اتنه : طردها وقحمها الطريق، و— الله على رسوله: بارك عليه وأحسن الثناء عليه، و— الظَهْر : ضرب صلاه، أو أصابه، و— الرجلُ : دعا وأقام الصلاة .

الصَلا مصدر، و— وسط الظهر من الناس والبهائم، و— ما انحدر من الوركين .

الصلاة الدعاء : و— الرحمة، و— الاستغفار، و— حسن الثناء من الله، و— عبادة فيها ركوع وسجود، و— احدى الصلوات المفروضة .

* * *

السريانية :

Ṣlā , ṣlī مال، انعوج، زاغ، نزل، حل، اتجه، صلى، نصب شركا، عوّج، حدّر، وجه، قوم .

Ṣallī صلى، بارك، تضرّع، صلى، أمال، أحنى، أصلح، رد احداً إلى منصبه .

Ṣlayyā ميل، انحراف، انحناء، منحدر

Ṣlō, ṣlōtā صلاة .

العبرية :

Ṣālāh شوى

Ṣlī مشوي

على أن هذه الثلاثيات الناقصة صادرة عن الثنائيات التالية : وبها يتسنى تنسيق المعاني المتضاربة ٠

العربية :

صَلَّ ، صَلَّ انتن اللحم ، أجن الماء ، و— يبس المعى من العطش ؛ و— يبس السقاء ، و— صوّت ، و— صغي ٠

الصِلّة المطرة الواسعة والمتفرقة ؛ و— التراب الندي ؛ و— القطعة من العشب ؛ و— الارض اليابسة ؛ و— الجلد اليابس قبل الدباغ ؛ و— النعل ، و— صوت المسار ٠

صَلصَلَ صوت ؛ و— أوعد وتهدد ٠

***

السريانية :

Ṣal «a» صَلّ ، طَنّ ، دوى ٠

Ṣal «0» صَلّ ، نَقي ، صفى ، راق ، صفا ٠

Ṣaloal صلّ ، نظف ، صلصل ، صوّت ، رنّ ٠

Ṣlaltâ صليل ، طنين ، ولولة ، عويل ، صفاوة ٠

Ṣlôlitâ جمرة متقدة ٠

Ṣâlâ صَلة ، جلد يابس ٠

العبرية :

Ṣâlal طنّ ، رنّ ، دوى ، خفق ، ارتعد ، صفا ، راق ٠ سقط ، غطس غرق ٠

Ṣilsôl صوت ، طنين

Ṣalṣal صوّت ، طنّ

تعليل وتنسيق

صَلْ

١) أول ما دل عليه هذا الحرف انما هو الحرارة ، وهو ظاهر في معاني «صَلى» ومشتقاتها ، وهذه هي :

صَلى	:	شوى اللحم ، أي حماه أو ألقاه في النار للاحراق .
صلى	:	يده أي سخنها .
صلِيَ	:	النار ، قاسى حرها .
تصلّى	:	بمعنى صَلي .
اصطلى	:	استدفأ أي حمي .
الصلى	:	النار ، الوقود ، أي المحروق بالنار .
الصلاء	:	النار ، الوقود ، الشواء .

* * *

وكذا الحال في العبرية . فان Sâlah يدل على شوى ، Sli مشوي . أما السريانية فلا أثر فيها لهذا المعنى ، الا في كلمة Slôlîta جمرة متقدة . ومن باب المجاز ، جاء «صلى» بمعنى الخديعة ، ونصب الشرك ، والالقاء في التهلكة . وكذا في السريانية Sla نصب الشرك . ثم بالمعنى المجازي جاء أيضاً «صلى» بمعنى الليونة ، لان النار تلين وتذوب . ثم بمعني الملازمة ، لان الحرارة ، إذا تغلغلت في شيءٍ ، لازمته ، أولا اقل من أن تبطئ في مفارقته .

٢) إن المواد القابلة التخمر ، ومن ثم النتانة ، يتولد ذلك فيها بقوة الحرارة ، ولذا نرى «صَلّ» بمعنى انتن اللحم ، وأجن الماء . و «الصّأة» الجلد المنتن .

٣) إن الحرارة ، إذا دخلت في شيءٍ مبلول أو رطب ، جردته من الرطوبة إلى حد أن تيبسه ، فلذا ورد الثنائي (صَلّ) بمعني اليبوسة . من ذلك : صلّت الإبل : يبست أمعاؤها من العطش . وصلي السقاء : يبس . الصأة : الجلد اليابس قبل الدباغ

و— النعل ، وهو الجلد اليابس ، و— الأرض اليابسة ، وفي السريانية أثر لهـذا المدلول في كلمة Ṣâlâ : صأة ، أو جلد يابس ·

٤) على أن الجلود وغيرها من المواد التي تيبس بفعل الحرارة ، أو التي هي من طبعها يابسة ، من شأنها أن تصوت ، لهذا نشأ للمعنى الثالث للثنائي « صل » صوت · وصلت أمعاء الإبل : اذا يبست من العطش فصوتت · من ذلك أيضاً : صلصل : صوّت · والصلة · صوت المسمار واللجام · وفي السريانية · Ṣal : صل · طن · رن · Ṣalṣal صلصل · و Ṣloltâ · صليل ، طنين · وفي العبرية Ṣâlal دوى ، طن · و Ṣalṣal صوت ، طن ، و Ṣalṣâl صوت ، طنين ·

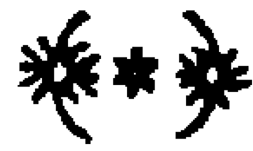
ثم من ذلك المعاني المجازية في العربية : صل : أوعد ، تهدد ، لان الوعيد يجري عادة بالصوت العالي أي الصراخ · وفي العبرية ṣalal خفق ، ارتعد · وفي السريانية ṣlaltâ ولولة ، عويل ·

٥) إن الحرنرة اذا يبست الشيء ، انفرزت منه المواد الفاسدة ، فيضحي صافياً رائقاً · من ذلك وردت المدلولات التالية ، في العربية صل صفي · وفي السريانية Ṣal : صفى ، نقى ، نظف ، راق ، صفا ، وفي العبرية Ṣâlal : صفا ، راق ·

٦) ان انفراز الشيء من الشيء ينجم عنه الخروج ومن الخروج الاتجاه أو الميل أو الانحراف ، ومن هذا جاءت المعاني الآتية : في السريانية ṣla اتجه ، مال ، وجه ، عوج · و ṣalli : أمال ، احنى ، رد الرجل الى منصبه ، أصلح ، أي أعاد الشيء الى حالته الاولى الصالحة · و ṣlayyâ ميل ، انحراف ، انحناء · و ṣlâtâ صلاة ·

واذا زاد الميل او الانحناء في الشيء بلغ به الى النزول لا بل الى السقوط حتى الغطس أو الغرق ، وعليه نرى في السريانية ṣla يعني حل ، نزل ، حدر · و ṣlayyâ ، منحدر ، وفي العربية ، صلا ، صليت الناقة · وقع الولد في صلاها ، و— استرخى أي انحدر صلاها · الصلا · وسط الظهر · و— ما انحدر من الوركين · صلّى الفرس · اذا جاء مصلياً ، أي متبعاً وحانيا رأسه نحو صلا سابقه ، و— الحمار أتنه : طردها واتبعها ، و— الظهر : ضرب صلاه ، أي منحدره ، الصلة : للمطرة النازلة ، الخفيفة ،

للتفرقة . ومن هذا المعنى الصلة ، القطعة من العشب ، والتراب الندي ، وفي العبرية sālal سقط ، غطس ، غرق ، وفي الاكدية salālu : ارتمى ، رقد ، سقط .



الصلاة

الصلاة : الدعاء ، و— الرحمة ، و— الاستغفار ، و— حسن الثناء ، و— عبادة فيها سجود وركوع ، و— احدى الصلوات المفروضة . الصلاة شرعا أقوال وأفعال . الصلاة مشتقة من « صل وصلا » « صل » الصوت والطنين ، مصدر الكلام . فهو أصل الصلاة بكونها أقوالا . من ذلك معانيها الدالة على القول ، وهي الدعاء ، البركة ، الرحمة ، الاستغفار ، حسن الثناء ، وبصفتها أفعالا تشتق من (صل) بدلالته على الميل والانحناء والسجود . وهذا المدلول ليس بظاهر في المزيد (صلّى) بل هو بيّن في المجرد السرياني ṣla أي امال ونزل . وفي مزيده ṣalli ، احنى ، تضرع ، بارك ، صلى .

والصلاة بما تتطلبه من الحركات ، كالانحناء والسجود والركوع والنهوض والوقوف ، كانت دارجة بين الرهبان الآراميين السريان المنتشرة اديارهم على طول طريق الحجاز التي كانت القوافل تقطعها ذهابا وإيابا للتجارة بين مكة والبلاد الشامية . وهذه الصلاة ، باعمالها الخارجية قد تعلمها العرب الفساسنة المسيحيون وغيرهم من غير النصارى عند زيارتهم كنائس الرهبان وحضورهم صلواتهم . وبهذه الطريقة دخلت وعمت بينهم اسما وفعلا . واذ كان يرافق هذه الحركات البدنية أقوال روحانية من أدعية وابتهالات ، دلت الصلاة عليها ، وإذ كانت تجري الصلاة في الكنائس دعيت هذه البيع (صلوات) من باب تسمية المكان باسم العمل الجاري فيه . وهكذا وردت في القرآن (سورة الحج ٤٠) ولو لا دفعُ الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع و (صلوات) ومساجد يذكر فيها اسم الله .) وإلى الآن في شرق الاردن يسمي النصارى العرب كنائسهم (صلوات) .

ومن الادلة على أن كلمة (الصلاة) سريانية أنها في القرآن وخارج القرآن

الى الان ، تكتب غالب الاحيان « صلوة » بالواو . وان لفظت «صلاة» بالالف ، وذلك انها لما دخلت الى العربية كتبت ولفظت على لفظ السريان بالواو .

فاذا تقرر هذا نظن ان قول البستاني صاحب « البستان » وغيره بأن الصلاة هي : الدعاء « وهو اصل معانيها » ليس بثبت ، لان الكلمة آتية من الفعل السرياني Salli الدال على الانحناء والسجود والركوع ، اي على افعال الصلاة لا على اقوالها ، لان الاقوال كالدعاء والاستغفار ، من الامور المرافقة لهذه الاعمال .

و كذلك ما ورد في محيط المحيط وغيره من المعاجم من ان اشتقاق «الصلاة» من الصلا — وهو العظم الذي عليه الاليتان — لان المصلي يحرك صَلَوَيه في الركوع والسجود ؛ او من الملزوم — كان الصلاة ملازمة العبادة ! اومن العطف وطلب الاصغاء والاستمالة : فهذه كلها تآويل وجيهة فيها شيء من الصواب لكن الاصوب هو ان الصلاة — كما بيّنا — مشتقة من الفعل السرياني الدال على الانحناء والسجود والركوع ، وقد استعمل الصلاة على هذه الطريقة السريان النصارى ومنهم انتقلت الى النصارى العرب وغيرهم .

اما قول اصحاب التفسير واهل المعاجم مثل صاحبي محيط المحيط واقرب الموارد بان « الصلاة » جاءت من العبرية (صلوتا) فننكره كل الانكار ، ودليلنا ان هذه اللفظة ليست بعبرية ؛ ولا وجود لها في التوراة ، وإن كانت مستعملة في بعض الكتب عند العبريين وفي لغتهم الحديثة فهي منقولة عن الآرامية وفي آخرها الف الاطلاق مما هو من خصائص الالفاظ الآرامية . واما اشباع الفتحة في العبرية فيكون بالهاء لا بالالف ، والالفاظ المشبعة بالالف في العبرية أصلها دون ريب من الآرامية ، زد على ذلك ان الفعل Salah العبري كما رأينا — لايدل الا على شوى ، ولا يعرف قطعاً في هذا اللسان بمعنى انحنى او سجد ، او ركع .

وكل هذا يدلنا على ان الكلمة سريانية اصلاً واشتقاقاً واستعمالاً : اذن هي دخيلة في العبرية والعربية ·

* * *

١٠) علم ، غلم

التضارب بيّن ووافر بين مدلولات هذين الفعلين ومشتقاتهما سواء كان ذلك في لغة واحدة من اللغات الساميّة ، أو بالمقابلة باخواتها ، على ان في الثنائية والالسنية السرّ للتوفيق بينهما · وهذا التوفيق في الموضوع الحاضر لايتم بمجرد ردّ الثلاثي الى ثنائي واحد ، وحسب الاصل الذي لايفي بالمرام – بل بردّه تارةً الى ثنائي وتارةً إلى ثنائي آخر ، مما يستدلّ منه على تعدّد الاصل الثنائي للثلاثي الواحد ، طبقاً لتضارب المعاني ·

ومن المعلوم عند الالسنيين ان العين والغين المفترقتين في العربية هما موحدتان بالعين في السريانية والعبرية والحبشية : وقد استحالت العين ذاتها همزةً في الاكدّية ، على ان الالفاظ العبرية والسريانية والحبشية تقابل ، حسب المعاني ، طوراً الكلمات المبتدئة بالعين ، وطوراً آخر المبتدئة بالغين ، في العربية ·

فاذا تقرر هذا ، لنأخذنّ في التفاصيل:

ان الثنائيات التي يرد اليها الثلاثي (علم او غلم) لاظهار تناسق المعاني واتصال بعضها ببعض هي ثلاثة : (علّ او علا ولمّ وغلّ) ··

* * *

علم

١) هذا فعل « علم » ، فاذا كان على وزن « فَعَل » كان الثنائي الصادر عنه « عَل » الظاهر معناه في الناقص « علا » الدال على العلو

والارتفاع ، ومن ثم على الظهور . اذن الاصل الثنائي هو « عَلْ » والحرف الزائد فيه هو (الميم) .

عَلَمَ (عَلَّ أو علا) : وسم ، لان السمة بشيء عال ، أي ظاهر .
« («) : لان عمته على رأسه بعلامة تعرف بها .
عَلَّمَ («) : وسم الفارس نفسه بسيماء الحرب .
« («) : جعل لفلان امارة يعرف بها .
أعلم («) : الحافر البئر : وجدها كثيرة الماء ، أي عاليته .
« («) : وسم نفسه بسيماء الحرب .
« («) : علق على الفرس صوفاً ملوّناً في الحرب ، أي بمنزلة علامة .
« («) : جعل على الكتاب علامة .
« («) : جعل القصار للثوب علماً من طراز وغيره .
اعتلم («) : البرق : لمع في العلم ، أي علا وظهر .
العَلاَمة («) : سمة ، و — الفصل بين الارضين (علامة) ، و — شيء منصوب يهتدى به .
العُلاَمة («) : ما يستدل به .
العلم («) : العلامة والأثر ، و — المنارة ، و — الفصل بين الأرضين ، و — شيء ينصب في الطريق يهتدى به و — سيد القوم (أعلام) ، و — رسم الثوب ، و — رقمه ، و — الجبل الطويل ، و — الراية ، و — ما يعقد على الرمح (علامة) وفي كل ذلك معنى العلو ومن ثم الظهور)
العَلْماء («) : الدرع (لظهورها)

ب) واذا كان الوزن « فَعِل » كان أصل اشتقاقه من ثنائي آخر ، وهو « لمّ » أي جمع . إذ من جملة الاشياء المجموعة المعارف ، ويتجلى هذا المدلول في المزيد (ألم) فان أحد معانيه المعرفة ، اذ يقال (ألم بالمعنى)

عرفه ، وعليه فعلِم مشتق من (لم) بزيادة العين .

عَلِم (لم): عرف تيقن .
« («): اتقن الامر أي عرفه عملياً .
« («): أدرك الشيْ ، فهمه .
علّم («): جعله يتعلم ، أي يلم بماهية الشيْ .
أعلم («): أخبر ، أي جعله يُلم بالخبر .
عالم («): غالب في العلم ، أي في الالمام بالشيء .
تعلم («): مطاوع علم .
اعتلم («): علم الشيء ، ألم به .
استعلم («): استخبر ، طلب الالمام بالخبر أو بالشيء .
العالم («): المتصف بالعلم ، الملم بالاشياء .
العُلاّم («): العالم جداً و — النسابة أي الملم بمعرفة الانساب .
العليم («): العالم ، و — الله تعالى .
المعلم («): الملهم للصواب والخير .

ت) ولهذا الفعل الثلاثي (علم) معان أخر تفترض اشتقاقه من عَل أو غَل) الدال على الدخول أو الولوج او التغلغل في الشيء . من ذلك :

علَم (عَلْ ، غَلْ) شق شفته العليا ، أي أولج فيها السكين .
علم («) انشقت شفته العليا .
العَلاّم («) لب عجم النبق ، وهو الداخل في أعماقه أي المتغلغل فيه .
العلام («) الباشق ، وهو الحاد النظر ، أي الداخل في أعماق الاشياء .
« («) الصقر مثله .
العُلمة (« ...) الشق في الشفة العليا .

الاعلم («) ما يشقه العليا شق ٠

السريانية :

ʻlam (ʻlam لم ، أحاط) علم ، عرف ٠

ʻallem («) علم ، هذب ، مدح ، زين

ʻlemʻida ʻta «) حديث العلم ، قليل الخبرة ٠

(الحبشية)

ʻâlâmâ (عل) ، علم ، وسم ، ختم ، سجّل (كلها بمعنى وضع علامة)

taʻlâma («) ، رقم ، وقع ، وضع علامة ٠

maʻalam (لم) معلم ٠

***

« غَلم »

غلم مشتق من الثنائي (غل) ومعناه دخل أو ولج ، وهذه الدلالة تتسع في الناقص (غلى يغلي ، وغلا يغلو) ففي الاول يراد الغليان ، وهو أمر يفترض تداخل العناصر بعضها ببعض ، والثاني فيه نتيجة ذلك ، اي إن هذا التداخل ينشأ عنه النمو والارتفاع ٠

غلِم (عل ، غلا) غُلب شهوةً ، أي جاشت وغلت أمياله ٠

اغتلم («) غلم ٠

« («) الشراب ، اشتدت سورته اي غلت ٠

« («) امواج البحر ، اشتدت اي غلت ٠

الغلام («) الشاب البالغ ، اي الذي قد غلت فيه عناصر الشبوبية [1] ، فلذلك نما وطال ٠

(١) الحاشية : لم نعثر على الشبوبية في معاجم اللغة بل جاء الشبوب والشبابية ٠

الغُلام	(	«	)	(مجازاً) الاجير . لان الاجراء يكونون عادةً من الشبان لقوتهم واقتدارهم على الشغل .
«	(	«	)	(مجازاً) العبد . للسبب عينه .
الغيلم	(	«	)	الشاب العريض المفرق ، الكثير الشعر أي البالغ النامي .
«	(	«	)	منبع الماء في الآبار . لان فيه يكثر الماء فينمو فيتدفق .
غَلَان	(	«	)	(النون زائدة) غلا .
غلا	(	«	)	زاد الشيء ، ارتفع .

* * *

«السريانية»

ʻlèm	(علْ او غلْ)			غلم ، قوي ، ضخم (كلها بمعنى الغليان والنمو)
ʻallem	(	«	)	أشب . قوي ، جدد . خلد . (لانه القوي يثبت خالداً)
ʻlaymâ	(	«	)	غلام بالغ ، شاب ، قوي . ضخم (صفات الشباب)
«	(	«	)	(مجازاً) غلام ، خادم .
ʻalama	(	«	)	فتي ، حدث ، جديد .
ʻlayemta	(	«	)	فتاة ، شابة .

* * *

العبرية :

ʻâlam	(عل ، غل)			خفي ، جُهل ، سُتر . اختفى ، هرب ، نُسي ، كان مجهولا غير أكيد . (كلها تدل على معنى الخفاء أو التواري ، أي الدخول أو الولوج)
ʻallem	(	«	)	أخفي ، وارى ، أظلم (أخفي بالظلام) أسرّ (جعله سراً أي خفياً)

He 'allem اخفى ، ابتعد ، تكوم (معنى الخفاء) .
'ělem (غل ، غلى) : غلام ، شاب .
'ălămh («) : شابة ، عذراء ، آنسة ، امرأة شابة .

* * *

« العالَم »

على رأينا أن أصوب اشتقاق لكلمة « عالم » أن تؤخذ من العبرية الدال فيها حرف ălam على الخفاء . والثلاثي مشتق من الثنائي al' أو ălal' العبري ويقابله في السريانية al' ولكليهما معنى الدخول ، لان الخفي والمستور هو الداخل دخولا يمنع رؤيته . والمماثل لهذين الحرفين في العربية هو الثنائي « غل » الدال هو ايضا على الولوج ومن ثم على الخفاء .

١ً) اول معنى اذن للفظة (عالَم) هو معنى الزمان الخفي او المجهول ، اي الداخل في الغيب ، وهو الازلية ـ الأبدية .

٢ً) من باب التوسع ، اطلق على الزمان الذي نحن فيه ، اي الدهر .

٣ً) ثم اريد به الخلائق أو الكائنات الموجودة في هذا الزمان ، او الكون على وجه الاطلاق .

٤ً) اخيراً يدل «العالم» على جمهور الناس ، والخلق كله ، وعلى كل صنف من اصنافه . ودونك صور لفظه في اللغات السامية :

العربية : عالَم .
السريانية : 'almā
العبرية : 'ōlam
الحبشية : 'ălam

أما الاكدية ، فالثلاثي الذي لامه ميم لا أثر له فيها ، انما ورد فيها الثنائي « عل » الصادر منه الناقص « علا » بمعنى ارتفع وصعد في سلم الزمان ، اي تقادم

عهده . من ذلك جاءت الالفاظ الآتية التي اصل الفا فيها عين ، وقد سقطت ، لانها حلقية ، ابقيت الهمزة عوضها Ullâti (علاتي) Ulla (عُلا) ، Ullani (علاني) ، وكلها تدل على الازمان الصاعدة ، البعيدة ، القديمة ، اي الدهور ، او الازلية — الابدية .

الاب ا . س . مرمرجي الدومنكي
من أساتذة المدرسة الكتابية والآثارية
في القدس الشريف



المصاب العام

بوفاة السيد الامام

محمد رشيد رضا منشىء المنار (١)

إنا لله وإنا إليه راجعون

قضى الله بالأمر الذي قد قضى به وكان قضاء الله في الخلق جاريا

فيا ليتني ذقت المنية قبله ولم أر فيه ما يشيب النواصيا



مات السيد الإمام ، فانطفأ ذلك النور « المنار » الوهاج الذي امتد شعاعه إلى أقاصي المعمور أربعين عاماً ، وخفت ذلك الصوت الداوي الذي ملأ مسامع الكون هدياً وإرشاداً ، وسكن ذلك القلب الكبير الذي أشرب حب الإصلاح من أول العهد بالحياة . مات السيد الإمام ، فمات منار الإسلام المنير ، وتفسيراه الكبير والصغير ، وفتاواه في حل المشكلات العصرية ، بالأدلة

(١) المجلة : تأخر نشر هذه الترجمة لأسباب لا محل لذكرها هنا ، وقد كنا وعدنا القراء بنشر ترجمة وافية للفقيد رحمه الله تعالى .

الجامعة بين المعقول والمنقول ، المثبتة أن الإسلام هو دين الفطرة والعقل والعلم الصالح لجميع الأزمنة والأمكنة والأقوام .

أما بعد فهذه شذرات من سيرة ذلك المصلح العظيم استخرجتها مما خطته يراعته في مدة أربعين عاماً ، وأعظمه مجلة المنار الإسلامي ، وهي (٣٤) مجلداً ، وتفسير القرآن الحكيم وهو اثنا عشر مجلداً ، والجزء الأول من تاريخ الأستاذ الإمام وهو في أكثر من ألف ومائة صفحة ، وكتاب المنار والأزهر عدا ما أعرفه منه (رضي الله عنه) مدة تشرفي بصحبته في سفره وإقامته ، في الشام والحجاز ومصر أثناء ستة عشر عاماً ، كنت فيها — كما كان يقول رحمه الله — صديقه الوفي ، وولده الروحي ، ويقول عني : إني أماثل في محبته لي وثقته بي أخاه الشقيق السيد حسين وصني ، كذا سمعته من فمه في داره بمصر رحمه الله وجزاه خير الجزاء .

بيته ، سيادته ، نشأته

نشأ الفقيد العظيم في بيت دين وعلم وكرم وصلاح ، وسمعت منه رحمه الله أن أحد أجداده (ولعله الجد الرابع) قد قدم من شط الفرات (ولعله من ماردين) واختار الإقامة في القلمون ، وهي على شاطئ البحر المتوسط من جبل لبنان ، تبعد عن مدينة طرابلس الشام زهاء ثلاثة أميال ، وكان أهل هذه القرية من السادة الأشراف المتواتري النسب ، وأهل بيت الفقيد ممتازون فيهم بأنهم أهل العلم والإرشاد والرئاسة ، ويلقبونهم بالمشايخ للتمييز بينهم وبين غيرهم .

وقد اشتبه على بعض العلماء والكتاب — دع الخصوم والحساد — نسب السيد الفقيد النبوي ، وقالوا : إن آل رضا ليسوا من سكان القلمون القدماء فكيف يكونون من ساداتها الأشراف ؟ ولقب هؤلاء السيد الفقيد « بالشيخ رشيد » وتفذ خصومه من هذه الناحية فاتخذوا كلمة « الشيخ » غمزاً له

ومطعناً في صحة نسبه الشريف ، والجواب (١) هل يلزم من كونهم ليسوا من قدماء أهل القلمون ألا يكونوا أشرافاً مثلهم ؟ وهل انحصر شرف النسب النبوي في أهل القلمون . (٢) إن لآل رضا سلسلة نسب تثبت أنهم من آل بيت النبوة ، والناس مؤتمنون على أنسابهم كما جاء في الحديث . (٣) إن أهل هذه القرية لم يكونوا يزوجون إلا من كان شريفاً مثلهم ، ووالدة الفقيد شريفة من أهل القلمون . (٤) إن الشرف من جهة الأم ثابت كالشرف من جهة الأب على السواء ، وإن الأسباط في شرف النسب كالأحفاد ، والاناث منهم كالذكور ، وهل كان شرف الحسن والحسين إلا من جهة أمهما فاطمة الزهراء البتول (عليهم السلام) وهل كان نسل النبي الأطهر إلا منها ؟ وان الذين أعقبوا من أولادها هم الحسن والحسين وزينب (ع م) ومن هؤلاء تفرعت أغصان تلك الشجرة المباركة في جميع أرجاء الارض ، فأولاد السيدة زينب من بنين وبنات — في صحة الشرف ونسبه — كأبناء أخويها الحسن والحسين ، وقد أخرج البخاري في صحيحه عن أبي بكرة (رض) قال : بينا النبي (ص) يخطب جاء الحسن فقال النبي (ص) إن ابني هذا سيد ولعل الله أن يصلح به بين فئتين من المسلمين ، فأطلق الابن على ابن البنت .

والحاصل أن أصل شرف النسبة في هذه الأمة من النساء ، وأعني السيدة فاطمة الزهراء ، ولعمري ان هذا يعد من أكبر محاسن الإسلام ، إذ كرم المرأة وجعلها تشاطر الرجل الشرف ، وقد رأينا أن نجلو هذه الحقيقة ، ونزيل شبهة المنكرين والشاكين .

نشأ السيد الفقيد متصوناً ديناً ، شديد الحياء ، كثير العبادة ، عف اللسان والقلب ، بعيداً عن كلام الفحش والمجون . وكان في صغره ميالا الى العزلة ، قليل الرغبة في اللعب مع اللدات والأتراب ، شديد العناية بمطالعة كتب الأدب وكتب التصوف .

كنت أقرأ في المنار المنير وصف تلك النشأة الطيبة الطاهرة التي نشأها

فقيدنا العظيم في القلمون ، وأتخيل كتّاب القرية الذي درس فيه القرآن الكريم ، وتعلم فيه مبادئ القراءة والكتابة ، والمسجد القاموني الذي كان يعظ الناس فيه ويخطبهم ، ويؤمهم في الصلوات الخمس أيضاً ، والغرفتين المطلتين على البحر في ركني المسجد الشماليين ، وكانت احداهما خلوته وعبادته ، والثانية لمطالعته ومذاكراته ، ومنزل السيد الامام ، ومنازل آله الكرام ، كنت أمر في المنار على وصف هاتيك المباني والآثار بيحلو لي وصفها ، ويخيل إلي أنها ماثلة أمامي وأنا أشاهدها ، على أن الخبر ليس كالعيان ، وما الطف قول الامام ابن حزم رحمه الله :

ولكن للعيان لطيف معنى لذا سأل المعاينة الكليم

ولما ألح بي الشوق لرؤية ذلك المسجد الذي هذاه جد المترجم الثالث ، والمنازل الرضوية التي لها منازل في القلب ، ودرجات في الحب ، كما قال أبو الطيب « لك يا منازل في القلوب منازل » امتطيت سيارة من دمشق إلى بيروت ، وصحبت منها صديقي الاستاذ الشيخ محمد سعدي ياسين الدمشقي ، فبلغنا مسجدها أذان الجمعة ، وسمعنا خطبة الاستاذ المعمر الشيخ محمد كامل عم السيد الفقيد ، ووالد صديقنا الاستاذ السيد عبد الرحمن عاصم ابن عم السيد وتلميذه ، وزوج شقيقته ووكيل مناره ، وقد كان حاضراً فبتنا ليلتنا في ضيافته منشرحي الصدور ، قريري العيون ، بما زرنا من تلك المنازل العامرة ، ورأينا من تلك الآثار المباركة ، وقد أنسنا هنالك بلقاء شقيقي السيد الأستاذين السيدين أدهم وحسن رضا وأولها شيخ متعمم والثاني غير متعمم .

قرأت درساً عاماً بعد صلاة العصر في المسجد شرحت فيه حديث النية والهجرة ، « إنما الاعمال بالنيات » وختمته بمخاطبة اهل القلمون قائلا : لقد ظهر منكم ونشأ فيكم ، رجل لا كالرجال في فهم مقاصد الدين والدفاع عن حوزته ، والوقوف في وجه جميع الطاعنين في الاسلام والطامعين

في أهله من جميع الملل والشعوب والاقوام ، ألا وهو السيد محمد رشيد رضا منشئ المنار وتفسيره ، وكفاكم بذلك فخراً وفضلا . ثم اقترحت عليهم أن يرسلوا منهم كل عام بعثة لتدرس في مصر تحت رعاية هذا الامام ويكونوا مرشدين ودعاة في الاقطار العربية والاسلامية والممالك الغربية ، وكتبت إلى السيد بذلك فسر رحمه الله ، وكان ذلك قبل وفاته بنحو عام .

لم يكن طلب فقيد الامة الرشيد للعلم لغرض دنيوي من تحصيل علم أو جاه ، أو رغبة في خدمة الحكومة والترقي في مناصبها ، وإنما كان بوازع الفطرة ، وباعث الايمان ، وحب ارشاد الامة والفوز بمرضاة الله تعالى ، ولهذا لم تطل مدته في المدرسة الرشدية الابتدائية في طرابلس ، اذ كانت دروسها باللغة التركية ، وكانت معدة لتخريج الموظفين ، فتركها بعد أن درس فيها سنة واحدة ، ودخل المدرسة الوطنية الاسلامية ، التي كان يديرها العلامة المصلح الشهير الشيخ حسين الجسر رحمه الله ، وكانت تدرس جميع دروسها العربية والشرعية والمنطق والرياضيات والفلسفة الطبيعية باللغة العربية ، وتدرس اللغتين التركية والفرنسية . وقد اشتهر الاستاذ الجسر رحمه الله بهذه المدرسة الدينية الوطنية ، وبكتابه المسمى بالرسالة الحميدية .

أما المدرسة فقد انشأها لتخريج الطلاب في العلوم والآداب ، وإعدادهم ليكونوا بمعارفهم وفضائلهم من مرشدي الأمة ، وقادة الرأي العام فيها ، في عصر كثر فيه اختلاط الامم بعضها ببعض ، وتنوعت فيه مطالب الحياة ، واقتبس الشرق من الغرب مزايا ورزايا ، وفتحت أبواب العلوم والفضائل ، كما فتحت أبواب المناكر والرذائل ، التي يعدها الفسق من لوازم المدنية الحديثة فأراد الاستاذ الجسر أن يكون طلابه حلقة اتصال بين المتهورين والجامدين ونقطة اعتدال بين الغالين والمقصرين ، فأعد لها الدروس الجامعة بين علوم الدنيا وعلوم الدين ، ولكن المؤسف أن الحكومة العثمانية لم تشأ أن تعدها من المدارس الدينية التي يعفى طلابها من الخدمة العسكرية ، فانظر إلى هذه

الغباوة ، وعلى أي قاعدة من قواعد الجهل والظلم بنت وجهة نظرها يا ترى !! أكان جريمة وإثماً أن يتعلم طلاب العلوم الدينية على الطريقة العصرية ، وان يدخلوا في مناهجهم ما يحتاجون إليه من العلوم المدنية واللغات الأجنبية على أن اللغة التركية كانت لغة الدولة الرسمية ، واللغة الفرنسية هي لغة علم وفن ، فماذا على طالب العلم لو درسها واتقنها ما استطاع بنية الاصلاح ؟ وقد صح أن النبي (ص) أمر زيد بن ثابت أن يتعلم اللغة العبرية فتعلمها وأتقنها ، ولو مد الله في أجل هذه المدرسة الدينية العلمية ذات التربية الاسلامية الوطنية ، لتخرج منها في ذلك العهد — أي منذ نصف قرن تقريباً — حزب اسلامي اصلاحي معتدل ، يقف في وجه المدارس الاجنبية والحركات التبشيرية ، ويدير الحركة الاصلاحية على طريقة امامي العصر السيد جمال الدين الافغاني ، والشيخ محمد عبده المصري ، رحمهما الله تعالى .

وأما الرسالة الحميدية ، فسبب تأليفها أن مؤلفها رحمه الله كان قرأ بعض مقالات مترجمة عن الصحف الاوربية منسوبة لبعض أحبار الانكليز المدعو اسحق طيلر ، قد حاول فيها التوفيق بين معتقد الاسلام ومعتقد المسيحيين ، وإقامة الدلائل على تقاربهما ، وتشابه كتبهما ، وبلغ المؤلف أيضاً أن بعضاً آخر من رجال الانكليز المتضلعين في اللغات والفنون قد سعي في تلك الأيام ببناء معبد للاسلام في البلاد الانكليزية وأنه يباشر هناك نشر جريدة عربية يكون جل مقصدها البحث عن حقيقة الدين الاسلامي واشهار فضائله لدى غير العارفين بها ، فخطر لصاحب الرسالة اذ وجد مجالا للكلام وسميعاً للنداء أن يحرر رسالة يستبان منها حقيقة الدين الاسلامي باسلوب جديد سهل الفهم لا تمله الانفس ، ولا تستوعره الافكار ، يروق العقول الحرة ، ويعجب الاذهان المطلقة من قيود التعصب ، هذا بعض ما جاء في طليعة الرسالة الحميدية ، وقد اشتملت على اثبات المعبود واجب الوجود ، وتحقيق نبوة خاتم الرسل صلوات الله عليهم ثم الكلام على أسرار العبادات ، وحقائق المعاملات وأحكام الحدود والتعازير والديات ، وأطال الكلام مع الماديين ففند شكوكهم

وشبهاتهم ، وأبطل دعاويهم ودحض حججهم ، وتكلم على حكمة الجهاد ، وتعدد الزوجات ، والطلاق ، والاسترقاق وتقريره في الشرائع المتقدمة ، وتحرير الرقيق في الاسلام ، وكيفية معاملة أبناء الملل السماوية في الشريعة الاسلامية وختمها ببيان مآخذ الاسلام الاربعة وهي الكتاب والسنة والاجماع والقياس وتكلم على شروط الاجتهاد ، وقد سد بابه مطلقاً فلا نفتحه عليه رحمه الله .

فهذا الاستاذ المربي الكبير ، والمصلح المؤلف الشهير ، منشئ المدرسة الوطنية ومؤلف الرسالة الحميدية ، هو الاستاذ الاول للمترجم ، وهو الذي تخرج على يده في العلوم العربية والشرعية والعقلية ، وقد وصفه هذا التلميذ البار بقوله : وكان له المام واسع بالعلوم العصرية كما يعلم من كتابه « الرسالة الحميدية » وكان كاتباً وشاعرا عصريا ، يكتب وينظم في كل موضوع بعبارة سهلة ، وكان له أسلوب خاص في التعليم غير اسلوب الازهر ، يتحرى فيه السهولة في البيان ، ويتجنب المناقشة اللفظية ، واستطرادات الحواشي ، فلم يكن يذكر منها إلا مالا يتم تحرير المسألة إلا به . وتلقى الفقيد الكبير فقه الشافعية وفن الحديث على شيخ الشيوخ في طرابلس الشام الشيخ محمود نشابه الذي حمل شهادات الازهر بثمانية عشر علما ، وقضى فيه ثلاثين عاماً عالماً ومتعلما ، وكان من مشايخه مثل الباجوري ، ومن اخوانه الانبابي والاشموني .

وحضر على العلامة الفقيه الصوفي الشيخ عبد الغني الرافعي قليلا من كتاب نيل الاوطار للشوكاني ، وكان الرافعي فقيه النفس مستقل الفكر ممتازاً بين فقهاء عصره بالجمع بين النبوغ في علوم الشرع والتصوف والادب ولي القضاء بولاية اليمن ، فكان إذا ظهر له رجحان مذهب الزيدية مثلا على مذهب الحنفية الذي نشأ عليه تحصيلا وعملا وافتاء وقضاء لا يمتنع من القول بترجيحه .

فكان السيد المترجم رحمه الله بما وهب من سلامة الذوق ، وقوة الاستعداد ، وتوقد الذهن ، وبما رأى أساتذته عليه « الرافعي » من فقه

النفس واستقلال الفكر ، و« التشابه » من حب الاستقصاء والتحقيق في العلم . و« الجسر » من الوقوف على روح العصر ، وحالته العلمية والاجتماعية والسياسية والعناية بمطالعة الصحف والمجلات العالمية ، والاقتناع بحاجة المسلمين الى مجاراة الامم الغربية في العلوم والفنون التي عليها مدار العمران ، والقوة في هذا الزمان ، مع المحافظة على أصول الاسلام وهديه وآدابه ، لا جرم كان بكل هذه المزايا الموهوبة والمكسوبة عالماً مستقلاً مستدلاً ، ظاهر الحجة قوي العارضة ، شديد المعارضة ، لا يقبل منقولاً لم يثبت دليله ، ولا معقولاً لم تستبن سبيله ، وكان له مع اساتذته بسبب هذا الاستقلال في العلم والرأي مواقف مشهورة وإليك مثالاً من موقفه مع أستاذه الجسر كما حكاه في مناره ، قال رحمه الله [1] :

لما طبعت الرسالة الحميدية أهداني نسخة منها . ثم سألني بعد ايام هل قرأت الرسالة ؟ قلت قرأت بعضها ، قال انه يعجبني رأيك فكيف رأيتها قلت بعد الثناء عليها بالاجمال : انني انتقدت منها شيئين (أحدهما) التعبير عن المسائل العلمية القطعية التي تعتقدون صحتها ككروية الارض بما يدل على الشك او الانكار ، فاعتذر عن هذا بمراعاة عقول العوام والمتعصبين الذين يطعنون في دين من يقول بهذه المسائل . فقلت اذا لم يتجرأ مثلك من الموثوق بعلمهم ودينهم على الجزم بهذه المسائل فمن يجزم بها ومتى يكون ذلك ؟

(والثاني) عدم تقسيم الرسالة الى أبواب وفصول ، يوضع لكل منها عنوان يدل عليه على نحو ما هو مفصل في الفهرس لتنشيط على المطالعة ، وسهولة المراجعة ، فقال : إن اتصال الكلام بعضه ببعض كالماء الجاري من حسن الانشاء وأساليب البلاغة ، قلت فلماذا جعل القرآن سوراً وهو أبلغ الكلام وافصحه ؟

ونتقل أيضاً مثالاً آخر ، وهو مأثرة تاريخية للفقيد ، جمعت بين جمال

---

(١) المنار ج ٣ ص ٤٠١

الوصف ، وإيثار الحق ، وانكار الأستاذ على تلميذه ، ولطف مراجعة التلميذ لأستاذه ، وهي مثل حال المعلمين والمتعلمين نأثره بنصه من كتاب المنار والازهر كما حكاه المؤلف عن نفسه قال (ص ١٧١)

(أول حادثة لي في الانكار العلني) :

قيل لي : ألا تتفرج على مقابلة المولوية في تكيتهم التي تشبه جنة الآخرة في مكانها من ضفة نهر أبي علي ؟ قلت نعم ، فذهبت بعد صلاة الجمعة مع الصاحبين ، وكان أول افتتاح موسم هذه المقابلات من فصل الربيع فجلست في ايوان النظارة (المتفرجين) نمتع البصر برؤية جنات البرتقال ، والشم بعبير زهرها ، والسمع بخرير ماء النهر من تحتنا ، حتى اذا ما آن وقت المقابلة تراءى أمامنا دراويش المولوية قد اجتمعوا في مجلسهم تجاه ايوان النظارة ، وفي صدره شيخهم الرسمي ، وإذا بغلمان منهم مرد حسان الوجوه ، يلبسون غلائل بيضاً ناصعة كجلابيب العرائس ، يرقصون بها على نغمات الناي المشجية ، يدورون دوراناً فنياً سريعاً تنفرج به غلائلهم فتكون دوائر متقاربة ، على أبعاد متناسبة ، لا يبغي بعضها على بعض ، ويمدون سواعدهم ، ويميلون أعناقهم ، ويمرون واحداً بعد آخر أمام شيخهم فيركعون له ، قلت ماهذا ؟ قيل هذا ذكر طريقة مولانا جلال الدين الرومي صاحب المثنوي الشريف :

لم أملك نفسي أن وقفت في بهرة النظارة وصحت بأعلى صوتي بما معناه : « أيها الناس أو المسلمون : ان هذا منكر لا يجوز النظر إليه ، ولا السكوت عليه ، لانه إقرار له ، وإنه يصدق على مقترفيه قول الله تعالى « اتخذوا دينهم لهواً ولعباً » وانني قد أديت الواجب علي فاخرجوا رحمكم الله ، وخرجت من المكان راجعاً أدراجي الى المدينة مسرعا ، وفي أثناء المسير التفت فوجدت ورائي عدداً قليلاً قد رجعوا ، وبقي الاكثرون لم

ينكروا عليّ ولا على القوم بقول ولا عمل ، ثم كانت هـذه الحادثة الغريبة حديث موضوع سمرهم مدة طويلة ، فمن عاذل وعاذر .

اتفق في تلك الايام أن دعاني رجل وجيه من معارف والدي الى سيران في بستانه مع شيخنا الاستاذ الشيخ حسين الجسر ، والشيخ عبد الله البركة واثنين آخرين من العلماء ، وهنالك سألني شيخنا عن الحادثة ، ولم يسألني عنها في المدرسة ، فذكرتها له باختصار ، قال : اني أنصح لك أن تكف عن أهل الطريق ، قلت هل لأهل الطريق أحكام شرعية غير الأحكام العامة لجميع المسلمين ؟ قال لا : ولكن لهؤلاء في سماعهم نية غير نية سائر الناس ووجهة إلى الله غير وجهتهم ، ومالك تخصهم بالانكار عليهم ، وان من أهل اللهو من يسمعون الاصوات والأوتار في ملاهيهم ، بل بلغني أن بعضهم يقامرون ليلاً في قهوة العيوني ، قلت إن أهل الطريق ذنبهم أكبر من أهل اللهو ، لانهم جعلوا السماع المنكر ، ورقص حسان الغلمان عبادة مشروعة ، فشرعوا لأنفسهم من الدين ما لم يأذن بـه الله ، على أني لم أر منكراً آخر ولم أنكره ، وأنا غير مكلف أن أذهب في آخر الليل الى قهوة العيوني فاستفتحها لأرى ما فيها وأنكر عليه ، فلما اعدته ، قال : ان مذهبنا (يعني الحنفي) اشد من مذهبكم (الشافعي) في تحريم السماع ، ولكنني انصح لك أن لا تعترض على أهل الطريق !!

يتبع محمد بهجة البيطار



لغة المتنبي

أبو الطيب له ولع ودربة باستعمال الفصيح في شعره ونثره وسائر كلامه ، فاذا حاول العدول عن منهاج اللسان المضري القويم لم يستطع اليه سبيلا فما أصدقه في قوله :

وكلمة في طريق خفت أعربها فيُهتدى لي فلم أقدر على اللحنِ

من قصيدته التي مطلعها :

أفاضل الناس أغراض لذا الزمن يخلو من الهم أخلاهم من الفطن

فالمتنبي يستسهل بذل نفسه في سبيل صيانة لغته التي يفديها بروحه ، وكأنه يقول : لابارك الله في الحياة بعد ضياع اللغة . من أجل ذلك رأى ارتكابَ ما فيه خطر على حياته أهونَ من ارتكاب ما فيه خطر على لغته . وفي البيت مسألتان : (خفت أعربها) من الفعل المضارع ، وتحريك حاء (اللحن) اتباعا للام وشاهد الاول قوله تعالى « أفغير الله تأمروني أعبد » أي أن أعبد ، وقول طرفة ابن العبد :

ألا أيها ذا الزاجري أحضر الوغى وأن أشهد اللذات هل أنت مخلدي

أي أن أحضر الوغى ، ومن هذا القبيل قولهم : مره يحفر بئراً أي أن يحفر ، وقولهم : خذه قبل يأخذك أي قبل أن يأخذك ، وتسمع بالمعيدي خير من أن تراه أي أن تسمع . والمتنبي كسائر فصحاء الكوفيين كثيراً ما يستعمل ذلك في قوله :

وتوقدت أنفاسنا حتى لقد   أشفقت تحترق العواذل بيننا

وقوله :

وما تسع الأزمان علمي بأمرها   ولا تحسن الأيام تكتب ما أملي

وقوله   أشفق عند اتقاد فكرته   عليه منها أخاف يشتعل

وقوله في ثياب أهديت اليه:

أقر جلدي بها علي فلا   أقدر حتى الممات أجحدها

ويسوغ أن يعود الفعل المضارع مرفوعا مع إضمار أن قبله لأن الحرف عامل ضعيف، فاذا أضمر زال أثره ولم يقو على الظهور، كما يسوغ أن يبقى منصوباً باعتبار ان المقدر كالثابت وعليه قول المتنبي :

توقه ومتى ما شئت تبلوه   فكن معاديه أو كن له نشبا

في التي مطلعها :

دمعي جرى فقضى في الربع ما وجبا

وقرئ كما في الكشاف للزمخشري (أعبد) مرفوعا وقرئ منصوباً في سورة الزمر من قوله تعالى : « أفغير الله تأمروني أعبد »

وأما تحريك حاء اللحن بالفتح اتباعاً للامها فهو من قبيل تحريك الهاء في نهر وزهر ودهر . قال أبو النجم :

يا جبلا طال معداً فاشمخر   اشم لا يسطيعه الناس الدهر

قال ابن منظور في لسان العرب : إما أن يكون النهر والنهر لغتين كما ذهب اليه البصريون في هذا النحو فيقتصر على ما سمع منه ، وإما أن يكون ذلك لمكان حروف الحلق فيطرد كما ذهب اليه الكوفيون . اهـ ، والمراد من اللحن في بيت أبي الطيب الخطأ في الكلام والعدول عن سنن الصواب فيه ولم يرد شيئاً من معانيه الاخرى كاللغة والفهم والفطنة والالغاز والتعريض والغناء والتطريب ، وان كان لفظ اللحن مشتركاً في ذلك كله . إن أبا الطيب في تمسكه بعربيته والتزامه فصاحة لهجته وألفاظه مطبوع يجري فيه ذلك على مقتضى طبعه ، فهو من أشبه الناس بالاعرابي الذي كان التراجم اليه ليكون

حكما بين سيبويه والكسائي فلم يستطع أن يلحن فيقول : فاذا هو اياها ولكن استطاع أن يكذب فيقول : الحق مع الكسائي ولو أكره على التلفظ بالنص المتلفش فيه لظهر أن الحق مع سيبويه ، لان لسانه لا يجري حينئذ الا بقوله : فاذا هو هي ، على ما ذهب اليه سيبويه ، فكان احتمال عار الكذب عنده أهون من احتمال عار افساد لغته الفصحى الجبلية التي بها جاء أحسن الحديث وحياً ، كلما زدته تلاوة زادك حسنا وطلاوة . وليس أبو الطيب بدعا في عشقه لغة مضرية تجلت له من عرائسها :

وجوه لا تزال تزيد حسنا   لمثل جمالها خلق الغرامُ

ومن أشباهه في الشنشنة ذلك الامير جبلة بن عبد الرحمن الذي كان يكتب باللسان المبين اسماء الاطعمة التي يريدها في رقاع يبعث بها الى طاهيه ، وكان هذا لا يقدر على الاستقلال بفهمها لضعف عربيته فيراجع ابن أبي إسحاق الحضرمي أو يحيى بن يعمر العدواني للاستيضاح عما كتبه له سيده جبلة في تلك الرقاع ، فاذا عرف ما فيها من أنواع الاطعمة أتاه به ، وكان من أجل ذلك يبطيء عليه في إحضارها فقال له : ويحك أيها الطاهي ما بالك تبطيء كأنك تريد بإبطائك أن تحملني على الصيام ، فقال له الطاهي : سهّل كلامك أسهلْ طعامك ، فقال له سيده : يا ابن اللخناء أأدع عربيتي من أجل عيك .

ولصحة الطبع في اللغة كان لفصحاء العهد الجاهلي وصدر الاسلام أعلى مقام بين طبقات أمراء الكلام ، وهيهات أن تظهر عبقرية البيان الا بسلامة الذوق وطلاقة الالسن ، ولقد أصاب الحز وطبق المفصل من قال :

نعم عون الفتى اذا طلب العلـ   ـم ورام الآداب صحةُ طبع
فاذا الطبع خانه بطل السعـ   ـي وصار العناء في غير نفع

وقال المتنبي :

أبلغ ما يطلب النجاح به الطبـ   ـعُ وعند التعمق الزللُ

لاجرم أن لهؤلاء المطبوعين في كلامهم أن يعجبوا ممن يلحن ويتهاون

بالاعراب ويحيد في كلامه عن سنن الصواب كالاعرابي الذي كان يقول :

عجبت للتجار الذين يلحنون فيستطيعون مع لحنهم أن يربحوا في متاجرهم، وكالذي سمع بعض الخلفاء في العهد العباسي يلحن في كلامه فقال : لولا القضاء والقدر لما قدر أن يكون هذا خليفة، ولكن قدر فكان، وليس بضائر فارس الطخرور أبا محمد وشعره شعره قول ابن خالويه فيه : إنه لم يكن يعرف أن البعير يستعمل بمعنى الحمار، كأنه انفرد بمعناه ولم يحوه سواه .

عبد القادر المبارك



=« احتمال السخف أولى من الجهل بالعربية »=

أبو هاشم عبد السلام الجبائي من أئمة المعتزلة، كان يأخذ علم النحو عن المبرد، وكان في المبرد سخف، فقيل لأبي هاشم : كيف تحتمل سخفه ؟ فقال :

— رأيت احتماله أولى من الجهل بالعربية !!

(انظر ص ٥٦ من رسالة المعتزلة لاحمد بن يحيى المرتضى، طبع حيدر آباد الدكن)

خطاب الاستاذ عز الدين التنوخي
كاتب سر المجمع العلمي العربي

باسم المجمع العلمي أشكر لكم عنايتكم بحضور هذه الحفلة المباركة ، حفلة تنظيم دار الكتب الظاهرية ، ذات الفضل العظيم على دمشق مدينتنا الخالدة وعلى سائر البلدان العربية ، وهي لعمر الحق جديرة بأن نحتفل بعيدها الخمسيني أو الستيني لمرور نحو من ستين عاماً على إنشائها ، ولعل هذه الحفلة تكون ممهدة لذلك العيد العلمي الميمون ، ويكون يومئذ قد مضى على تأسيس المجمع العلمي عشرون سنة فنحتفل بعيده العشريني وعيد المكتبة الخمسيني معاً احتفالا شعبياً يشترك به نواب المعاهد والمجامع والجامعات العلمية العربية والاجنبية ، ويدعى اليه علماء المشرقيات في ديار الغرب ، وجلهم من أعضاء مجمعنا الذين يستنحون الفرص لزيارة دار الشام عامة ودمشق حاضرتها خاصة وفي ذلك ما فيه من إعلاء لشأن أمتنا العربية ودولتنا الناهضة الفتية .

إن هذه الدار التي نحن مجتمعون الآن في صحنها كانت تعرف بالمدرسة الظاهرية الجوانية ، وهي بقية ثلاث مئة مدرسة كانت عامرة في القرون الوسطى بالعلم والأدب في مدينتنا هذه العظيمة ، و كانت مدرسة للحنفية والشافعية يدرسون فيها الحديث وعلومه ، وقد أنشأها الملك الظاهر بيبرس البندقداري ودفن فيها هو وابنه الملك السعيد سنة ٦٧٦ هـ ، ولا تزال على هذه المدرسة

(١) انظر وصفها في باب (الآراء والاخبار) من هذا الجزء

مسحة باقية من جمالها القديم يبدو في موضعين منها : في مدخل الظاهرية الجميل، فان الداخل يمتع ناظريه بهندسته العربية الرائعة ومقرنصاته المتهدلة ويشاهد في زاوية المدخل اليسرى اسم مهندسها العربي « ابراهيم بن غانم » ، والموطن الثاني لهذا الجمال هو القبة الظاهرية التي دفن تحتها هذا الملك الشامي المجاهد ودفن الى جانبه ابنه الملك السعيد ، إن هذه القبة لتمتاز على قبب الشام كلها ، ولعلها نادرة القبب في بلاد العرب ، بما ازدانت به من أصناف الرخام الملون الجميل ، فقد ركبت ألواحه على جدرانها بتراكيب هندسية عربية ، كما أن هـذه القبة بفسيفسائها اللامعة ونقوشها الشجرية الفاتنة التي لا عيب فيها غير أغصانها وكلل تقانها .

وكان لكل مدرسة في دمشق خزانة كتب خاصة تشتمل على نفائس الكتب وكثير منها بخطوط مؤلفيها ، ثم بلغ من اهمال العلم في دمشق أن أمسي قوام هذه المدارس للفقر وقلة الرواتب وضعف الشعور بالواجب يبيعون هذه المخطوطات ، وأقبل الاجانب من قناصل ومستشرقين يشترون تراث السلف بالبخس الاثمان ، مما ألقى في روع عالم الشام وباعث نهضتها العلمية الشيخ طاهر الجزائري أن يجمع شتات هذه المبعثرات من خزائن الكتب ويضعها في القبة الظاهرية ، فأشار على الوالي بذلك وهو حمدي باشا فألف سنة ١٢٩٦ للهجرة لجنة خاصة جعل رئيسها العلامة السيد علاء الدين عابدين ، فجمعوا هذه الكتب من عشر مدارس ووضعوها في خزائن كبيرة تحيط بضريح الملك الظاهر الذي عاش في حياته تحت ظلال السيوف البواتر ، ودفن بعد مماته تحت ظلال الكتب والدفاتر ، ومع أن القائمين على هذه الكتب المجموعة قد خصصت لهم مرتبات ليحسنوا القيام عليها ، لم ينتفع الناس بها الانتفاع المنشود ، وظلت نصف مسبلة في الخزائن المقفلة ، ولكنها حفظت من النهب والضياع ولا سيما بعد طبع فهرسها الجامع لمخطوطاتها ومطبوعاتها ، وبقي أمر الخزانة الظاهرية على هذه الحال الى أن وسدت الحكومة أمر الولاية عليها الى المجمع العلمي العربي يوم انشائه في سنة ١٩١٩ ، وكان يومئذ في المدرسة

الظاهرية القديمة مدرسة ابتدائية تعرف بانموذج الملك الظاهر ، فبذل المجمع قصارى جهده لنقل هذه المدرسة الى بقعة أخرى من المدينة ، لأن صياح الصبيان وضجة حركاتهم المقلقة تعكر صفو المطالعة ، وتضعف حب البحث والمراجعة ، وقد توفق المجمع بأخرة وانتقلت المدرسة الجديدة من القديمة .

وكان من الوفاء للشيخ طاهر الجزائري الذي له اليد البيضاء على الخزانة الظاهرية أن يقلد الولاية عليها ، فسماه المجمع مديراً عاماً لها وظل يديرها الى أن استأثر الله به ، وجدير بالحكومة إذا أشادت دار كتب عامة لدمشق أن تقيم له تمثالاً في ساحتها كما يجمل بنا أن نسمي حجرة المخطوطات بالخزانة الظاهرية تيمناً باسمه الخالد الميمون .

ورغبة في زيادة كتب الخزانة الظاهرية أرسل المجمع العلمي إلى مصر خليفة الشيخ طاهر في منصبه وهو الشيخ حسني الكسم الذي استفرغ في مصر مجهوده مستهدياً للخزانة الظاهرية مطبوعات المؤلفين والكتبيين فحمل اليها مجموعة مباركة تتألف من ١٦٠٠ مجلد ملأت عشرة صناديق ، منها ما أهدته دار الكتب المصرية ، والمكتبات التجارية ، ومنها ما أهداه كبار المؤلفين والناشرين أمثال السادة رشيد رضا وأحمد الاسكندري ومحمد الخضري وأحمد تيمور ورفيق العظم وخير الدين الزركلي .

أما العلامة أحمد تيمور فقد أهدى علاوة على الكتب مجموعة نفيسة من المسكوكات القديمة تشتمل على ٤٨٢ قطعة من ذهبية وفضية ونحاسية وزجاجية ومن خواتم قديمة نقش بعضها على جواهر كريمة ، وهي اليوم محفوظة في قبة التربة العادلية .

وحسبنا أن نوجز القول بأن كتب الخزانة الظاهرية كانت يوم تولى المجمع عليها تشتمل على ٤٠٠٠ مخطوطة وقليل من المطبوعات ، فأصبحت في يوم الناس هذا تشتمل حناياها على ٢٥٠٠٠ مجلد ما بين مخطوط ومطبوع ،

فضلاً عن المجلات المختلفة اللغات ، وفيها من الكتب الفرنسية والانكليزية والالمانية ما يفيد المراجعين والمطالعين .

وقد أهدى اليها قبيل وفاته المؤرخ الدمشقي الكبير المرحوم رفيق العظم خزانة كتبه ، ومثل هذه المأثرة النبيلة قد فعل الشيخ عبد الله الكزبري من بيوتات العلم بدمشق ، فحفظت الظاهرية كتبهما في خزانتين خاصتين ؛ ويتسع بي مجال المقال جداً إذا أردت أن أسرد على مسامعكم أسماء جميع الذين أعانوا دار الكتب الظاهرية بالمخطوطات والمطبوعات كالشيخ سليم البخاري والشيخ محمد بهجة البيطار ، والشيخ أحمد فهمي العطار ، والأمير طاهر الجزائري وأمثالهم جزاهم الله خيراً .

وقد أراد المجمع العلمي أن يتم تنظيم دار الكتب الظاهرية على نمط التنظيم الأوربي الحديث ، فأوفد إلى باريس الأستاذ يوسف العش ليدرس في مدرسة السجلات **Ecole des Chartes** أصول ترتيب الكتب وتنظيم دورها فمكث ثلاث سنوات أخذ في آخرها شهادتها ، ثم زار بعد ذلك خزائن كتب فرنسة في أشهر مدائنها مثل ليون ديجون وآفينيون وبوردو وطور وغرنوبل وغيرها ، وسيبيّن لكم طريقة التنظيم [1] التي اختارها لدار الكتب الظاهرية ثم يعرض على أنظاركم في آخر هذه الحفلة هذه الطريقة التي سهلت سبيل المطالعة ويسرت أساليب المراجعة للمطالعين والمراجعين جميعاً .

هذه هي بعض أعمال المجمع العلمي في دار الكتب الظاهرية ، ولم يغفل الاهتمام بنشر اللغة العربية في سائر البلدان الشامية ، فاهتم بحلب حاضرة الادب على عهد الدولة الحمدانية فافتتح فيها فرعه الحلبي في تشرين الأول من سنة ١٩٢٣ مختاراً له من أعضائه أفضل علماء حلب المعروفين بخدمة اللغة العربية ، وأنشأ لفرع المجمع العلمي هذا خزانة كتب يرجع اليها الباحثون ، وأرسل اليها في طليعة المرسلات مجموعة من الكتب العربية والتركية والفرنسية تشمل على

(١) أنظرها بعد خطابه المنشور في هذا الجزء

ألف مجلد ، وعهد مجمعنا الى العلامة الشيخ كامل الغزي بأن يتولى مع إخوانه الأعضاء إدارة هذه الخزانة الحلبية ٠

وأما أنطاكية عاصمة الشام الأولى فقد خشي المجمع العلمي من بغي اللغة التركية على العربية ، وأراد أن يشد أزر لغتنا القومية في تلك الربوع لتثبت على نوائب الدهر ، ولاجل تحقيق ذلك اختار أحد أعضائه في أنطاكية وهو العلامة الشيخ محمد زين العابدين وعهد اليه أن ينظم سجلا بخزائن الكتب التي لا تزال محفوظة في بعض مدارس أنطاكية وجوامعها ، وأرسل اليه مجموعة كبيرة من الكتب العربية ، كما أرسل مثل ذلك مجموعة كتب إلى الزبداني ، ومثلها إلى جبل الدروز بالأمس وجبل العرب في هذه الأيام٠

والمجمع العلمي العربي أول معهد عُني في دمشق بآثار البلاد فأنشأ وصنع على عينه دار الآثار الدمشقية ، وكان فاتحة أعماله في هذا السبيل أن أوفد أول بعثة أثرية كنت من أعضائها الى تدمر وحمص ، فحمل إلى دمشق كثيراً من نفائس الآثار منها رأساً حثيًّا كبيراً من الصخر البركاني الأسود عثر عليه في حديقة حمص ، ويعتبر هذا الرأس في رأس الآثار الحثية المفيدة ، وعلم المجمع العلمي بوجود كثير من العاديات والتحف الأثرية القديمة في منازل الوجوه والاعيان فاستهداهم كثيراً منها ، وبذلك تكاثرت الاثار القديمة في صحن العادلية وغرفها ، وأيقن المجمع أنه لا قوام للاثار إلا بإرسال طالب علم الى باريس ليدرس فيها على أساتذتها أصول علم الاثار واللغات السامية القديمة ، فأرسل للتخصص بذلك الأمير جعفر الحسني فقام بالمهمة العلمية التي أوفد إلى باريس من أجلها خير قيام ، وبعد نيل شهادته الأثرية عاد الى دمشق وشرع ينظم آثارها ، وتزايدت هذه الاثار الى أن أصبحت دار المجمع أو المدرسة العادلية لا تستوعب جميع معروضاتها ، فظل كثير من نفائسها مخبوءاً في الصناديق فشرعت دولة الجمهورية السورية في بناء دار آثار لها ستكون من أجل أنواعها في الشرق إن شاء الله ٠

أما دار المجمع العلمي العربي فقد كانت من أرقى مدارس العلم بدمشق

وتعرف بالعادلية الكبرى نسبة للملك العادل سيف الدين شقيق الملك الناصر صلاح الدين الايوبي ، وقد بدأ بانشائها سنة ٦٥٨ للهجرة نور الدين محمود زنكي وبعد وفاته بنى الملك العادل بعضها ثم توفي ودفن في تربتها الموجودة ، فأتمها ولده الملك المعظم ؛ وقد افتتحت للتدريس في يوم مشهود حضره السلطان المعظم ووجوه دولته وكبار العلماء والاعيان ، فالقى فيها درس الافتتاح القاضي جمال الدين المصري ، وممن درس بها قاضي القضاة بهاء الدين السبكي وامام النحاة ابن مالك الذي كان يسكن داره حارسها اليوم وكان يقف وينادي على بابها لتأدية أمانة العلم : هل من طالب علم ، هل من قارئ نحو ؟ وفي العادلية كان يقيم مؤرخنا العظيم ابن خلكان وله فيها ذكر وعبر ، وفيها أتم النعيمي تأليف كتابه (الدارس في المدارس) الذي يبحث عن مدارس دمشق إبان نهضتها .

وكان آل المنيني يقطنون هذه المدرسة الشافعية الكبرى بحق الولاية عليها فسمت الحكومة الفيصلية لتحرير العادلية للبحث العلمي ، وبهمة حاكمها العسكري السيد رضا الركابي الذي كان أكبر العاملين على انشاء المجمع العلمي وداري الكتب والآثار ، أعطت الحكومة الى آل المنيني مبلغ ٢٠٠٠ ليرة مصرية ليتنازلوا لها عن حق التولية ، ثم أنفقت لترميم العادلية على الاسلوب العربي مبلغ ٢٥٠٠ ليرة مصرية فتماسك بنيانها كثيرا ، حتى أصبحت تصلح لاجتماع أعضاء المجمع ومناقشاتهم ومحاضراتهم العامة .

ان المجالس الاسبوعية التي كان يجتمع فيها الاعضاء ليتناقشوا في الاوضاع الادارية والمصطلحات العلمية هي من أعمال المجمع العلمي المباركة التي ساعدت كثيراً على انتشار اللغة الفصحى ورسوخها ، ومثلها المحاضرات العامة التي كان يلقيها الاعضاء على الرجال والنساء ، بله كان يرسل بعض أعضائه لالقاء المحاضرات في غير دمشق من البلدان الشامية .

وكان المجمع يقيم حفلات التكريم أو التأبين لمشاهير علماء الاقطار العربية الذين خدموا العربية نثراً وشعراً ، سواء أكانوا من أعضاء المجمع أم من غير أعضائه ، وفي ذلك ما فيه من التنشيط والتقدير وتوثيق أواصر الوحدة العربية العلمية والقومية جميعاً ، ومن هذه الحفلات الاعياد الادبية القومية كمهرجان أبي الطيب المتنبي الذي جمع من شمل الامة العربية باجتماع كثير من علمائها وأدبائها ، وبث في فتيان الامة روح الاجلال لادبائهم الخالدين ، وزاد كثيراً من الابحاث المتنبئية شرحاً وتفصيلا .

والمجمع العلمي هو المقترح الاول لانشاء كلية الآداب التي خرجت على ضيق ملاكها كثيراً من الادباء والمعلمين فسدت بذلك ثلمة واسعة كانت الحاجة ماسة إليها .

ومن أظهر أعمال المجمع العلمي انشاء مجلته العلمية التي تعنى بالابحاث الادبية من لغوية وتاريخية ، وقد بلغ عدد مجلداتها السنوية خمس عشرة مجلدة فضلا عن الرسائل الادبية التي بعثها بالنشر من مرقدها وعددها يزيد على عشر يرى قارئ المجلة اسماءها على غلافها .

ومن أعمال المجمع العلمية استنساخه لنوادر المخطوطات المخدومة من خزائن دمشق والاقطار العربية والغربية إتماماً لمجموعة المخطوطات الظاهرية ، ومنها تيسير السبيل على العلماء والمستشرقين ليتمكنوا من معارضة المخطوطات التي يريدون نشرها على مخطوطاتنا ، ومساعدتهم بذلك على تصحيح ما في خزائنهم من آثارنا العربية .

وكثيراً ما ساعد المجمع العلمي المؤلفين في دمشق على تصحيح كتبهم العلمية والمدرسية قبل طبعها ، وكثيراً ما درب أفاضل الشبان على أصول البحث العلمي فاصبح منهم الكتاب والمؤلفون .

ومن الذرائع التي توسل بها المجمع العلمي لتنشيط روح البحث والتأليف في بلادنا توزيع (الجوائز العلمية) على المجلين من المتسابقين في الابحاث

المطلوبة ، اذكر على سبيل المثال منها : جائزة السيد فخري البارودي لمن يضع أمثل كتاب في تسهيل الهجاء ، وجائزة السيد محمد سعيد اليوسف لمن يؤلف أحسن كتاب في تقدم البلاد السورية ، وجائزة السيد خالد العظم لمن يصنف أفضل كتاب في التربية .

وقد رأى المجمع العلمي أن دار الكتب الظاهرية ينقصها آلة لتصوير الكتب تصويرا شمسيا أسوة بدور الكتب الراقية في ديار الغرب فاشترى آلة من أتقن آلات التصوير وشرع يصور للعلماء والمستشرقين ودور الكتب الجامعة ما يحتاج اليه من مخطوطات الظاهرية ، والتصوير أصح في نظر العلماء من النسخ لأن الآلة تنقل المخطوطة كما خطها كاتبها نقلا تاماً لا مسخ يمازجه ولا تصحيح يطرأ عليه ، أما النسخ اليدوي فما يتهم ولا يطمئن قلب المحقق اليه ، وكثيراً ما كان الناسخ ماسخا .

والمجمع العلمي عازم على طبع كتاب جليل يعتبره العلماء مع كتاب تاريخ دمشق لابن عساكر من مفاخر دمشق ، وهذا الكتاب (الدارس في المدارس) للنعيمي يبحث عن مدارس دمشق في عصور نهضتها العلمية . وعن أوقافها ومدرسيها ومن تخرج فيها من العلماء والادباء مع تراجم المشهورين منهم ، وقد اشترى المجمع العلمي جميع ما يحتاج طبع هذا الكتاب اليه من الورق الجيد ، وهو لا يزال يعد بقية العدد لاكمال ضبطه وتسهيل طبعه قريباً .

وقد أشاد المجمع العلمي بذكر دمشق ونهضتها العلمية ، وأكسبها والدولة السورية التي هي عاصمتها اسما ممجدا وشرفا مخلدا ، فان علماء الامم الغربية الراقية ولا سيما المستشرقين منهم وأكثرهم أعضاء المجمع العلمي العربي قد أصبحوا يلهجون باسمه ويرسلون الى مجلته بابحاثهم العربية ويدعونه الى مؤتمراتهم العلمية ، فكل ما أنفق على المجمع

العلمي من المال لا يبلغ معشار ما نالته دمشق من حسن الاحدوثة وجميل الذكر ٠

هذا والمجمع العلمي العربي الذي عاش في الحكومات السابقة ولم تجرأ على أن تصيبه بأذى لايخشى عليه على عهد هذه الدولة العربية التي يعزف رجالها بجهادهم في سبيل العروبة ، لا سيما والقائم اليوم على شؤون المعارف من بينهم هو الطبيب والعالم الاديب السيد عبد الرحمن الكيالي الذي ما فتئ يبذل جهده في معالجة قضية المجمع العلمي ، ومن أحرى من الطبيب بتشخيص الداء ووصف الدواء والسلام ٠

تطور دور الكتب العربية العامة

منذ نشأتها حتى اليوم (1)

إن في تطور دور الكتب العربية خلال التاريخ منذ نشأتها حتى اليوم شاهداً على أنها تمشت جنباً إلى جنب مع حاجات العصور وقامت بمهمتها الثقافية وفقاً لتلك الحاجات .

خرج العرب من جزيرتهم وليس بين أيديهم من كتاب إلا القرآن الكريم فراحوا يخترقون البلدان فاتحين معتمدين على هذا الكتاب يجدون فيه ما يطلبون ولكن لم ينقض زمن طويل عليهم حتى دعاهم ذكاؤهم الفطري الى دراسة العلم ومعرفة أخبار المتقدمين وآثارهم فأقبلوا على كتب الاقدمين وشرعوا يترجمونها الى لغتهم ووصل بهم الامر في ذلك الى فتح دار للترجمة منظمة عليها حفاظ و كتاب ومترجمون و كان ذلك في عصر هارون الرشيد . سميت هذه الدار بدار الحكمة او بيت الحكمة ، والحكمة تشمل علوم الاقدمين العقلية أي الفلسفة بفروعها والطبيعيات والرياضيات . أحدثت هذه الدار كما قلنا للترجمة ولكن الترجمة لا تكون إلا من الكتب ولا تكمل وتحسن إلا إذا كان هنالك ما يساعد المترجمين على فهم الكتب التي يترجمونها ، أي إذا وجد مع الكتب المترجمة كتب تشرحها أو تعلق عليها او تقاربها بالمادة

(١) كلمة محافظ دار الكتب الظاهرية السيد يوسف العش وهي خلاصة أطروحة يؤلفها ليقدمها في هذه السنة الى جامعة الصوربون بباريس .

والبحث ، فكان على من أوجد دار الحكمة أن يؤهلها بكتب الحكمة ، وكان ذلك ؛ فقد غنم هارون الرشيد في واقعة عمورية مقداراً كبيراً من كتب الأقدمين أضافه إلى ما كان عنده من كتبهم ، وكوّن بها جميعا دار الحكمة ؛ فتلك الدار قد جمعت إذن قبل كل شيء كتباً وتكونت فيها خزائن للكتب ، فكانت أول مكتبة عربية أمّها القراء والمطالعون والنساخ مستفيدين كلٌّ في ناحيته من كتبها سواء منها العربية المترجمة أو الأجنبية غير المترجمة أو العربية الخالصة .

ندور الكتب العربية إذن نشأت نشأتها الاولى على شكل دار للترجمة ُجمعت فيها الكتب وهيئت للعلماء والبحاثين .

ومازال الامر على ذلك حتى كثرت الكتب المترجمة وعمّت وانتشرت وأصبحت ُمهمة دور الكتب ثانوية ، فكان من الواجب إذن أن يحل محلها شيء آخر ، وماذا يكون هذا الشيء ؟ إن الكتب والمؤلفات العربية كانت قد أخذت في الانتشار في ذلك العصر انتشاراً كبيراً ، وموضوع الكتب العربية هو العلم العربي حقاً ، والعلم عند العرب الدين والأدب والتاريخ ، فكان من الواجب إذن أن يكون هناك دار للعلم ، وقد تم ذلك فان سابور ابن اردشير أنشأ داراً للعلم في بغداد وأنشأ الحاكم بأمر الله مثلها في القاهرة ، وبنو عمّار على نحوها في طرابلس ، وأنشئت أمثالها في البلدان الأخرى . وكانت الغاية الاولى من هذه الدور حفظ كتب العلم الأصلية وعرضها للمطالعة ، ولكن حصل آنذاك شيء أضيف إلى صفتها هذه صفة ثانية صفة المدارس ، فكان يلقى فيها دروس في العلم والذي أضاف اليها صفة المدرسة أن الناس كانوا فى حاجة كبيرة إلى الدرس على أساتذة عالمين ، وأصبحت المساجد تضيق بالدروس ، ولم يكن هنالك بعد مدارس فأقبل الناس مضطرين الى دور العلم يتلقون فيها الدروس عدا عن قراءتهم فيها للكتب وذلك أمر طبيعي

لامكان للاستغراب منه ، على أنه فريد في نوعه .

وبعد أن أنشئت المدارس في البلاد العربية وانتشرت أي بعد انتهاء القرن الخامس شرعت دور العلم في الاختفاء ، وظهر مكانها دور الكتب بمعناها الحقيقي ، ووافق هذه الحركة توسع العلم وانتشاره بين معظم طبقات الشعب فكان من الواجب إذن أن تخصص له وسائط عامة ، وكان الأمر كذلك في في هذه الدور ، فكان يرى في كل بلدة عدد كبير منها منتشراً في الاحياء المختلفة يعمل على تثقيف الشعب وانماء مداركه .

ولكن يا للاسف لم تدم هذه الحركة طويلا فقد قضى التتر الفاتحون على هذه الدور وأحرقوها ودمروها وعاثوا فيها فساداً ، ولم يشأ الحكام الذين استولوا على البلاد بعد هذه الفتوح أن يعم العلم مرة ثانية في طبقات الشعب ، فالعلم نقمة على الظالم تضرب على يده مهما كانت قوية ولم يكونوا بقادرين على أن يقضوا على العلم قضاء تاماً ، لأنهم دخلوا في الاسلام ، ولأن الجهل مهما بلغ بالناس فلا يأتي على عقيدتهم الراسخة ، فاضطروا إلى حصر العلم بطبقة خاصة من الشعب يغدقون عليها إنعامهم فتبقى وفية لهم ، فأنشأوا المدارس الدينية ، وكذلك شرعت دور الكتب في الاختفاء ملتجئة إلى هذه المدارس التي كانت قسماً منها في السابق ، ومنذ ذلك التاريخ أي من أوائل القرن الثامن أصبحت لا تجد مكتبات عامة إلا في المدارس ، ودام الامر على ذلك حتى أواخر القرن الماضي .

وفيه شرع في إنشاء دور كتب عامة ووافق ذلك نهضة حديثة شرعت تنتشر في بلاد العرب قاضية على ظلام الجهل : ولكننا رغم ذلك لا نزال نشاهد دور كتب عظيمة الأهمية محصورة في مدارس قديمة هي تراث الماضي ، على أن التطور الذي ذكرناه سوف يقضي عليها حتما ويجعلها تلتجىء إلى دور الكتب العامة ، ففيها تظهر قيمتها وفيها يقبل عليها الباحثون بالدرس والتمحيص والنشر .

إن دور الكتب العربية كما ترى سارت مع روح العصر ووافقته موافقة

تامة وقامت بما عليها حق القيام ، فمن دار للحكمة نشرت علوم الأقدمين ، وأتت عليها بالترجمة إلى دار للعلم أساس أمرها الكتب والمطالعة ، ولكنها لم تخل من التدريس ، إلى دار كتب عامة بمعنى الكلمة ، ومنها التجأت إلى المدارس لتكون الاساس للمدرسين يسترون بها جهلهم ويعتمدون عليها في إلقاء دروسهم ، ومن ثم عادت الى حياتها الاستقلالية فشكلت لنفسها كياناً خاصاً ، واستعادت اسمها القديم : دار الكتب .

إن بحثنا هذا يقودنا إلى ان نقول بأن دور الكتب التي أسست في عصرنا هذا والذي قبله هي تراث الماضي لا تختلف عن المدرسة بشيء ، وقد يعتاض بالواحدة عن الأخرى وتتبادلان بالخدمة فهي لذلك ولنتيجة التطور الذي وصلت اليه مدعوة إلى خدمة كبرى ، إلى عمل قومي فيه تثقيف مختلف طبقات الشعب ، فهي عامة قبل كل شيء ، ولا يتم تثقيف هذه الطبقات الا بها ، فيجب علينا إذن أن نؤهلها إلى هذا العمل وأن نهيء الأسباب لتقدمها وأن لا نشل حركتها ، وبذلك نكون قد برهنا أننا أمة تغتنم الفرص وتسير مع التطور ولا تقبل الخذلان في مادة العلم .

التنظيمات الجديدة لدار الكتب الظاهرية

روّاد دار الكتب الظاهرية قسمان : قسم منهم يأتي للتعلم وقراءة الكتب ، وآخر لدراسة بعض المواد التي يودون الكتابة فيها ، أو بمعنى آخر ، قسم منهم طالب للعلم ، وآخر ناشر له . وعلى ذلك كان لا بد من أن يخصص لكل منهم مكان خاص وفهارس خاصة تتفق مع غايتهم ودرجة معرفتهم ، وهذا ما عنينا بتحقيقه في التنظيمات الجديدة التي أدخلناها على دار الكتب الظاهرية فقد أنشأنا في هذه الدار قاعتين مختلفتين : قاعة عامة للمطالعة ، وأخرى خاصة بالمؤلفين والبحاثين .

نظمنا للقاعة العامة فهرسين : أحدهما باسماء الكتب مرتب على حروف المعجم ، والآخر مرتب على مواضيع العلوم ، اقتصرنا فيه على ذكر الكتب الحديثة والمهمة التي تتفق مع ثقافة التلميذ وثقافة جمهور الناس . وقد حصرنا فيه مواضيع العلوم حصراً ضيقاً لكيلا يتشتت بها فكر المطالع الذي لم يعتد بعد المراجعات العلمية .

أما قاعة التأليف (هكذا سميناها) فقد وضعنا لها فهرسين : أحدهما بأسماء المؤلفين مرتب على حروف المعجم ، وثانيهما مرتب على مواضيع العلوم بصورة مفصلة جداً نشرنا أصنافها وموادها في كتاب خاص مطبوع سميناه « تصنيف العلوم والمعارف العربية »

والعلوم مقسمة في هذا التصنيف الى ٥٣ صنفاً أصلياً ، كل صنف منها مقسم بالتالي إلى مواد خاصة ، لكل منها رقم مشكل على عددين : أولها رقم الصنف الذي تنتمي اليه ، وثانيها رقمها الخاص حسب ترتيبها العددي في صنفها ، فالمادة الأولى من الصنف الاول رقمها مثلا (١ — ١) ، والمادة الثالثة من الصنف الرابع رقمها (٤ — ٣) وهلم جرا . ولسهولة الرجوع الى هذا التصنيف ذيلناه بتعداد مفصل لمواضيع العلوم على الترتيب الأبجدي ، ذكرنا فيه أمام كل موضوع منه رقم المادة التي ينتمي اليها من التصنيف ، وهكذا فقد أصبح من السهل معرفة المادة من التصنيف التي تحتوي بحثاً خاصاً يراد الرجوع اليه ، وذلك بالتفتيش عن اسم هذا البحث في التعداد المذكور ، ومتى عثر على اسمه عثر على رقم المادة التي يدخل فيها .

فهذا التصنيف مع ذيله (فضلا عن كونه مفيداً في تنظيم دار الكتب على أساس علمي) هو مفتاح لفهارس دار الكتب الظاهرية المرتبة على المواضيع ، إذ أن الفهارس محررة على أوراق تضم وترفع حسب الحاجة في دفاتر مجلدة بطريقة خاصة تتفق مع هذه الغاية ، وقد اتبعنا في تنظيمها ، كما ذكرنا سابقاً مواد التصنيف المطبوع وأرقامه ، فأصبح من السهل اذن الانتقال من التصنيف أو من ذيله المرتب على الحروف الأبجدية الى فهارس الدار مباشرة بواسطة

الارقام التي هي نفسها في مواد التصنيف وذيله ، وهي نفسها أيضاً في أوراق فهارس الدار ، وعلى ذلك فقد جمعنا بهذه الصورة بين طريقة الفهارس المرتبة على مواضيع العلوم وبين طريقة الفهارس التحليلية المرتبة على حروف المعجم لمواضيع العلوم والتي مفتاحها ذيل ذلك التصنيف المطبوع ٠

ولكي تتم الفائدة انتخبنا لقاعة التأليف ما يقرب من ألف مجلد في مختلف العلوم لتكون المراجع الاولى للمؤلفين ، ووضعنا في القاعة نفسها خزانة نعرض فيها الكتب التي ترد حديثاً على الدار ، وأخرى نعرض فيها الاعداد الاخيرة من المجلات ٠

أما ترتيب الكتب في الخزائن فكان على المواضيع حسب التصنيف المطبوع، ولكن هذا الترتيب طبق فقط على الكتب التي حوتها الدار حتى تاريخ التنظيم ، أما بعد هذا التاريخ فسترتب الكتب الواردة حسب طولها ٠ وقد فصلنا في هذا الترتيب المجلات والكتب الدورية عن الكتب العادية؛ وفصلنا عنها جميعاً الكتب الصغيرة التي لا يتجاوز عدد صفحاتها المائة ٠

أما ساعات العمل في قاعتي المطالعة المختلفتين فهي كما يأتي:

صباحاً : من الساعة ٩ إلى الساعة ١٢

مساء : من الساعة ٣ إلى الساعة ٦

ويضاف الى ذلك ثلاث ساعات تبدأ بالساعة ٦ مساء نفتح فيها قاعة التاليف فقط للمطالعين عامة دون الفريق بين المؤلفين منهم وغير المؤلفين ، وذلك ليطلع الجهور على الكتب الموجودة في قاعة التاليف وعلى الفهارس التي تحويها ٠

وانا لنرجو أن تكون هذه التنظيمات الجديدة عوناً للمطالعين على الاستفادة من دار الكتب الظاهرية استفادة كاملة تامة ٠

يوسف العش

لتوسلوا الا باسم شكيب [1]

ان صفتَ شعراً فانحُ نحو حبيب   أو رمتَ نثراً فاحذُ حذو شكيبِ
هذا إذا غنّي سمعت بشعره الألحـ — ـان من شبّابة التشبيب
وشكيب يسمعك البيان وسحره   فيريك بالنفثات كلّ عجيب
سَرْحٌ يخال من السلاسة سلسلا   من رقة الانشاء والأسلوب
وتراه إما مقنعاً بدليله   أو مُطمعاً بتنيعه المحجوب
فاذا القريبُ هو البعيد منالهُ   وإذا البعيدُ لديك جدّ قريب
ما شيبَ في مسبوكه بتنافر   أو عيبَ في محبوكه بغريب
طبع يصوغ من الكلام مهذباً   فيروع كل مهذب وأديب
والقول إن تصنعه غير مشذب   لم يجده متكلف التشذيب
روض البلاغة مجدب وبيانه   أبداً كروض بالحياة خصيب
وله من الشعر البليغ قلائد   تركت خليّ القلب أيّ طروب
كبائب الديباج أو كبائك الوهـ — ـاج بهجة أعين وقلوب
لو شُبّ شعر من فصاحة قائل   لعجبتمُ من شعره المشبوب

* * *

(١) القصيدة التي افتتح بها كاتب سر المجمع الحفلة التي ألقى بها الامير شكيب محاضرته (نهضة العرب العلمية) وهي التي ستنشر في فاتحة العدد المقبل ٠

تخذ البراعة في المعارك رمحه ... ليذود عن حق الحمى المغصوب
لا عيب فيه غير أن سنانه ... كلف بدق أضالع وتريب
ناضلت عن أحساب قومك نجدة ... لا قصد شكر أو جزاء مثيب
ورددت كيد عداتهم لنحورهم ... فافتر ثغر الحق بعد قطوب
فالعرب أنت أسيرهم ومجيرهم ... في كشف عادية ودفع كروب
جاهدت في توحيدهم ببراعة ... سحرت ومقول مدره وخطيب
وحملت في نصر العروبة حملة ... تركت عداة العرب في تتبيب
والدين منتهكا حميت حماه من ... أمم تعادي روحه وشعوب
فأثرت غامضه لجاهل كنهه ... حتى استجاب وكان غير مجيب
فالشرق حتى الصين كنت دليله ... للدين أو أسراطه الملحوب
والغرب[1] أنت نصيره إن نكبة ... حلت به وبسربه المنهوب
خاصمت في الإسلام كل مخاصم ... وجفوت في الاسلام كل مريب
لم يبق في شرق الديار وغربها ... من ليس يلهج باسمك المحبوب
لو كان يذكر في الأذان مناضل ... عن دينه أو قومه المحروب
ذكروك في الصلوات غير مدافع ... قبل الشروق على وبعد غروب
أو جاز أن يتوسلوا بسوى التقى ... لتوسلوا لله باسم شكيب !



(١) الغرب إن أطلق أريد به مقابل الشرق أو أوربة ، ونحن أردنا به المغرب وبلاده الإسلامية .

كلمة الاستاذ

محمد بهجة البيطار(1)

اشتهر الأمير شكيب أرسلان بكونه أشهر من كتب في السياسة والتاريخ والأدب ، وبكونه أمير البيان وكاتب الشرق ، فمثل هذا الضعيف لا يستطيع أن يفيه حقه من الوصف أو الثناء والاطراء . إن أمير البيان حفظه الله مجاهد بنفسه وماله ، وعلمه وقلمه ، ولسانه وقوة بيانه ؛ أما جهاده بالنفس والمال فحسبك أنه بذل نفسه وماله في سبيل الله فاشترك في الدفاع عن طرابلس الغرب وبرقة ، ولم يزل ينفق من ماله في سبيل المصالح العامة بسخاء ، وأما جهاده بعلمه وقلمه فقد ملأ صحف الدنيا دفاعاً عن الإسلام والعروبة ، وانك لتقرأ لأمير البيان في اليوم الواحد عشرات المقالات في صحف آسية وإفريقية وأوربة ، عدا ما ينشره من مصنفاته التي هي أغلى من الدر ، فمنها كتاب الحلل السندسية ، وهو المعلمة الأندلسية الكبرى ، ومنها حواشيه على كتاب حاضر العالم الإسلامي ، وهي التي سارت بذكرها الركبان ، ومنها حواشيه على تاريخ الإمام عبد الرحمن بن خلدون وغيرها وكل واحد من هذه الكتب يقع في مجلدات .

وأما جهاده بلسانه وقوة بيانه فبما يصدع به من الحق ، وبما يملأ به مجالسه من علم وأدب ، وبما يلقيه من الخطب والمحاضرات في المنتديات والمجامع والمحافل

(1) التي ختم بها محاضرة الأمير .

في الشرق والغرب ، ومن أعلاها هذه المحاضرة التي شنف بها أسماعنا في ردهة مجمعنا العلمي ، فقد وصف لنا بها نهضة العرب في هذه الحقبة الأخيرة وصفاً جامعاً بالغاً .

أقام أمير البيان في بلاد أوربا أكثر من عشرين عاماً يجاهد في سبيل أمته بكل ما أوتي من قوة ، ويمثل في الأصقاع الغربية علوم الشرق وآدابهم وأخلاقهم ، وليت فئة الشبان المتفرنجين الذين يذهبون إلى بلاد الغرب يحذون حذو الامير في أدبه وخلقه وعفته ، ليكونوا شرقيين بأخلاقهم ، وغربيين بمعارفهم الحديثة المفيدة ، وليت الامة تحتج على الذي ترسله ليمثلها خلقاً وأدباً ، ويتعلم علماً ينفع به أمته ، فيخيّب رجاءها فيه ـ ليتها تحتج الى صحف الغرب وأولي الشأن فيهم لينصفوها منه ، واذا باء بالخيبة والاخفاق فمن حق الجامعة التي لم ينجح فيها أن تحتج لدى الشرق بأن هذا لا يمثلهم في جدهم ، ولا في معارفهم وصناعاتهم فيخسر هذا المسكين أدب أجداده وبلاده ، ومعارف الامة التي شدّ رحله اليها فيصح فيه قول القائل :

لا إلى هؤلاء ان نسبوه وجدوه ، ولا الى هؤلاء

هذا وانا لنرجو من أمير البيان ، ان يعتزم الإقامة في وطنه ، فإنا لنغتبط به ونفخر بمقامه في ديار الشام ، اكثر الله من أمثاله في العلماء الاعلام والمجاهدين الكرام .

محمد بهجة البيطار



آراء وأخبار

حفلة افتتاح

دار الكتب الظاهرية بعد تنظيمها

بعد عودة السيد يوسف العش محافظ دار الكتب الظاهرية من ديار الغرب واختصاصه بتنظيم دور الكتب ، لبث في الظاهرية مدة سنة ونصف يعمل على وضع الفهارس العامة وعلى تنسيقها ، وبعد أن أكمل عمله هذا أراد التفرغ لتصنيف الكتب وفق هذه الترتيبات الحديثة ، فأذنت له وزارة المعارف باقفال دار الكتب ريثما يتم عمله هذا على هدوء وفراغ بال ، فجد لتحقيق ذلك الى أن أكمل التنظيم المنشود الذي يسهل على المطالعين والمؤلفين أمر الرجوع الى الاسفار المحجوبة في خزائن الظاهرية ، وعلى أثر ذلك أعدت هذه الحفلة لاعلام الناس باستئناف فتح الظاهرية وإرشادهم الى طريقة المراجعة الحديثة ؛ وفي يوم الجمعة الواقع في ١٧ ايلول ١٩٣٧ فتحت الظاهرية أبوابها للمدعوين الى الحفلة التي كانت ملحوظة برعاية وزير المعارف ، وافتتحت هذه الحفلة بكلمة محافظ دار الكتب مبيناً بها الترتيبات الحديثة التي أدخلت عليها وشفعها بكلمة أخرى موضوعها « تطور دور الكتب العربية[1] » ثم قام على أثره الاستاذ محمد بهجة البيطار عضو المجمع العلمي فألقى كلمة ممتعة في الجمع بين الثقافتين القديمة والحديثة

(١) نشرت في باب المقالات من هذا الجزء .

وهما ممثلتان في الظاهرية بما فيها من الكتب القديمة الصفراء والحديثة البيضاء ، وبعد ذلك ألقى كاتب سر المجمع العلمي كلمة موضوعها (أثر المجمع العلمي في إنشاء دور الكتب والآثار في الديار الشامية) ثم ألقى على أثره نائب دمشق السيد فخري البارودي كلمته الطيبة في خطورة دور الكتب العامة وأثرها في الثقافة ، وبعده نهض أمير البيان وعضو المجمع العلمي العربي الامير شكيب ارسلان وألقى كلمة مسهبة بين بها ما كان للعرب في إبان نهضتهم من آثار مباركة في إنشاء دور الكتب ونشر العلم وترقية العلوم وضرب لذلك أمثالا واضحة تؤيد أقواله . وكان مسك الختام كلمة مرتجلة لوزير معارفنا العالم الطبيب عبد الرحمن الكيالي أفاض فيها في بيان إهمال الناس لما ورثوه عن آبائهم من الكتب المخطوطة النادرة وتركها للعث والغبار ، وحث الناس مبيناً أن أجمل وسيلة لحفظ تراث أجدادهم أن يهدوها الى دور الكتب العامة الحريصة على صيانتها ونشر ما تشتمل عليه من الفوائد على الناس .

وبعد أن أتم كلمته البليغة دعا محافظ الظاهرية للمدعوين الى مشاهدة التنظيمات الحديثة وطريقة الانتفاع بها ، فسر الناس بما شاهدوه من الاتقان والاحسان ، وعادت ثاني يوم دار الكتب الى سابق عهدها بحلتها الجديدة المفيدة .

* * *

محاضرة الامير شكيب ارسلان

في الساعة الرابعة من مساء الثلاثاء الواقع في ٣٠ رجب ١٣٥٦ (٤ تشرين الاول ١٩٣٧) ألقى الامير شكيب أرسلان عضو مجمعنا العلمي في صحن دار المجمع محاضرة ممتعة في نهضة العرب العلمية في القرن الاخير ، وكان الجمهور كبيراً فغصت الدار بالمستمعين ، وسننشر هذه المحاضرة الجامعة في فاتحة الجزء الحادي عشر من هذه المجلة .

وفي الأجل المضروب لالقاء المحاضرة قدم كاتب سر المجمع الامير المحاضر

للجمهور ، وأنشد قصيدة له[1] في أمير البيان تصف مزايا نثره وشعره ، ومبلغ جهاد الامير في خدمة العروبة والاسلام نشرناها في هـذا الجزء ، وبعد ذلك شرع الامير في تلاوة محاضرته التي استغرقت نحو ساعتين ، وعلى أثره نهض العلامة الشيخ محمد بهجة البيطار وختم هذه الحفلة المباركة بكلمة طيبة ارتجلها في بيان مزايا الامير المحاضر كانت مسك الختام .

* * *

اللغة العربية

في محطات الاذاعة البريطانية

جاء في الانباء اللاسلكية أن وزير المالية البريطانية السر جون سيمون أدلى في مجلس العموم ببيان مطول يستفاد منه أن محطات الاذاعة اللاسلكية البريطانية ستذيع أيضاً برامجها باللغات العربية والاسبانية والبرتغالية .

* * *

اللغة العربية في عصبة الامم

من نوّب الامم من يكسب امته مجداً وفخاراً ، مثل السيد علي باشا الشمسي مندوب مصر الدائم في عصبة الامم فقد تبوأ مقعده أخيراً في اللجنة السادسة وسعى فيها لجعل اللغة العربية لغة رسمية لنشر آثار لجنة التعاون الفكري ، وما كانت من قبل تنشر الا باللغتين الفرنسية والانكليزية ، بيد أن السيد الشمسي قد توفق في جداله مع اللجنة واستدلاله على وجوب نشر هـذه الآثار الجليلة باللغة العربية فأكسبها هذا الشرف اللغوي الذي امتازت العربية به امتياز الفرنسية والانكليزية على سائر لغات النشر ، فالامة العربية من مصرية وغير مصرية تشكر النائب النبيل الجليل على نبيل رأيه وجليل مسعاته ، واللغة العربية المبينة تبتهل الى الله في أن يكثر أمثاله من حماتها وأن يبارك لها في حياته .

(١) يراها القارىء منشورة في هذا الجزء مع كلمة الاستاذ البيطار .

بحر العوّام

فيما أصاب فيه العوام

نشر المجمع العلمي هذه الرسالة اللغوية النادرة لمؤلفها عالم الشام في عصره الشيخ محمد بن ابراهيم المعروف بابن الحنبلي الحلبي ، وقد جاء في الصفحة ١٠٧ منها ما نصه : (نرجو ممن يعثر من العلماء في حلب أو غيرها على نسخة أخرى من بحر العوام أن يتفضل بانباء المجمع بذلك) وقد أخبرنا العلامة الامير شكيب أرسلان أنه كان قد سمع لاول مرة باسم هذه الرسالة من الشيخ علي يوسف صاحب المؤيد ثم عثر عليها في خزانة كتب السيد عبد الخالق السادات الوفائية بمصر ، وكان قبل ذلك قد سأل الاب أنستاس الكرملي عنها ، فلهذه الرسالة اذن شقيقة في الخزائن الوفائية ، ثم علمنا بوجود شقيقتين أخريين في الخزانتين التركية والتيمورية ، فاجتمع لنا بذلك أربع شقائق .

وامير البيان يعتقد أننا في حاجة ماسة الى نشر مثل هذه الكتب التي تربط لغة الخلف بلغة السلف ، وان غير الفصحى أو اللغة المبينة من اللغيات لا يعد خطأ ، أقول : وقد كان العرب الفصحاء يتكلمون في الجاهلية وصدر الاسلام بها ، وما القراآت السبع أو السبعة الاحرف الا لهجات صحيحات أجاز النبي (ص) القراءة بها تسهيلا لنشر القرآن وتوسيعاً لنطاق البيان . هذا وان بقاء اللغيات على الالسنة الى يوم العرب هذا ، وهي ترجع الى قبائل عربية عريقة في الفصاحة ، لدليل مبين على نزول هذه القبائل في الاقطار التي يلهج أبناؤها بها ، فما كان صحيحاً فصيحاً منها حافظنا عليه ، وما كان غير ذلك طرحناه ولم نلتفت اليه ، مع أننا في استعمالنا للفصيح الصحيح من لغة العامة نكون قد قربنا بين لغتي الكتاب والخطاب ، فسهلنا لغتنا العربية على الابناء والغرباء ، وليس من المعقول والمقبول في شيء أن نهمل ألفاظ لغتنا وهي صحيحة ومأنوسة مستعملة ، ونبحث عن الفاظ غريبة ومهجورة مهملة .

مطبوعات حديثة

كتاب في الشطرنج ومنصوباته وملحه

لمؤلف مجهول اسمه

قد اعتنى بطبعه وتصحيحه نقلا عن نسخة وحيدة محفوظة في المتحف البريطاني

الأب فيليكس باريخا اليسوعي

طبع في مدينة مجريط بالاندلس سنة ١٩٣٥ م

قطع هذا الكتاب وسط ، وصفحاته خمسون ومئتان ، وفي خاتمته انه تم سنة خمس وخمسين وستمائة هجرية ، وهو مفتتح بمقدمة ضافية قد استغرقت منه تسع عشرة صفحة في حكم الشطرنج وحكمته وسبب وضعه وتعريف طبقات حذاقه والتفاوت في القيمة بين منصوباته ككون بيذقين خيراً من فيل ، والفرق بينه وبين النرد حكما وحكمة وفي المعاني الخطيرة التي يرمز بهما اليها من عقائد دينية وقواعد حربية ونواميس كونية ، وفي المقدمة من الشعر تسعة عشر بيتاً للأخطل وأبي تمام وابن أبي البغل وغيرهم في النرد والشطرنج ، كما في خاتمة الكتاب واحداً وعشرين بيتاً من الشعر الذي يكثر استشهاد أدباء الشطرنجيين به لموافقة معانيه لكثير من الاحوال التي قلما يخلو دست الشطرنج منها كقوله عند ضرورة المخاطرة :

لم يبقَ من طلب العلا   إلا التعرض للحتوف

وقول المتحير الذي خفي عليه وجه الصواب وضل طريق الظفر بقاء كثير من منصوباته :

سيوف لعمري يا لؤيٌّ بن غالب حدادٌ ولكن أين بالسيف ضاربُ

وبين المقدمة والخاتمة خمس عشرة ومئتان من صور رقعة الشطرنج مع بعض منصوباتها كأنها بين لاعبيها وقد وصلا الى حيث يتوقع كلاهما أو أحدهما أن تقع الواقعة وتكون القاضية وجهرتها متوجة بعناوين ترشد الى عاقبة الامر فيها بتسمية غالبها ومغلوبها .

والمؤلف يتبع كل صورة منها بفصل طويل تارة ويقصر طوراً حتى ينتهي بالقول الفصل على رأيه في التصرف بمنصوباتها للوصول الى ما تقتضيه أوضاعها من العواقب فيظهر على وقف العنوان من هو المغلوب ومن هو الغالب .

ومن قواعد الشطرنج في هذا الكتاب مما ليس بمتداول في هذا العهد ولا معروف أن فيله يمشي على مدى قطر ثلاث مربعات متصلات الاقطار فلا يتخطاها ولا يتقاصر عنها وان فرزانه لا يتجاوز مشياً وأكلا بيتاً واحداً على شرط ان يكون مما يلي مقره عن طريق الزاوية فلا يستطيع اختراق الاضلاع ولا سلطة له على ما يليها .

لغة الكتاب كأكثر الكتب العربية المؤلفة في ذلك القرن السابع للهجرة لم تسلم من تكلف السجع في صدر المقدمة ولم تبرأ من ألفاظ علمية مبتذلة كالتفسد والتصلح وايش ما لعب راجع الصفحات ١٧ و١٠٣ و١٦٤، على ان الكتاب يمتاز بقوة الحجة وسلطان المنطق في حسن التعليل الصادع بتحريم النرد ، كما يمتاز بذكر كثير من النصوص الواردة في شأن الشطرنج عن أعيان الثقات من كبار علماء الصحابة والتابعين والائمة . ومن مزايا الكتاب أنه جمع مما قيل في الشطرنج ما تفرق من الكتب المؤلفة قبله كمروج الذهب للمسعودي وكالفهرست لابن النديم وكلاهما من نخبة آثار القرن الرابع للهجرة ، ومن مزاياه بيان قواعد وأسرار شطرنجية خطيرة حفظها بعد أن ضاعت وكادت .

والاستاذ المستشرق المفضال الذي عني بتصحيح هذا الكتاب وطبعه أتبعه بكتابين ألفها بلغته الافرنجية في موضوع الشطرنج أعاد فيهما ما في الكتاب العربي من الصور الشطرنجية وهما يشتملان على أكثر من خمسمائة صفحة ، وقد نشر في ثانيهما صوراً شمسية لثلاث صفحات من المخطوط العربي المحفوظ في المتحف البريطاني ولم ينشرها في المطبوع العربي الذي هو أحق بها ، فعساه اذا أعاد طبعه ان ينشرها فيه ليكون قد جمع بين الاصل وفرعه ووضع مع الولد نموذج أمه ، على أن صفحة الكتاب الاولى الشمسية تشتمل على بيان مصطلحات شطرنجية تختص بالكتاب نفسه وهو خال منها لانها مكتوبة بقلم غير المؤلف ممن ملكوا ذلك الكتاب كما يظهر في توقيعه وطابع خاتمه هنالك على ظهر تلك الصفحة الاولى .

هذا ولا ريب في أن الاستاذ المستشرق المفضال عاني في الاعتناء بتصحيحه جهداً جاهدا ، يرى له مطالع الكتاب في كل صفحة منه شاهداً يدل على انه وفاها حقها من أعمال الفكر وانعام النظر تصريحاً بصحة أو تصحيحاً لخطأ أو استفهاماً عن مبهم او احالة على بحث له علاقة بما في تلك الصفحة ، فما من تصحيف او تحريف او سهو في الكتاب الا وتجد إشارة عليه بقلم ذلك الاستاذ الذي عني بتصحيحه اللهم الا القليل النادر كما في الصفحة السادسة والعشرين تحت صورة الرقعة الشطرنجية الثامنة حيث وقعت كلمة الشاه مكان كلمة الفرزان وفاته ان يشير اليها ، اما حسنات تصحيحه فانها تجمل مريد احصائها مبهوراً ، فشكراً له من ذي همة سمت به الى احياء هذا الكتاب الثمين بعد ان ظل ككنز دفين مئات من السنين .

عبد القادر المبارك



المحجة البيضاء

في صحة نعت المجموع بفعلاء

الجزء الثاني من البرهان الجلي على علم الكرملي لأمين خير الله

صفحاته ٨٤٤ مطبعة الترقي بدمشق ١٣٥٦ — ١٩٣٧

تختلف أنظار اللغويين اختلافاً بيناً في ناحيتين واضحتين : ناحية التشدد وناحية التساهل ، والغالب أن يكون المتشددون المتزمتون ضيقي دائرة المعرفة ، محرومين من رحابة الفكر والصدر ، فيهيجون لكل ما يرونه مخالفاً لمعرفتهم ، وكثيراً ما يؤيد ما خالفوه أو هاجوا من أجله علماء في اللغة وأئمة في النحو والبيان كما يغلب أن يكون المتساهلون أوسع اطلاعاً وأطول في البيان باعاً ، فيجرون على سلائقهم العربية وسجيتهم العلمية في الاشتقاق والتعريب وتسهيل دراسة العربية وتذليل أساليب البيان .

فمن فريق المتشددين الامام الكسائي وأبو هلال العسكري والحريري صاحب (درة الغواص في أوهام الخواص) ، والجواليقي صاحب (تكملة اصلاح ما تغلط فيه العامة)[1] وهاشم بن أحمد الحلبي مؤلف (اللحن الخفي) وابن بالي السبني وأبو بكر الاشبيلي وأمثالهم ، ومن الفريق الثاني المتساهل فيما لا يمس جوهر العربية ولا أساليب بيان العرب : الإمام الخفاجي فيما كتبه على درة الغواص ، ومحمد بن ابراهيم المعروف بابن الحنبلي الحلبي مؤلف كتاب (بحر العوّام فيما أصاب به العوام) والامام الزمخشري الذي يرى الاستشهاد بكلام

(١) نشره المجمع العلمي العربي مع كتاب بحر العوام مع تعليقات وتحقيقات لغوية .

فحول الشعراء وكبار الادباء والمحدثين من رواة اللغة ، ولذلك استشهد بالكثير من شعر المحدثين وهو على حق في ذلك ، لأنه ممن بلغ بهم توسعهم في العربية وتحققهم ببيانها مرتبة الاجتهاد ، ومثله في التساهل الامام محمد بن مالك فانه يرى الاستشهاد بالحديث مخالفاً للمتشددين الذين يمنعون ذلك بدون حق ولا هدى ولا كتاب مبين .

ونحن الآن في الكلام على كتاب (الحجة البيضاء) أمام متشدد ومتساهل ، والمتشدد هو الاب أنستاس الكرملي المعروف بأبحاثه في الالفاظ اللغوية وإرجاع بعضها الى اللغات السامية أو الاغريقية القديمة ، وقد رأى فيما اطلع عليه من كتب البلغاء ، أنه لا يصح نعت الجموع بفعلاء ، فلا يجوز لعربي أن يقول : كريات بيضاء ، ولا رياض فيحاء ، ولا صحف أو جرائد غراء ، بل يجب عليه أن يقول : كريات بيض ورياض فيح وجرائد غر ، وأما المتساهل في ذلك فهو الشيخ أمين ظاهر خير الله الشويري ، متابعاً كما يقول « للفصحاء الموثوق بصحة السنتهم الذين يحتج بأقوالهم » .

وليس من معاب على من احتذى حذوهم وفي كلامهم الكثير من ذلك الاسلوب الذي يأباه المانعون ، وقد استشهد لتأييد ما ذهب اليه بعشرين حجة وردت في كتب العرب مثل : الحمر الخشباء والكلم العوراء والهضاب الملساء والقبمة البيضاء والكتيبة الشهباء والعرب العرباء واخواتها من الحجج العشرين التي يرى القارئ تفصيلها في هذا الكتاب .

أما الحمر الخشباء فيقول الكرملي في تجويزها ان الخشباء منقولة الى الاسمية كما نقلوا الخضراء والسمراء والزرقاء ، ويقول الشويري انها صفة على ما يطرد في باب أفعل ، والحمر جمع حمار فجاز نعتها بفعلاء ، واذا كانت الحمر جمع تكسير وبمعنى جماعة جاز نعتها بخشباء على المعنى ، أما كون الخشباء منقولة الى الاسمية فصحيح لانها تجمع على أخاشب ، وما ذهب اليه الشويري صحيح لا غبار عليه لقوله تعالى في سورة الشعراء :

« ان هؤلاء لشرذمة قليلون » ، وقد استشهد بهذه الآية الاب الكرملي وقال ما نصه :

« فقد وصفها بالجمع لان مدلولها مجموع ويجوز كذلك أن نقول : شرذمة قليلة لان لفظها مفرد مؤنث » - ويرى الاستاذ الشويري وفي قوله هذا حجة له ، لان شرذمة لفظها مفرد ومعناها جمع ، والقرآن قد اختار المعنى على اللفظ فجاء (قليلون) نعتاً لشرذمة ولو اختار اللفظ لقال قليلة ، فعلى هذا يكون ما ذهب الشويري اليه صحيحاً من قوله (هضاب ملساء) ، لان معنى هضاب جمع ، وكل جمع مؤنث ، وكل مؤنث ينعت بالافراد ، فهضاب ملساء ومثلها قبعة بيضاء وكتيبة شهباء .

اما الاب انستاس فيقول :

هنالك فرق بين الجمع وبين اسم الجمع وشبهه ، فلو أتانا بشاهد مثل نساء سمراء لقلنا له أصبت ، لكنه جاء بألفاظ تحتمل الافراد والجمع فلم يفدنا الفائدة التي كنا نتوقعها .

والخلاصة ان المتشددين لا يقولون كالامام المبرد الا ثياب سود وخيل دُهم ، والمتساهلون كالاستاذ الشويري وكثير من كتاب العصر في يومنا هذا على ذلك لا يرون بأساً في نعت الجموع بفعلاء لا فرق بين الجموع وأسمائها وأشباهها ، ولعل كثرة الاستعمال في نظرهم مما يجعلها فصيحة فقد قال أئمة المعاني والبيان (حيث ذكر أهل اللغة الفصاحة فرادهم بها كثرة الاستعمال) .

وأختم كلمتي هذه بنصيحة أسديها للشيخ أمين ظاهر خير الله الشويري : أن يكف عن مجادلة الاب انستاس ومناظرته فانه يعتقد انه لم يناظر أحدا من علماء اللغة الا قتله (كما جاء في آخر المناظرة اللغوية الادبية ص ٩٤) وهي التي دارت رحاها بين الاساتذة المغربي والبستاني والكرملي ، ونشرتها في هذه الآونة مكتبة القدسي ، إذ يقول ناشر المناظرة : « بلغني ان الاب الكرملي إذا ذكر الاستاذ البستاني يترحم عليه ويقول : ان من

غرائب الاتفاق أن تدرك الاستاذ منيته عقب مناظرتي اياه بمدة يسيرة ، وكأنه رحمه الله انما مات متأثراً من صدمة الرد ، ومثله في ذلك الاساتذة جبر ضومط والاب منش الحلبي وأسعد خليل داغر ، فقد مات كل واحد منهم بعد مناظرتي إياه متأثرين بقوة الحجة ومفحم البرهان . »

« التنوخي »

* * *

مناظرة لغوية ادبية

بين الاساتذة

عبد الله البستاني   عبد القادر المغربي   أنستاس الكرملي

في ٩٦ صفحة من القطع الوسط

للشاب الاديب السيد حسام الدين القدسي همم مشكورة في طبع الكتب النافعة قديمها وحديثها ، وآخر ما أتحف المكتبة العربية به ، طبعه هذه الرسالة طبعاً نظيفاً على ورق صقيل .

ولا بد من كلمة تمهيدية يعرف بها القارئ الظرف الذي نشرت فيه هذه المناظرات ، فقد أعاد الناشر إلى الذهن ذكر معركة حامية قامت منذ ستة عشر عاماً بين الاساتذة المذكورين .

كان المجمع العلمي العربي إذ ذاك في أول نشأته وعنفوان نشاطه ، وكان قد أحدث في الشام اهتماماً خاصاً باللغة العربية وجلب اليها الأنظار بما نشر من بحوث مفيدة يحاضر فيها أعضاؤه ، ومقالات نافعة تعلم الناس وتقوّم من ألسنتهم ما فيها من عوج ؛ كان المجمع يومئذ معقد الامال ومطمح الانظار ومحط العناية من مختلف الطبقات الشعبية والحكومية ، فاستطاع أن يرفع مستوى اللغة العربية والتاريخ القومي في البلاد وعجل نضج الحركة الفكرية

فيها . وكان الادباء والعلماء الذين اشرأبت أعناقهم وتطلعت نفوسهم ليحوزوا شرف العضوية فيه عدداً غير قليل . ولقي المجمع من هذا النفر عنتاً : لانهم لما أخفقوا ناصبوه العداء ، فشرعوا أقلامهم وأطالوا ألسنتهم في نقد ما يضع من مصطلحات أو يصلح من غلطات ، نقداً كان نصيب الغرض فيه أوفى من نصيب الحق .

من هؤلاء النفر : الشيخ عبد الله البستاني الذي تشغل مقالاته الاربع في نقد (عثرات الاقلام) التي نشرها المجمع ثلثي الرسالة ، والذي قال فيه الاستاذ المغربي : « أراد أن يهدم بناء مقالاتنا (عثرات الأقلام) ويتخذ من أنقاضها سلالم يرتقي عليها الى قمة الشهرة واحتكار البراعة في اللغة العربية »[1] نقد الاستاذ البستاني في مقالته الاولى كلمات وردت في نشرة للمجمع وهذه هي (حبّذ يحبذ ، واطن يواطن ، رجل بكل معنى الكلمة ، داخل يداخل ، حايد ، تأكد ، انتزه ، عناير) وقد تكلف لنقده هذا غاية التكلف ، حتى كان التعقيد والتقعير يشينان أكثر المقال ، وكان في حظره استعمال أكثر تلك الكلمات قد حجّر واسعاً ، الا أنه كان عفيف اللسان ، لم يتعرض لشخص معين بسوء ، وكان الى جانب الادب أقرب منه الى جانب الحق .

ومقالته الثانية رد بها على الشيخ المغربي الذي كان نقده لاذعاً[2] وهي تشهد بأن البستاني غير عاجز في ميدان الرد بل هو من فرسانه المجلين .

لكنه يبدو في رده على الكرملي صائلا سليط اللسان لاذع التبكيت ، يبسط من كلامه ما لا يجمل ، فهو يقول له ص ٧٨ « يا محترم ، من أعظم البلايا أن تكون لي مناظراً » ويقول ص ٧٩ « ومن العجب أنك تتولى القضاء ، وانت لا تدري أين تضع الباء » و « لم تحرز من آداب اللغة الا شيئاً يسيراً لا تستدر منه جدوى ولا يسهل عليك تأليف عبارة خالية من حزازة فتلمس كتاباً واضح التعبير وتخرج به على اديب .. وتدرب في آداب البحث وتبصر في كل ما تتلقنه الخ ... »

(١) ص ١٧ (٢) ص ١٨ فما بعد .

والذي يخلص به القارئ من مقالاته : الاعتقاد بسعة اطلاعه وتمكنه من علوم اللغة ، وبرشاقة اساليبه ما لم يتكلف ، فاذا فعل فهناك ما شئت من غموض او ـ على رأي الاستاذ المغربي ـ من مماظلة وعسلطة .

بقي شيء واحد يؤخذ على الاستاذ المغربي وهو ان مذهبه في الالفاظ الدخيلة والعامية مذهب الإباحيين لا يحظر منها شيئاً ، قال حاكياً رأي اعضاء المجمع ثم رأيه الخاص فيها : « فهم[1] يرفضون قبول كل كلمة اعجمية ويبحثون عن اخرى سواها من اللغة العربية يقوم مقامها ، حتى اذا لم يجدوا قبلوا الاعجمية بعد إفراغها في القوالب العربية . هـذا رأي رفاقي ورأي الكثيرين . اما رايي في أمثال تلك الكلمات فهو غير رأيهم : لاني لا ارى مانعاً يمنع من استعمال المعرب او الدخيل اذا شاع ...

وقد اطلعت منذ ايام على كتاب معرب بقلم كاتب من اشهر كتاب مصر فرايت فيه كلمات وتراكيب دخيلة ما كنت احسب ان يجري بها قلمه ، وقد اراد اعضاء مجمعنا ان يعنوها من عثرات قلمه وينبهوا اليها ، لكني ضننت بها عن هذا الموقف وخبأتها للاستشهاد بها على صحة رايي وهو وجوب التسامح في الكلمات الدخيلة »

والذي نستغربه من مثل الاستاذ المغربي ان ينكر على البستاني تصحيحه أخطاء وردت في معجم (اقرب الموارد) وهو ما كان حقيقاً ان يحمده عليه غاية الحمد ، فليس على الارض اشنع من غلط في معجم ، وهو اذا وجد زلة من كاتب معروف يجعل زلته مذهباً في الصواب جديداً يجب اعتماده في اللغة كأن قائله امرؤ القيس او علي بن ابي طالب ، وهو تساهل في الاستاذ مشهور والامانة تقضي عليه ان يقول للمخطئ اخطأت ، ولو سار الناس على مذهبه لكان لنا في كل عشرين سنة لغة جديدة ، ونحمد الله على ان الناس في هذه النهضة ماضون قدماً في احياء لغتنا الكريمة ونقض ما علق بها من دخيل

(١) ص ٢١

مرذول او عامي ساقط ، شأن كل الامم الحية ذوات الكرامة والعزة ، بل ان كثيراً ليبالغون فيفضلون الاصطلاح القديم المهجوز على العربي المحدث في زماننا مهما كان الاول ثقيلا والثاني رشيقاً .

واما الاب الكرملي فقد عاب على البستاني تشدداته ، فاستعرض كل ما قال المتناظران ، فصوّب من كلامهما ما صوّب وردّ ما وجده خليقاً بالرد .

ثم ختم الناشر الرسالة بكلمة عادلة لامير البيان شكيب ارسلان قال فيها : (لكل من استاذنا البستاني والاستاذ المغربي والاب الكرملي وجهة فيما يقول ، وهذه مسائل قيل فيها الشيء وعكسه كثيراً ، وما اوسع ابواب العربية لمن عرفها .) واظن ان هذا قول فصل في اكثر المناظرات اللغوية .

* * *

قيمة هذه المناظرة والبحوث التي دارت فيها تاريخية : اذ انها تطلعنا على ما كان يشتغل به بعض اللغويين قبل ستة عشر عاماً ، وترينا كيف كانوا يتبادلون النظر ، والا فالجدوى التي يخرج بها القارئ اليوم من تلاوة الرسالة ضئيلة جداً اذا اهملنا النظرة التاريخية .

سعيد الافغاني

* * *

الحياة الزراعية

مجلة زراعية اقتصادية مصورة

رئيس تحريرها : المهندس الزراعي طلعت الخربوطلي

سنتها عشرة اعداد موقتاً — مطبعة الترقي بدمشق

وصل الينا الجزء الثاني من هذه المجلة الزراعية المفيدة التي تصدرها الجمعية الزراعية السورية التي تألفت في دمشق سنة ١٣٥٦ للهجرة (١٩٣٧ م) ويرصد ريعها للجمعية ، وقد ظهرت هذه المجلة في زمن تشتد حاجة البلاد الشامية فيه

الي امثالها لان نقدم الزراعة والصناعة مما يعين على تحسن الاحوال الاقتصادية وتخفيف وطأة هذه الازمة الشاملة .

ان من وضوح الدلالة على مبلغ إفادة هذه المجلة أن يلقي القارىء نظرة على فهرسها ففيه أبحاث عن غابات منطقة الزوية بحوران ، وعن الروائح العطرية والصابون المطيّب ، وعن الازهار والحدائق ، وعن البزور القوية الانتاج ، وعن التقليم ، وعن منّ التفاح وغيره مما تمس اليه حاجة الفلاح السوري ، ولذلك نرى أن هذه الجمية الزراعية الفنية من أولى الجمعيات الشامية في موازرة الحكومة والامة ، وقد سدت مجلتها هذه النافعة في بناء نهضتنا الحديثة ثغراً لا يسده غيرها ، فنتمنى لها حياة طويلة طيبة ونجاحاً كاملا ورواجاً شاملا .

« التنوخي »

* * *

كتاب المثنّى

لابي الطيّب اللغويّ

لدى المجمع العلمي مخطوطة قديمة من كتاب المثنى لابي الطيب اللغويّ صاحب مراتب النحويين ، وقد عزم المجمع على نشرها بعد تصحيحها وتحقيقها ، فهو لذلك يرجو ممن يعلم من علماء العرب والعجم بوجود نسخة ثانية من هذا الكتاب في خزائن الشرق والغرب أن يكتب الى المجمع بذلك ليسعى في تصويرها أو نسخها لكيا يتمكن بمعارضة النسختين ان يخرج الكتاب للناس صحيحاً منقحاً .



المجلد الخامس عشر — الجزء ١١ و ١٢

مجلة المجمع العلمي العربي

أنشئت سنة ١٣٣٩ هـ الموافقة لسنة ١٩٢١ م
تنشر في دمشق مرة في الشهر

تشرين الثاني و كانون الأول سنة ١٩٣٧م
شعبان و رمضان سنة ١٣٥٦ هـ

دمشق :
المجمع العلمي العربي

قيمة الاشتراك السنوي { في سورية ولبنان ١٥٠ قرشاً سورياً
الدفع مقدماً { وفي جميع الاقطار ٤٠ فرنكا

مجاميع المجلة عن السنين الماضية

من السنة الاولى الى السادسة ، ثمن كل سنة منها		في الداخل	٢٥٠
« السابعة الى الثانية عشرة	«	«	٣٠٠
« الاولى الى السادسة	«	في الخارج	٤٠٠
« السابعة الى الثالثة عشرة	«	«	٣٢٥

مطبعة ابن زيدون * بدمشق

نهضة العرب العلمية

في القرن الأخير

محاضرة الأمير شكيب أرسلان

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

لقد تكلمنا منذ أيام في النادي العربي عن نهضة العرب السياسية وسيرهم في طريق الاتحاد فيما بينهم اقتداء بغيرهم من الامم اللائي كن مفككات مبعثرات ، فما زلن يسعين في الانضمام إلى أن أصبحن كتلة واحدة . ونحن نتكلم الآن عن نهضة العرب العلمية التي هي في الواقع أساس النهضة السياسية مختارين لهذه المحاضرة مكان المجمع العلمي[1] الذي هو المنبر الطبيعي للمباحث العلمية كما اخترنا النادي العربي منبراً للكلام عن الوحدة العربية التي هي من مباحثه ، وإنما كان الفرق بين البحثين أن الواحد منهما سياسي صرف لا يجوز الخوض فيه إلا بالمقدار الذي تسمح به المصلحة ، وأن الآخر علمي بحت يقدر أن يستقصي فيه الباحث ما شاء دون أن يتعرض لمحذور أو يعرض امته لضرر ، وبهذه المناسبة أعلن أني آسف بل جد آسف من أن أرى بعض اخواننا معتقدين

(1) من غريب الاتفاق أن يلقي الامير العلامة هذه المحاضرة الجامعة في المجمع العلمي في المكان الذي اجتمع فيه لأول مرة في مقتبل شبابه بمفتي دمشق الشيخ محمد المنيني الذي كان يقطن يومئذ في المدرسة العادلية التي كان له حق التولية عليها يومئذ .

أن الانسان إذا حاضر في باب السياسة وجب عليه أن يفرغ جعبته من أولها إلى آخرها ، وأن يجهر بكل ما يدور في خلده كما لو حاضر في باب العلم ، فهذا لا شك مذهب من يسميه الافرنج « بالولد الهائل » ومن ليس في الواقع جديراً بأن يطرق باب السياسة أصلاً بل بين هذا والسياسة ما بين المشرق والمغرب ، فنحن لا نرضى أن نكون من الأطفال الهائلين ولا من الذين لا يعرفون الى أين يذهب الكلام ، بل نحن ولله الحمد من أمة اشتهرت بالمرونة والدهاء وسرعة اللحظ وقد جاء في أمثالها : اللبيب من الاشارة يفهم ، ولقد كان هادينا الأعظم صلى الله عليه وسلم إذا أراد غزوة ورّى بغيرها ، ومنا الذي يقول :

ومن لم يصانع في امور كثيرة يضرس بانياب ويوطأ بمنسم

وقائل هذا البيت هو الذي قال فيه سيدنا عمر رضي الله عنه أنه أشعر العرب لقوله : ومن ومن ، ثم أبدأ بالكلام عن نهضة العرب العلمية فأقول :

منذ عشر سنوات (أي سنة ١٩٢٧) اقترح علي الطيب الذكر الاستاذ يعقوب صروف صاحب مجلة المقتطف الذي انتهت اليه رئاسة المجلات العلمية أن أكتب الى المقتطف شيئاً في موضوع النهضة الشرقية في هذه الخمسين سنة الأخيرة ، فكتبت يومئذ فصلاً ظهر في أجزاء المقتطف من تلك السنة وراق العلامة المشار اليه كثيراً وقد بدأته بما يلي :

لا حاجة بنا الى القول بأن أجلى مجالي هذه النهضة كان في العلم والتعليم ، وعندي انه لانهضة للامم سوى النهضة العلمية فاذا وجدت هذه جاءت سائر النهضات من سياسية وعسكرية واجتماعية واقتصادية الخ ... آخذاً بعضها برقاب بعض . فاذا قلنا إن الشرق الأدنى نهض نهضة علمية كفينا تعداد سائر مظاهر نهوضه ومعارج رقيه ، لأن العلم وحده هو المفتاح وبه وحده الدخول إلى داخل البناء ، وكل نهضة لا يكون ظهيرها العلم فما هي إلا ساعة وتضمحل ؛ وقد يقال ان نهضة شرقنا هذه ضئيلة لا تستحق أن تذكر بالقياس إلى معالي الامم الراقية ، واننا لا نبرح متخلفين بمسافة شاسعة عن أمم أوربة وأميركة واليابان ، فلماذا نشغل أنفسنا بما لا يشغل حيزاً في التاريخ العام ؟ وعلى هذا نجاوب أنه ليس العلم متعلقاً بالكمال

وحده ، ولا البحث موقوفاً دائماً على ما بهر النهى وبلغ سدرة المنتهى ، وإنما العلم هو ما تناول الدرجات كلها الدنيا منها والقصوى ، والبحث هو الذي به توزن مقادير الاشياء وتحدد نسبة بعضها إلى بعض ونسبتها إلى الوقت ، ثم اننا إذا تحرينا الحقيقة وجدنا الشرق العربي قد اجتاز في هذه الخمسين سنة في طريق العلم والحضارة الحديثة ما لم يتهيأ لاوربة أن تجتازه قبلاً في أطول جداً من هذا الردح من الدهر ، وذلك انه من الطبيعي أن يسهل على المتأخر ما لا يسهل على المتقدم ، لأن المتقدم قد يضطر أن يمهد الطريق ويسير ، وأما المتأخر فما عليه إلا أن يلحقه ويسير على طريق مذلل أمامه .

محمد علي الكبير مؤسس النهضة

فالنهضة الشرقية العربية — نسميها بالعربية إخراجاً لما سواها من نهضات الشرق كنهضة اليابان والصين في الشرق الادنى بحذائنا — قد بدأت في الواقع منذ أكثر من مائة سنة لعهد محمد علي عزيز مصر فهو أول من لحظ الخطر الحائق من جراء جموده على أساليب العمران القديمة وجعل نصب عينيه حديثاً الغرب في أساليبه الجديدة حتى يتأتى للشرق أن يقاتل الغرب بسلاحه ويدفعه عنه ويستقل بنفسه ، إذ كانت سنة الله منذ وجد العمران على سطح هذه الكرة أنه كلما تقوى جانب منها سطا على الآخر واجتاحه وضرب عليه الذلة والمسكنة .

فمحمد علي هو المؤسس الحقيقي لهذه النهضة الشرقية العربية ليس بوادي النيل فحسب بل في البلاد التي تجاور هذا الوادي المبارك وفي مقدمتها سورية ، وأول ما استنشق السوريون ريح الحضارة الحديثة إنما كان في زمن محمد علي وفي زمن غزاة ولده ابراهيم باشا للشام ، ثم انكفأ ابراهيم باشا إلى مصر سنة ١٨٤٠ وبقيت في سورية آثار الانتباه ونزعة التجدد ، وجد السوريون لا سيما أهل الساحل منهم ينشدون أسباب المدنية الغربية لما رأوا فيها من القوة والرفاهية ، وأنس المرسلون الاميركيون هذا الاستعداد في أهل سورية فأسسوا في بيروت كليتهم

الشهيرة التي كانت النبراس الاول الذي استضاءت به سورية ، ولا يزال هذا النبراس يزهر في آفاق الشرق الى يومنا هذا . ورأت امم اخرى (كالفرنسيين والالمان والطليان والروس) ان ارض سورية قابلة جداً لبذور المعارف فبثوا فيها المدارس والكتاتيب وكل ذلك كان يبدأ في بيروت ثغر الشام البسام ، ففي بيروت والحق يقال ابتزغ زرع العلم العصري وأخرج شطأه ثم أنبت في جميع الشامات ثم فيما جاورها واستغلظ واستوى على سوقه يعجب حتى الزراع الاوربيين انفسهم ، واضطرت الدولة العثمانية ان تفتح المكاتب الرشدية والاعدادية في سورية ، وأن تقبل كثيرين من شبانها في مكاتبها العالية في القسطنطينية فتخرج فيها ألوف من الناشئة منهم من تقلدوا مناصب ملكية أو عدلية ، ومنهم أطباء وصيادلة ، ومنهم ضباط نبغوا في الفنون العسكرية وامتازوا بين الأقران . ان ضباط العرب في العراق وسورية واليمن كلهم ممن تخرج في مكتب (بانغالتي) في الاستانة ، وقد يزيدون على ثلاثة آلاف ضابط فيما يقال .

ومع ان النهضة العلمية في مصر لم يكن الاصل فيها لا الكلية الاميركية ولا الكلية اليسوعية في بيروت ولا مكاتب الدولة في الاستانة ، لا ينكران مصر كانت ميداناً لجياد القرائح السورية ، وأن أنبغ الذين تخرجوا في بيروت إنما ظهروا واشتهروا وتعلقت قتاديلهم بمصر ؛ هذا كما ان لمصر على الشام فضل تخريج عدد لا يحصر من أبناء هذه في العلوم اللغوية والشرعية بالجامع الازهر وتخريج عدد كبير من أطباء سورية بالقصر العيني ، فما زال كل من القطرين المصري والشامي يشد الواحد منهما الآخر في كل ضرب من ضروب الرقي العقلي ، وقلما جد في أحدهما شيء إلا سمعت رجع صداه في الآخر . على ان النهضة الشرقية العربية وان كان قد ذر قرنها منذ قرن فأكثر لم تسر هذا السير الحثيث إلا في الخمسين سنة الاخيرة التي شهدها كاتب هذه الاحرف بجميع صفحاتها ، وذلك لاني بدأت بالكتابة في الصحف وبمرافقة الحركة العلمية في سيرها منذ ٥٢ سنة متوالية ، فلي الحق إذاً بأن أدعي معرفة تاريخ هذه النهضة وما دخل فيه من التطورات على قدر ما يستطيع خادم امين للعلم زاول عمله في

مكافحة الجهل طوال مدة خمسين سنة دون أن يتخلف يوماً واحداً .

الصحافة

لا نزاع في ان الصحافة العربية قد كانت من أقوى عوامل هذه النهضة بما أثارته من الحركة الفكرية ونقلت من أخبار الغرب الناهض الى أهل الشرق النائم ، وقد كان بحسب معلوماتي ، وربما أكون مخطئاً في بعضها ، أول جريدة عربية صدرت في الشرق جريدة الوقائع المصرية بعهد محمد علي ، ولكن بقيت سورية مدة طويلة لا تصدر فيها جريدة ، ويقال ان اول جريدة صدرت في بلادنا هي جريدة « حديقة الاخبار » أنشأها خليل افندي الخوري من شعراء لبنان في وقته وذلك سنة ١٧٦٠ ، ثم اصدر المعلم بطرس البستاني الشهير نشرات وطنية في بيروت لذلك العهد ، ولم يلبث ان نشر جريدة اسبوعية باسم الجنة ، ثم جريدة يومية باسم الجنينة ثم مجلة شهرية باسم الجنان ، وقد التزم هذه المادة في التسمية لمناسبتها مع اسمه « البستاني » ، و كان اليسوعيون قد أصدروا في بيروت جريدة باسم البشير تغلب عليها المباحث الدينية الكاثوليكية ، ثم أصدر القس لويس الصابونجي جريدة النحلة ، واصدر غيره جريدة اسمها النجاح ، واصدر الامريكيون جريدة اسمها النشرة الاسبوعية ، ثم تحرك المسلمون فاصدروا جريدة سموها ثمرات الفنون ، وكانت تصدر بادارة الشيخ عبد القادر القباني ، وقد تولى تحريرها في البداية العلامة الشيخ يوسف الاسير ثم خلفه عليها العلامة الشيخ ابراهيم الاحدب الطرابلسي ، وهذا كله كان بين ١٨٦٠ و١٨٨٠ اي في مدة عشرين سنة ، فوجدت في بيروت في ذلك العهد عدة مطابع ، وصارت تطبع الكتب العربية بعد ان كان طبع الكتب العربية منحصراً في مطبعة بولاق المصرية وغيرها من مطابع مصر ، وكانت قد صدرت في الاستانة في اثناء حرب القريم سنة ١٨٥٥ جريدة مرآة الاحوال وذلك باسم الدولة وتولى تحريرها رزق الله حسون الكاتب الشهير ، وقد وقعت إلي عدة نسخ كانت باقية عندنا من تلك الجريدة فيها اخبار حرب القريم

وغيرها من الاخبار ، ومما اتذكره انه كان عند ذكر خديوي مصر يلقبه بسعادة عزيز مصر ، واظن ان جريدة مرآة الاحوال هذه هي الجريدة العربية الثانية بعد تقويم الوقائع المصرية ، وقد بقيت تصدر في عاصمة السلطنة العثمانية عدة سنوات الى ان فر رزق الله حسون من الاستانة الى اوربة على اثر حادثة جرت معه ، وقيل فيها انه اختلس مالاً للدولة فلاذ بالفرار ، وكان فارس احمد فارس الشدياق في باريس فقدم الى الاستانة وانشأ جريدة « الجوائب » المشهورة فكانت في وقتها أشهر جريدة عربية في العالم ، وكان لها مشتركون في جميع الاقطار الاسلامية ، نظراً لبراعة كاتبها احمد فارس المعدود من اكبر كتاب القرون الاخيرة ؛ واما رزق الله حسون فبعد ان فر الى اوربة نشر كتاباً تحت عنوان « النفثات » نال فيه من الدولة العثمانية ، ومن صاحب الجوائب ، فاشار هذا إلى كتاب النفثات بقوله : « كان حسون لصاً وله سرقات ، فانقلب صلاً وله نفثات » .

واظنني غير مخطئ اذا قلت انه لذلك العهد او بعده بقليل ظهرت جريدة في تونس اسمها « الرائد التونسي » وظهرت جريدة أخرى في مصر باسم وادي النيل ، وربما يكون قد صدر في مصر جرائد أخرى لم أسمع بها ، ولست محاولا في هذه العجالة الاحاطة باسماء جميع الجرائد العربية التي صدرت وتواريخ صدورها ، فما انا أذكر الان اشهرها على سبيل التمثيل وأقول : انه لما انتشرت جريدة الجوائب بمكان احمد فارس من علم اللغة وبراعة الانشاء وسعة المدارك كانت عاملاً قوياً من عوامل النهضة العربية الادبية ، وصار صاحبها يطبع في الاستانة من نفائس الكتب العربية التي كانت مجهولة ، والتي اطلع عليها في خزائن كتب القسطنطينية ما اعجب به العالم العربي كله لا سيما انه نشرها بالطبع الجميل ، وربما كانت خدمته للثقافة العربية بهذه المطبوعات في الدرجة الثانية عن خدمة مطبعة بولاق ، واني قد ادركت ، وانا ابن ثلاث عشرة سنة أو أربع عشرة سنة ، عهد احمد فارس في اواخر عمره وكان لا يزال ، وقد بلغ من العمر عتيا ، يخدم هذه اللغة الشريفة التي كان من اعلامها ، ومن شاء ان يعلم مدى براعة احمد فارس ومبلغ بلائه في سبيل اللغة العربية والوطن

العربي ، فليراجع مجموعة كنز الرغائب في منتخبات الجوائب فهي كتاب يحتوي على سبعة مجلدات لا يمكن أن يستغني عنه من أراد الاطلاع على الحركة العلمية العربية والحركة السياسية العالمية بين ١٧٦٠ — ١٨٨٠ .

الحركة العلمية

ولنعد الى سير الحركة العلمية في سورية فنقول : انه إلى حد سنة ١٨٨٠ كانت الجرائد منحصرة في بيروت لا تتعداها إلى غيرها من مدن سورية ، ولم يكن في دمشق سوى جريدة رسمية للولاية باسم (سورية) وبعد ذلك بكثير أصدر مصطفى واصف جريدة اسمها (الشام) ، وبعده أصدر الاستاذ كرد علي جريدة سياسية في دمشق اسمها (المقتبس) ، وكذلك كانت جريدة رسمية لولاية حلب باسم (الفرات) ، وكل من جريدتي سورية والفرات كان نصفها بالتركي والنصف الآخر بالعربي وقلما كانت تنشر شيئاً خارجاً عن الأخبار الرسمية . وكانت في بغداد جريدة رسمية اسمها (الزوراء) على هذا النمط أيضاً . وأما بيروت فكانت لا تزال على تقدمها في طريق العلم والعرفان ، وأول مدرسة داخلية في بيروت كانت المدرسة الوطنية التي أسسها المعلم بطرس البستاني ثم أخذت كل طائفة من الطوائف المختلفة التي في ساحل سورية تؤسس مدرسة داخلية في بيروت ، فكانت للروم الكاثوليك مدرسة يقال لها (البطريركية) وللموارنة مدرسة يقال لها (الحكمة) وللمسلمين مدرسة يقال لها المدرسة (السلطانية) تولى ادارتها مدة من الزمن العلامة الشيخ حسين الجسر الطرابلسي صاحب الرسالة الحميدية في التأليف بين العلم والدين ، وكان اليهود أيضاً أسسوا مدرسة داخلية باسم المدرسة (الاسرائيلية) كان يديرها زاكي كوهين .

وكان اليسوعيون قد أنشأوا الكلية (اليسوعية) مناظرة للكلية الاميركية ، وكان في لبنان مدرسة فرنسية في كسروان يقال لها (مدرسة عينطورة) انتفع منها كثير ممن اشتهروا في اتقان اللغة الفرنسية ، ثم شرع أساقفة الموارنة

يؤسسون مدارس لأبناء طائفتهم فكانت مدرسة (قرنة شهوان) ومدرسة (غزير) لبني زوين ومدارس أخرى متعددة ، وقد كان للموارنة من قبل هذا مدارس قديمة أكليريكية مثل مدرسة عين ورقة ومدرسة مارعبدا هرهزيا ومدرسة مار يوحنا مارون ، وكان للكاثوليك مدرسة في الشوير ، وقد اطلعت على مطبوعات قديمة ترجع إلى مئة سنة أو أكثر جرى طبعها في كسروان بمطابع للموارنة منها مطبعة دير سيدة طاميش ، وكان الموارنة من القديم يطبعون بالعربية والسريانية .

ولا يجوز أن ننسى المدرسة التي قام بانشائها الامير ملحم أرسلان بمساعدة سعيد بك تلحوق لطائفة الدروز في قرية عبية ، فقد كانت من أقدم مدارس لبنان يرجع تأسيسها الى سنة ١٨٦٢ .

وكانت تقبل الطلبة مجاناً لاعتمادها في نفقاتها على الاوقاف التي ألحقها بها الأمير المشار اليه ، ولما تولى قائمقامية الشوف ابن عمه الامير مصطفى زاد الاعتناء بها وانتدب لها من الأساتذة مثل العلامة الشيخ أحمد عباس البيروتي وأمثاله ، وهي هي نفس المدرسة التي يشرف على ادارتها الآن الاستاذ عارف النكدي مدير العدلية في الدولة السورية بما اشتهر به من الدراية والأمانة وعلو الهمة .

ثم نقول : انه كان ازدياد عدد الجرائد متساوقاً مع ازدياد عدد المدارس فظهرت في بيروت بعد الجرائد المتقدم ذكرها جريدة لسان الحال لصاحبها خليل سركيس وجريدة التقدم التي كان يتولى تحريرها أديب اسحق الكاتب المشهور في وقته ، وجريدة المصباح التي أنشأها المطران يوسف الدبس مؤسس مدرسة الحكمة ، وعهد بإدارتها وتحريرها إلى نقولا أفندي النقاش من أعضاء مجلس الامة العثماني ؛ وإلى بولس زين من ادباء الموارنة ، وكانت مجلة المقتطف قد صدرت في بيروت لصاحبيها العلامتين الدكتور يعقوب صروف والدكتور فارس نمر ومن أول نشأتها كانت مجلة راقية حافلة بالفوائد العلمية والصناعية والتاريخية واللغوية .

ومما لا جدال فيه ان للمقتطف أثراً بليغاً في عموم النهضة العربية ولاينكره إلا كل مكابر - ومن مساعي العلامتين الشهيرين صروف ونمر تأسيس مجمع علمي

في بيروت سموه المجمع العلمي الشرقي قد ضم نخبة العلماء والادباء الذين كان يشار اليهم بالبنان في ذلك الوقت ، ولم يكن هذا المجمع أول مجمع علمي في بيروت بل قد سبقه جمعية علمية تأسست قبل ذلك بنحو من عشرين سنة ، كان رئيسها الأمير محمد الأمين أرسلان ، وكان من أعضائها الشيخ يوسف الأسير والشيخ ابراهيم الأحدب والشيخ ناصيف اليازجي والمعلم بطرس البستاني صاحب دائرة المعارف والسيد حسين بيهم وسليم أفندي رمضان وغيرهم من علماء ذلك الوقت وأدبائه .

وفي نواحي سنة ١٨٨٤ فيما أتذكر كان الشيخ عبد المجيد الخاني الاديب الدمشقي البارع جاء إلى بيروت فذكر ما رآه فيها من الرقي الفكري وسرد اسماء جرائدها نظماً فقال :

ثمرات مقتطف الجنان بشيرها   بلسان مصباح التقدم قائلُ
ظلّ المعارف وارف في أرض بيرو   ت ورهط الفضل فيها قائلُ(١)

ثم أنشأ علي بك ناصر الدين مجلة اسمها الصفاء صارت فيما بعد جريدة سياسية ولا تزال إلى هذا اليوم قائمة حق القيام بخدمة العلم والادب ، وقد كان لي فيها أول مقالة صدرت من قلمي وذلك سنة ١٨٨٥ ، وأصدر عبدالقادر افندي الدنا جريدة باسم بيروت كان يكتب فيها الاستاذ البليغ السيد مرتضى الجزائري ابن أخي المغفور له الامير عبد القادر .

ثمانون جريدة في سورية

ولكن عدد الجرائد لم يزدد هذا الازدياد الرائع إلا بعد إعلان الدستور العثماني ، ومن قبله صدرت جريدة طرابلس التي كان ينشئها الشيخ حسين الجسر ، ولم يكن جريدة سواها تصدر في غير بيروت من مدن سورية إلا انه لما اعلن الدستور العثماني وتقررت حرية الصحافة أخذت الجرائد تنتشر بسرعة عظيمة فلما نشبت الحرب الكبرى كان ينشر في سورية وفلسطين ثمانون جريدة

(١) الاولى من القول والثانية من القيلولة .

موزعة بين بيروت ولبنان ودمشق وطرابلس واللاذقية وحمص وحماة وحلب وصيدا وحيفا ويافا والقدس ، وكانت تظهر في هذه البلاد مجلات شهرية واسبوعية لا تقل عن بضع عشرة مجلة ، ولا نجد لزوماً لسرد أسماء جميع هذه الجرائد وهذه المجلات . وهذا أول دليل على سرعة الرقي العلمي في سورية ، وليس في الكلام أفصح من الأرقام ، فوفرة الجرائد دليل على وفرة عدد القراء ، ووفرة عدد القراء دليل على صدق عمل المدارس ، نعم انه لا يزال عدد الاميين كثيراً في هذه البلاد وربما بلغ مع الأسف ٦٠ بالمئة ، ولكن المظنون بحسب ما نراه من إقبال الأهلين على تعليم أبنائهم أنه لا يمضي عشر سنوات حتى ينزل عدد الاميين الى ٢٠ بالمائة . وقد كان في بيروت بضع عشرة مطبعة فتضاعف هذا العدد مرتين وثلاثاً ، وتأسست مطابع كثيرة في سائر المدن السورية ، وليس عمل هذه المطابع كله منحصراً في طبع الجرائد بل هي تقوم بطبع الكتب التي لا تطبع إلا إذا كان أصحاب المطابع يجدون لها عدداً كافياً من المشترين . وان مكانة الصحافة الآن في سورية ولبنان بالقياس إلى عدد أهلها لا تقل عن مكانة الصحافة في اوربة ، فاما في مصر فما لاشك فيه ان الصحافة أرقى منها في سورية لأن ثروة مصر أعظم من ثروة سورية بكثير ، وقد كان في أثناء ثورة عرابي باشا أي سنة ١٨٨٢ يصدر في مصر بضع جرائد لا غير منها الاهرام واللطائف والمفيد وغيرها ، فما زال عدد الجرائد يرتقي إلى أن تضاعف مراراً ، وان بعض جرائدها اليومية تصدر بثماني صفحات أو ست عشرة صفحة . ومنها جرائد مصورة كثيرة وربما تطبع الواحدة من جرائد مصر الكبرى من ٣٠ إلى ٤٠ الف نسخة وقد أكد لي أحد الأخباريين الاوربيين الذين يراسلون الاهرام من امهات الجرائد المصرية أن هذه الجريدة لو وضعت في جانب صحف باريس في الاتقان وسعة النفقات وكثرة القراء لكانت معادلة لأحسنها .

ولما كانت الامثال أحسن مظهر لحقائق الاشياء وأبلغ مؤثر في النفوس رأيت الآن إيراد مثال وقع معي ، وكنت قد ذكرته في مجلة المقتطف ، ومنه

يتبين الفرق المائل بين حالة الصحافة في مصر منذ ٤٠ سنة وحالتها منذ عشرين سنة :

قلت في المقتطف : اني كنت زرت مصر سنة ١٨٩٠ م و كنا نجتمع في مجلس الامام الشيخ محمد عبده ، وأكثر ما كنا نسمر عند سعد باشا زغلول وهو يومئذ سعد أفندي زغلول وكان من المحامين المشهورين بمصر ، وكان ينتاب تلك الحلقة شيخ شخت الخلقة اسمه الشيخ علي يوسف ، إذا أتى جلس في آخر المجلس سا كتًا ولبثا كثر المجلس مستمعًا تكاد ترثى له لضعفه ولمسكنته ، وكان قد بدأ باصدار جريدة اسمها المؤيد كانت تظهر مرتين بالاسبوع وهو يعجز أن يجعلها يومية إلا أن هذا الرجل على ضؤولة جسمه كانت بادية عليه سيماء الهمة والعزم فزرته مرة في مطبعة المؤيد فرأيته جالسًا على مقعد رث لا يسع أكثر من ثلاثة جلوس بعضهم ملزوز إلى بعض ، وأمامه منضدة بدون غطاء عليها من بقع الحبر ما يهول الناظر وهو يعالج تحرير مقالته في دخول العام الهجري الجديد حينئذ ، ولا يعرف كيف يتسوغها و كانت بجانب الغرفة غرفة ثانية فيها المطبعة ، وبين الغرفتين باب مفتوح وأنا من مكان جلوسي أرى منضدي الحروف من خلال ذلك الباب يصفون الحروف ، ثم اني رأيت الشيخ عليًا في تعب زائد مع مقالته هذه عن الحول الجديد ، وهو يكتب ويطلس ويمحو فقلت له : لو قلت كذا وكذا ... فأجابني : بالله عليك تكتب أنت هذه الانتتاحية فكتبتها أمامه ، هذا وبعد ٢٠ سنة من ذلك العهد جئت إلى مصر ،

المؤيد تطبع ٣٠ الف عدد

وأنا ذاهب إلى حرب طرابلس فماذا وجدت ؟ وجدت جريدة المؤيد من أعظم الجرائد اليومية في مصر تطبع في كل يوم من ٢٠ إلى ٣٠ الف نسخة ، ووجدت إدارة المؤيد تكاد تكون قصراً من قصور الامراء فيها الزرابي المبثوثة والطنافس الحريرية الفاخرة بدلاً من ذلك المقعد الحقير ، عليه ذلك الغطاء

القديم من الشيت بدون حشوة ، ووجدت مطبعة بخارية من أكبر المطابع كان صاحب المؤيد اشتراها بخمسة آلاف جنيه ، مع أن تلك المطبعة القديمة التي رأيتها من قبل ما كانت لتساوي ١٠٠ جنيه .

ثم وجدت الشيخ علي يوسف نفسه من أكتب كتاب مصر وأسيلهم قلماً ، فضلا عن اني وجدته عيناً من أعيان مصر وأشهرهم ذكراً ، ولم يغفل الشيخ عن أن يذكرني بزيارتي الاولى عندما كان على تلك الحالة الرثة ، وأن يقابل بها حالة الترف التي رأيته عليها يوم زيارتي الثانية ، فهذا المثال البارز كاف لقياس درجة الرقي الفكري في الشرق(١).

انتشار الصحافة في العالم الاسلامي

ولقد كانت الصحافة العربية فيما مضى منحصرة في القطرين المصري والشامي فصارت الآن منبثة في جميع الأقطار العربية ، ففي العراق بضع عشرة جريدة ومجلة منها ما هو في بغداد ومنها ما هو في البصرة ، وكذلك ظهرت جرائد في الحجاز قد كان أولها جريدة القبلة في زمن الملك حسين ، ولما استولى ابن سعود على الحجاز استبدل بها أم القرى ، ثم ظهرت جريدة اسمها صوت الحجاز في مكة وجريدة ومجلة في المدينة المنورة ، وصدرت جريدة الايمان للحكومة اليمانية في صنعاء ، وصدرت جرائد عربية وراء البحار أشهرها جريدة حضرموت في جاوة ، كما انه يوجد في الهند مجلة عربية اسمها الضياء للاستاذ مسعود الندوي .

أما في المهجر فان للعرب نحواً من ٣٠ جريدة ومجلة : منها ما هو في أمريكة الشمالية وما هو في أمريكة الجنوبية ، وفي المهاجر العربية هناك من الكتاب

(١) لا حاجة بنا الآن إلى سرد أسماء الجرائد المصرية الكثيرة ولا إلى سرد أسماء الجرائد السورية الصادرة في دمشق وحلب وبيروت وفلسطين ولا إلى ذكر المجلات الشهيرة كالمقتطف والهلال والرسالة وأمثالها فان الأعلام الشهيرة لا تعرّف ولا تحتاج الى تعريف .

والشعراء والادباء والأطباء والفلاسفة تفر تفخر بهم أوطانهم ، وهم جزء متمم للعالم العربي الادبي لا يتم إلا بهم ، واني اشبه الجاليات العربية في وسط هاتيك الامم الاجنبية التي تحصى بمئات الملايين بجزائر عربية صغيرة في أوقيانوس من العجمة لانهاية له ، وقد احتفظت مع ذلك هذه الجزائر الصغيرة بلغتها العربية وآدابها وأذواقها ومنازعها ومشاربها ، وهذا لعمري برهان الاصالة والنبالة وعلو الهمة ، فان الذي يخجل بوطنه وقومه ليس بانسان ، وفي نيويورك شارع كبير خاص بالعرب تجد فيه علي أبواب المخازن العناوين العربية فوق الانكليزية ، وتنظر المطاعم العربية التي تطهو من المآكل الشرقية المتنوعة ما يكون قد درس بتمامه في البلاد العربية الأصلية ·

وانك لتسمع الموسيقى ثمة العربية كيفما توجهت سواء من المغنين أو من الآلات الحاكية ، وإذا نظرت إلى النوافذ وجدت فيها الأصص من الفخار فيها الرياحين وأكثرها من الحبق الذي يقال له الريحان في دمشق وفي لبنان الحبق ، ويظهر أن العرب يأخذون هذه الريحانة أينما ذهبوا في الأرض ، فأني قد وجدتها بكثرة في اسبانية وهي حافظة اسمها العربي فيقول لها الاسبانيول « هبقة » أي حبقة ، ومن غرائب ما سمعته عن اعتصام السوريين بعاداتهم القومية وهم في المهجر أن كثيرين منهم يسكنون في حارات على حدة ، وربما بنوا قرى منفردة لأنفسهم ، وذلك ليكونوا أحراراً في ممارسة عاداتهم التي كانت لهم في بلادهم الاصلية ، فاذا حصلت أعراس عندهم حسبتها واقعة في نفس سورية بما فيها من الأغاريد والأناشيد والزغاريد وما يقال له في لبنان «التراويد»، وقد حضرت في نيويورك عرس فوزي بك البريدي من زحلة ، وقد اجتمع فيه أبناء العرب فخلت نفسي في زحلة أو في أية بلدة من لبنان وكذلك قيل لي انهم في الاماكن التي يسكن فيها السوريون على حدة يمارسون عاداتهم الأصلية بالمآتم فتندب النساء من جهة حول الميت ويندب الرجال من جهة أخرى ، وهم يذهبون ويجيئون وبأيديهم المناديل يهزونها في الهواء وهي ما كان العرب يقولون له المآلي واحدتها مئلاة ، إلا أن بقاء هذه الحالة عند

السوريين المهاجرين لا يعدو العصر الحاضر ، لأن أعقابهم مع الأسف ذائبون إلا ما ندر في الجنسية الأمريكية ، وقلما رأينا من ذراريهم المولودين في أمريكة من يعرف اللغة العربية لا سيما الذين أمهاتهم من هناك ، وقد عالج بعضهم هذه الحالة وحاولوا استبقاء اللغة العربية بين المولودين في أميركة من أبنائهم ، وفتحوا مكاتب وكتاتيب علمت بوجود اثنين منها في ديترويت مشيغن ، وحدثوني عن غيرهما ولكن هذا العوز لا ينسد مع الأسف ببضعة كتاتيب ، فالسوريون الذين في أميركة الشمالية يزيدون على ٢٠٠ الف نسمة، وهم في الأميركتين جميعاً أكثر من نصف مليون .

وقد قيل لي : إن أعلى المهاجرين العرب همماً من جهة الاحتفاظ بلغتهم هو مهاجرو العرب في البرازيل الذين عندهم مجلات راقية وجرائد مفيدة كما يوجد مثل ذلك في نيويورك ، ولم يقتصروا في البرازيل على بعض الكتاتيب لاستبقاء عروبة بابنائهم ، بل أسسوا هناك لهذا الغرض مدارس عالية ، يدرس الطلبة فيها العربية الفصحى في جانب اللغة البرتغالية التي يتكلم بها أهل البرازيل ، أما إذا بقيت أبواب المهاجرة مسدودة على العرب في أمريكة الشمالية فلا يمضي عليهم هناك أكثر من نصف قرن حتى ينقرض منها مع الأسف كل شيء أصله عربي ، ويصير وجود العرب في تلك القارة خبراً من الأخبار التاريخية .

الصحافة العربية في شمالي افريقية

ولنعد إلى حديث الصحافة العربية الذي كنا في صدده فنقول : إن شمالي افريقية قد نهض في العصر الحاضر نهضة أكيدة ، وكثرت فيه الجرائد العربية والمطابع وسائر أدوات النشر التي تعول عليها كل امة ناهضة ، ولم يكن في بادئ الامر بغير تونس جرائد عربية مغربية ، وقد تقدم ذكرنا لجريدة الرائد التونسي التي كانت تصدر فيما أذكر من قبل احتلال فرنسة لتونس أي منذ ستين سنة وبعد ذلك صدرت في تونس جرائد اخرى ، وفي يومنا هذا تصدر في تونس عدة جرائد ومجلات راقية كالزهرة والنهضة والصواب والمجلة الزيتونية وغيرها

وأما الجزائر فقد كانت تصدر فيها منذ خمسين سنة جريدة عربية واحدة اسمها المبشر ، وأظنها كانت الجريدة الرسمية للحكومة إلا أن الأهالي منذ بضع عشرة سنة نشروا جرائد متعددة في مدينة الجزائر وفي قسطنطينة أتذكر منها « البلاغ » « ووادي تراب » ، وأما اليوم فمن أشهرها جريدة البصائر ومجلة الشهاب ، ولم يقتصر اخواننا التوانسة والجزائريون على نشر أفكارهم في الصحف العربية التي أصدروها ، بل لأجل إمكان تفاهمهم مع الفرنسيس المحتلين لبلادهم وللمطالبة بحقوقهم عمدوا إلى نشر جرائد وطنية غربية اسلامية باللغة الفرنسية وذلك على نسق مجلتنا العربية المنهج الافرنسية اللهج « لاناسيون آراب »[1] ومثل ذلك وقع في المغرب الأقصى الذي كانت السلطة مانعة فيه الأهالي الوطنيين من نشر الجرائد بتاتاً ، خلافاً للاجانب فقد كان ولا يزال يؤذن لهم في ذلك ، بل كان محظوراً إدخال الجرائد العربية الصادرة في البلاد الاخرى إلى المغرب ، وربما عوقب من وجد قارئاً لجريدة كهذه ، إلا أن الاهالي لم يزالوا يعترضون على السلطة من أجل هذا الضغط الشديد على حرية القراءة في بلادهم حتى سمحت من سنوات لبعض الادباء بإصدار مجلة علمية في الرباط اسمها المغرب أذنت لها في الظهور على شرط أن تكون موالية للحكومة فاضطر الحزب الوطني في المغرب إلى إصدار مجلة افرنسية في نفس باريز باسم المغرب Magreb جعلوا ادارتها بيد ضيف سورية الحالي روبير جان لونغة[2] الذي جاهد هو وأبوه كثيراً في النضال عن المسلمين الذين تحت حكم فرنسا وفي منحهم جميع الحريات التي لهم الحق فيها ، فلما ظهرت مجلة مغرب ، وأقبل شبان ذلك القطر العزيز ينشرون فيها باللغة الافرنسية من المقالات القيمة والآراء السديدة ما أحدث تأثيراً عظيماً في نفس باريس ، انتقمت السلطة من تلك المجلة بمنعها من دخول المغرب نفسه ، فأصبحت في المقيم المتعد مع الوطنيين

(1) La nation arabe
(2) Robert Gean Longuet

الذين كانت ترأسهم عصبة العمل القومي ، ومنذ سنتين تمكن السيد محمد ابن الحسن الوزاني من زعماء النهضة الوطنية في المغرب من إصدار جريدة في فاس باللغة الفرنسية سماها عمل الشعب [1] وجعل مديرها افرنسياً حتى لا تتمكن السلطة من تعطيلها ، فلما ظهرت هذه الجريدة وأخذت تناضل عن حقوق الأهلين وتناقش بشدة الصحف الفرنسية الصادرة هناك ، أمرت السلطة بتعطيل هذه الجريدة خلافاً للقانون ، فبقي أهل المغرب يشنون من هذا الضغط إلى أن تولت فرنسة ولله الحمد الوزارة الشعبية في السنة الماضية فراجعتها عصبة العمل القومي في موضوع حرية الاجتماع والكتابة . وما زالت المراجعات مستمرة باصرار الى أن أذنت السلطة لعصبة العمل القومي باصدار جريدتين احداهما بالعربية اسمها الأطلس يتولى تحريرها السيد محمد اليزيدي ، واخرى بالافرنسية اسمها العمل الشعبي [2] يحررها السيدان أحمد بلافريج وعمر عبد الجليل من زعماء الحركة الوطنية المغربية ، وصدرت أيضاً جريدة عمل الشعب للسيد محمد بن الحسن الوزاني ، وجريدة اخرى بالعربية يقال لها الوداد كما انه صدرت في تطوان من المنطقة التي يحتلها الاسبانيول جريدة الحياة للسيد عبد الخالق الطوريس ومجلة السلاح للسيد محمد داود ، وأما في طرابلس الغرب فلم يكن أيام الدولة العثمانية غير جريدة الولاية الرسمية وفي الوقت الحاضر توجد جريدة للحكومة في طرابلس واخرى في بنغازي ، ولكن الطرابلسيين يقرؤون الجرائد العربية التي ترد اليهم من الشرق والغرب بلذة زائدة ولا عجب فان علاقتهم من جهة الشرق مع مصر والشام ومن جهة الغرب مع تونس هي علاقات أقطار شقيقة ، وفي زنجبار من شرقي افريقية مطبعة سلطانية من قديم الزمن ، اطلعنا على كتب مطبوعة فيها ، ومؤخراً وصلت الينا جريدة عربية صادرة في جزيرة زنجبار هذه .

فهذه هي لمحة دالة عن الصحافة العربية في الخمسين من السنين الاخيرة

(1) L'action du peuple
(2) L'action populaire

لا تزعم فيها الاحاطة وإنما تجتزئ بالاشارة التي تعطي القارئ صورة صحيحة عن هذا البحث وبالجملة فالصحافة العربية كانت من أعظم عوامل نهضة العرب ولا تزال تتقدم الى الامام ٠

المدارس في العالم العربي

ان الجرائد ليست وحدها هي المقياس الكافي لاجل إعطاء صورة صحيحة عن درجة الرقي ، بل المقياس الاكبر هو المدارس ، فمدينة بيروت مثلاً وعدد سكانها نحو من ٢٠٠ الف نسمة فيها من المدارس والجامعات ما لو قرنته بجامعات أوروبة ومدارسها لم تكن قاصرة عنها ، وربما كانت زائدة عليها إذا روعيت نسبة عدد السكان ٠ وقد كنت منذ ٢٥ سنة في مدينة نابلس التي لم يكن أهلها يزيدون على ٢٥ الف نسمة ، فبحثت عن عدد المتعلمين في هذه البلدة فكانوا ٢٠٠٠ من الأحداث في المكاتب الاميرية ، وأحصينا عدد طلاب المدارس العالية في الاستانة فبلغوا مائة شاب ، فاذا نظرنا إلى عدد أهالي نابلس وجدنا عدد طلاب العلم من أهلها لا يقل عما يجب أن يكون في أية بلاد راقية ، وليس هذا المثال وحيداً في بابه ، بل له أمثلة كثيرة في سورية وان كنت لا أزال أتأسف من بقاء الامية في البلاد الى هذا الوقت أكثر مما كنت أظن وذلك بغلبة البوادي والقرى المفتقرة إلى التعليم ، ولم يكن هذا كله من تقصير الحكومة وفقد ارادة العمل ، وانما للميزانية المالية العمومية دخل في نزول درجة التعليم عما يجب أن تكون ، ومن الغريب ان الامية في مصر لا تزال أكثر منها في سورية بالرغم من ان بين القطرين بوناً شاسعاً في درجة الثروة ، أما تقدم التعليم في سائر البلاد العربية فأكثر ما برز منه للعيان بمدة قصيرة هو في المملكة العراقية لا سيما بعد أن حصلت على استقلالها ، فانه في وقت قصير أنشئت في العراق عدة مدارس عالية كدار المعلمين في بغداد والموصل ومدرسة الطب والثانوية المركزية وعدة مدارس ثانوية متوسطة ، وعدد لا يحصى من المدارس الابتدائية ، وفي العراق المدارس المسماة (رياض الاطفال)

كثيرة وهي أرقى من أمثالها في سورية ، والفضل يرجع في اتقان هذه الرياض الى المربي العربي الكبير الاستاذ ساطع الحصري ، ثم قد بلغني أن الكتبية من القاهرة وغيرها يصدرون كل سنة مقادير جسيمة من الكتب المدرسية الى العراق وان هذا يزداد عاماً فعاماً .

أما في سورية فجامعتها العلمية تتألف من كلية الطب وكلية الحقوق والمدرسة التجهيزية الكبرى للبنين ، ومن فروعها دار المعلمين الابتدائية والعالية ، ومدرسة تجهيزية اخرى للبنات وفيها دار للمعلمات أيضاً ، ومدارس ابتدائية كثيرة ، وفي حلب مدرسة تجهيزية ومثلها في دير الزور ومثلها في حماة واخرى في حمص ، ولو كانت الميزانية المالية كافية لقطعت سورية في أقصر وقت أبعد مرحلة في طريق التعليم ، وهذا ما نأمل الوصول اليه في غير بعيد من الزمن ولا سيما بعد أن نالت البلاد استقلالها فانه لا يرجى نهضة علمية إلا بنهضة سياسية فهاتان توأمان دائماً ، وقد بلغني من وزير المعارف الدكتور الكيالي أنه لما ضاقت مكاتب الحكومة في هذه السنة عن استيعاب جميع الاولاد الذين يريد أهلوهم إدخالهم فيها ، أوصى الوزير مديري المدارس الابتدائية بتسجيل جميع من يريد الدخول فيها ، كما أوصى مديري الكتاتيب الاهلية الحرة بأن يقبلوا كل من يأتيهم على أن تؤدي اليهم الحكومة النفقات اللازمة ، فيقظة الامة ولا سيما بعد استقلالها الحديث غير محتاجة الى استدلال .

المجمع العلمي في دمشق ومصر

ولا يجوز لنا أن ننسى ذكر مجمعنا العلمي هذا الذي كان أول مجمع على نسق اكاديميات اوروبة في الاقطار الشرقية ، فانه يضم نيفاً ومائة عالم شرقي ومستشرق كلهم من ذوي الشهرة الطائرة سواء في الغرب أو في الشرق ، وللمجمع مجلة علمية من أرقى ما صدر من المجلات في العربية وأدقها بحثاً وأحسنها اسلوباً وأجمعها للنوادر وأحفلها بالفوائد ، ولا يستغني متخصص في العربية

إذا أراد جد الاطلاع عليها عن اقتناء مجموعة هذه المجلة منذ صدورها ، وقد سبقت سورية مصر في تأسيس هذا المجمع ، ولكن مصر عادت فسدت هذا العوز بتأسيس مجمعها الحالي ، فكلا المجمعين الشقيقين يخدم هذه اللغة الشريفة وثقافتها بكل ما أوتي من قوة ووسائل . ولنا الأمل بأن يسير المجمعان معاً الى الامام خطوات واسعة ، وان حكومتي القطرين تشد أزرهما بالمال الى الحد الذي يمكنها من القيام بخدمات جلى للعربية والعروبة كما هو الشأن في أكاديميات الممالك الاوروبية ، فان أمام العرب مهمات عظيمة في إثارة دفائن عقولهم وكشف دارس مدنيتهم والتنقيب عن دقائق تاريخهم لا يقوم بها إلا هذه المجامع العلمية التي هي أيضاً لا تقوم إلا بتوفير أقساطها من الميزانية المالية ، ولست متعرضاً الآن إلى الكلام عما قام به المجمعان الشامي والمصري من الخدمة اللغوية بإيجاد الألفاظ التي تقتضيها حاجة العصر ، وإحياء ما وجد منها في لغتنا بتطبيقه على المعاني المناسبة له ، فان من شاء أن يعرف طائلا من هذا الأمر يقدر أن يراجع مجلات هذين المجمعين .

وإنا نكون غفلنا عن الحق وأهملناه جانباً إذا كنا لا نقول إنه في القرون الأخيرة لولا بقاء الأزهر والأموي والزيتونة والقرويين لم يكن بقي أثر من آثار اللغة العربية فضلاً عن الشريعة الاسلامية ، فهذه المساجد الأربعة هي التي في الدرجة الاولى قد وقت هذه اللغة من الدثور ، وهذه الشريعة من البوار ، وقد كانت الفوضى في القرون الأخيرة المذكورة قد نسفت عمران هذه البلدان إلا بقايا تلوح كباقي الوشم في ظاهر اليد ، وتسلط على هذه الأقطار ولاة أتوا على الحرث والنسل ، وهدموا كل شيء وطمسوا كل رسم ، ومع هذا فقد بقيت هذه المساجد الأربعة بنوع خاص مع مساجد أخرى كانت تجري مجراها تقيم العربية على أركان ، وتصد غارات الجهل عليها وعلى الشريعة بقدر الامكان ، فكيف ثبتت هذه الشريعة وهذه العربية في وسط هذا الزوال . وكيف بقيتا في بهرة هذا الفناء مدة تزيد على أربعة أو خمسة قرون تعاور العالم الاسلامي فيها الانهيار من كل جانب ، ان هذا لعجب عجاب !

ولا شك أن ثبات الشريعة واللغة في وجه هذه الصدمات السياسية التي تدكدك الجبال هو الدليل الكافي على متانة أصولها ورسوخ قواعدهما وغزارة القوة الحيوية التي فيهما . وفي مصر عدا الأزهر معاهد كثيرة للعلم مثل الجامعة المصرية ومدرسة القضاء الشرعي ومدارس الحقوق والهندسة والزراعة مما لا يتيسر لي استقصاؤه الآن ، وإنما أشير إلى نتائجه الباهرة فانه لا يكابر مكابر في أن الحركة السياسية الأخيرة التي جرت في مصر في الشتاء الماضي وانتهت باستقلالها بالرغم من معارضات الانكليز تحت مختلف العلل إنما كانت ثمرة هذه المدارس ، لأن الذين تولوا هذا الامر هم العشرة الآلاف طالب الذين ثاروا في القاهرة ثورة الرجل الواحد وتنجزوا الاستقلال التام لوطنهم تنجز المستميت باذلين من دونه دماءهم بذل السخي لماله .

أثر الزيتونة والقرويين والاموي

وكما قام الأزهر بالواجب الذي عليه في مصر وكان أشبه بالصخرة العالية التي كانت تتكسر عليها أمواج الجهل والفوضى كذلك كان جامع الزيتونة في تونس وجامع القرويين في فاس والجامع الأموي في دمشق ، ومنها ومن المساجد الاخرى خرج العلماء الأعلام والمصابيح الذين أناروا الاسلام في دياجي ذلك الظلام ، ومن هؤلاء أيضاً خرج أولئك العلماء الوطنيون الذين أرادوا ادخال العلوم العصرية في البلاد والتحقق بمعارف الاوربيين حتى لا يبقى الشرق مقصراً عن الغرب فكانت الجامعات والمدارس العصرية الكثيرة وكان إرسال البعثات العلمية الى اوروبة من أيام محمد علي إلى اليوم .

النهضة العلمية والدعوة الوهابية

ولا يظن ظان أن الحركة التعليمية في جزيرة العرب قد بقيت كما كانت عليه قبل ، فأما في نجد والحجاز فلا يخفى ان الدعوة الوهابية توجب حمل جميع الناس على التعليم بدون استثناء ، وهو عندهم بمقام الجهاد فترى المعلمين

والفقهاء يجوبون الحواضر والبوادي ويفتحون الكتاتيب للاحداث وربما شرقت قبائل من العرب وغربت والمعلمون معها حتى لا ينقطع التعليم بالرحيل ، فالامية في البلدان الخاضعة لسلطان ابن سعود ستكون نادرة ، ولكن يعترض بعضهم قائلاً :

ان هذا التعليم النجدي لا يساعد الرقي المدني بل هو من النمط القديم الجامد الذي ليس فيه كبير جداء لأهل هذا العصر ، وهذا القول مردود من وجوه ؛ أولا أن النجديين يلتزمون تعميم القراءة والكتابة في البدو والحضر فزوال الامية هو بنفسه درجة عالية من العلم ، ثم انهم يحفظون الأحداث القرآن الكريم ويفسرونه لهم بعد رشدهم ، وأي كتاب حث على العلم والتعليم والسير والنظر أكثر من القرآن ، وأي كتاب قدس العلم والعلماء ونوه بالحكمة والحكماء أكثر من القرآن .

الاصلاح والعمران في المملكة السعودية

ثم ان منزع النجديين في الدين منزع إصلاح وترقية وتنقية ، ومشربه بعيد بالمرة عن الخرافات فهو مشرب إصلاحي مستحب جداً في العصر الحاضر ، وإذا سألت الاوربيين أنفسهم قالوا لك : ان مثل هذا المشرب هو الذي فك قيود الافكار وحل عقال العقول في اوربة . وكان فاتحة عهد الارتقاء ، وكثيراً ما أطلق الاوربيون على الوهابيين لقب (بروتستان الاسلام) ، ثم ان هذا الملك عبد العزيز بن سعود امام الوهابيين القائم بتنفيذ مبادئهم لا يقف عن قبول أي علم نافع أو اختراع عصري مفيد ؛ فهو يجهز مملكته بجميع طرق العمران الحديثة ، وعنده التلغراف السلكي واللاسلكي في جميع بلاده ، وعنده التليفون والراديو ، وعنده السيارات الكهربائية تسير في طول البلاد وعرضها حتى صارت تلك الأرض الشاسعة تطوى طي السجل للكتاب ، ومن أعمال ابن سعود اعتناؤه بالصحة العمومية وتعويله فيها على الوسائل العصرية الحديثة ، وقد بدأ يستخدم الطيارات في الجيش ، ولو كانت ميزانيته المالية تأذن له في الانفاق

كما يشاء لما سبقه في هذا الميدان سابق ، ولكانت الادوات العصرية في جيشه لا تقل عن مثلها في أي جيش اوروبي ، ولكن المال قوام الأعمال، ثم إذا كان المراد من العلم والتعليم هو إيجاد الامنة في السوابل فلا يكون في هذا المعنى أرقى من مملكة ابن سعود لأن الأمن العام ضارب أطنابه في بلاده كلها وواصل الى الدرجة التي يتحدث عنها المؤرخون في الكتب بعد ان كانت تلك الصحارى أشبه بسبعة تزأر فيها الضواري من كل فج ، وبالاختصار فالوهابيون يقبلون كل إصلاح مالم يصادم الدين ، والعلم والدين لايتصادمان في الحقيقة إلا عند من لم يحسن فهم كل منهما .

النهضة العلمية في اليمن

أما اليمن فانه يضارع مملكة ابن السعود في أمرين : عموم التعليم والامن الشامل ، فقد بلغني انه لا يكاد يوجد في اليمن قرية تخلو من فقيه يعلم الأحداث القراءة والكتابة ، وانه لا توجد مدينة ولا قصبة في اليمن إلا فيها حلقات تدريس للعلوم اللغوية والشرعية ، فالامية في اليمن نادرة ، نعم لا يوجد هنالك من يعتني بالعلوم العصرية إلا نادراً وهي علة قد تزاح قريباً ، لأن العلوم الادبية لا بد أن تثير حركة في الافكار وتجعل نهضة في النفوس، وهذه من شأنها أن ترتقي بنشدان العلوم الطبيعية وذلك كما جرى في مصر والشام وغيرهما . هذا وامام اليمن يحيى بن محمد بن حميد الدين هو بنفسه عالم فاضل متبحر سيال القلم لا يغرب عن باله شيء مما يجب لترقية بلاده ، ولذلك نراه مهتماً بالمدرسة العسكرية التي في صنعاء ، وعنده معمل سلاح صغير شاهدته بعيني انا وزميلاي هاشم بك الاتاسي رئيس الجمهورية السورية والحاج أمين الحسيني مفتي القدس الشريف ورئيس المجلس الاسلامي الاعلى ، وعلمنا أن هذا المعمل يقدر أن يعمل البنادق وعلف البنادق كما يصنعونها في اوروبة، ورأينا مصنوعات هذا المعمل عياناً ، ولنا الأمل بان تتسع دائرة هذا المعمل، وأن يتأسس في البلدان العربية معامل أسلحة كثيرة تكون وافية بحاجات

أهلها ، ولا ننسى ان العراق والشام والمملكة السعودية هي في مقدمة الاقطار العربية التي تحتاج إلى مثل هذه المعامل ، لأن على العرب واجباً لا يجوز أن يغفلوا عنه طرفة عين ، وهو أن لا يكونوا عيالاً على اوروبة في التسلح فانه إن أمكنهم ذلك في زمن الحرب استطاعوا أن يدفعوا الأخطار عن بلادهم وخير للأرض أن تستغني بمائها عن مياه غيرها التي يجوز أن تنقطع عنها ·

الشعر والشعراء

أما اللغة العربية من حيث هي ، فقد طارت في هذه الخمسين سنة الاخيرة بجناحين وصارت إلى جلالها الماضي وعنجهيتها القديمة فكثر في السنين الاخيرة سواد الكتاب والشعراء حتى صاروا يحصون بالمئات إن لم يكن بالالوف ، ونبغ منهم فحول يقدر الانسان أن يلزهم في صفوف المنشئين والشعراء من أهل القرون الاولى للاسلام عندما كانت اللغة في ابان سورتها فلا تنظر في جريدة إلا تجد فيها من النظم الفائق والترسل الرائق لشبان لم تسمع في عمرك باسمائهم ، هذا عدا المفلقين والعباقر الذين سارت بذكرهم الركبان وحفظ الرواة من شعرهم كما يحفظون شعر المتنبي وأبي تمام ، ولم يكن منذ خمسين سنة بمصر والشام والعراق والمغرب معشار العدد الذي نجده في يوم الناس هذا من هذه الطبقة الراقية في الادب منذ خمسين سنة أو ستين سنة فما قبل ، وكان إذا نبغ شاعر أو برع كاتب ضرب به المثل لتفرده وخلو الجو من حوله ، والحال انه لو نشرته اليوم من قبره ، وعرضته في الجمع لوجدت أمثاله يعدون بالعشرات ، وان كانت لا تزال له طلاوة ، فهذه الطلاوة لا ترتفع به إلى صفوف العبقريين وإنما تجعله في صف المجيدين ، وقد كنا في سورية لا نعرف شاعراً أحسن من نصيف اليازجي اللبناني الذي نبغ في بيروت وصارت له تلك الشهرة الطائرة باستحقاق ، وهو لو وجد في زماننا هذا لما كان إلا واحداً من جماعة ، وكان في بيروت من الشعراء المجيدين عمر الانسي البيروتي يقرأ الانسان

شعره بلذة وكان قبل الانسي واليازجي أمين الجندي وبطرس كرامة كلاهما من حمص ولهما قصائد كسبا بها شهرة لا تزال لهما إلى اليوم، ولو انهما عاشا في هذا العصر لم تكن لهما هذه الشهرة بالرغم من إجادتهما، وعلو طبقتهما، وقد سأل الامير بشير الشهابي أمير لبنان في وقته الشيخ أمين الجندي عن المعلم بطرس كرامة قائلاً له: ما نسبة المعلم بطرس اليك في الشعر ؟ فأجابه: نسبة الثعلب إلى الأسد، ولم يكن هذا الجواب صحيحاً لان لبطرس كرامة من الشعر لا سيما في الغزل والنسيب ما لا يقل رونقاً عن شعر الجندي، وكان في بغداد ثلاثة شعراء أو أربعة اشتهرت اسماؤهم في بلادنا مثل عبد الباقي العمري وصالح التميمي وعبد الحميد الموصلي وعبد الغفار الأخرس، وكان أكثرهم شهرة عبد الباقي العمري وعبد الحميد الموصلي هنا بسبب مراسلاتهما مع نصيف اليازجي كما ان شهرة صالح التميمي كانت بسبب المناقشة التي وقعت بينه وبين بطرس كرامة، وهذه الطبقة، وإن كانت تعد من الطبقة العالية في الأدب، فان الذين جاءوا بعدها ردوها إلى الوراء فبعد أن كانت من المجلين صارت من المصلين، أللهم إلا إذا حسبنا الشاعر الارزي الذي لا يلز هؤلاء في قوته، ومن قبله ابن معتوق الذي كان يضارع الشعراء الأولين. وأما في مصر فما بدأ الشعر ينهض إلا بنبوغ محمود صفوت وبعده محمود سامي وهو صاحب النهضة الشعرية الكبرى، وقد أجمع مؤرخو الادب على أنه مجدد الشعر العربي في هذا العصر، وأنه الذي أعاد اليه ديباجته الاولى التي كانت القرون الاخيرة لا تعرف منها شيئاً، وما كان شوقي وحافظ وغيرهما من شعراء مصر الا مبعوثين في عالم الأدب بأنفاس محمود سامي العالية، واليوم لا يكاد يحصى عدد المجيدين من شعراء مصر وأغرب منه نبوغ شعراء في السودان لا يقل شعرهم في الاجادة عن شعراء الأقطار العربية الاخرى، وقد نبغ في تونس في القرن الماضي محمد قباد وهو صاحب تشطير (أفاطم لو شهدت ببطن خبت) التي دخل فيه مدخلاً لا يفترق عن الاصل، والذي له قصائد أخرى جياد، وجاء بعده شعراء في تونس لم أعلم منهم أحداً بلغ مداه، وقد هبت

زيح الأدب في هذا العصر في أرجاء الجزائر والمغرب الاقصى ، وظهر شعراء ومترسلون يمكن ان يضعهم القارئ في صعيد واحد مع شعراء الشرق ، ومهما قيل في ترقي الشعراء في هذا العصر الاخير فأعظم منه قد كان ترقي الكتابة التي لم تتقدم في فصاحة الالفاظ وتنقيح الجمل فقط بل علت ببلاغتها وحسن أسلوبها وتشبعها بالمعاني الكثيرة التي أوجدتها الحركة العلمية الحديثة فاديل من الصناعة اللفظية والسجع الرنان بالمسحة العلمية والانشاء المرسل الملآن ، وهذا النوع من الكتابة هو أصعب أنواعها لمن أراد أن يسمى كاتباً ، ولا نزاع في أن ترقي كل من فني الشعر والكتابة في الأدب العربي قد كان وليد النهضة العلمية العامة التي حملت المتأدبين على مراجعة أحسن ما كتب العرب وخلفوه في زوايا المكاتب فسمت الهمم بسبب هذه النهضة العلمية إلى طبع الكتب التي لا تزال مجهولة ، أو مما ينحصر اقتناؤه في بيوت الأمراء والكبراء فصارت هذه الكتب من مثل ترسل ابن المقفع والجاحظ وأمثالها مشاعاً بين جميع عشاق الادب ، وكانوا كلما قرأوا كتب الاوربيين شعروا بحاجة الى مادة أغزر من اللغة العربية وأساليب أطلى وفنون أبدع ومجال أوسع فكأن اللغات الاجنبية هي نفسها قد كانت الحافز الاعظم على اتقان العرب المحدثين للغتهم وارتوائهم من معينها ، ولا عجب في ذلك فالعلم يزيد بعضه بعضاً سنة الله في خلقه .

الفقه الاسلامي وعلماء الدين

هذا ما كان من جهة الادب العربي ، وأما من جهة الفقه الاسلامي فلا نقدر ان نقول انه تقدم الى الامام بل رجع في الحقيقة الى الوراء وذلك باستغناء الناس عنه بعلم الحقوق منذ ترجمت الدولة العثمانية هذا العلم عن قوانين أوربة الى التركية والعربية ، ومن عادة الناس أن يكون اكثر انشغالهم بما ينفعهم في دنياهم ، وليس كل العلم طراز مجالس . نحن أولاء قد أدركنا في أواخر القرن الماضي طبقة عالية من علماء العلوم الشرعية في دمشق مثل الشيخ محمود الحمزاوي والشيخ سليم العطار والشيخ بكري العطار والشيخ سعيد

الاسطواني والشيخ الطنطاوي والشيخ علاء الدين عابدين والشيخ محمد البيطار وأخيه الشيخ عبد الرزاق البيطار والشيخ طاهر الجزائري والشيخ عبد الغني الميداني والشيخ محمد الخاني والشيخ جمال الدين القاسمي وغيرهم ، وكان الناس يستفتونهم في النوازل ويعولون على آرائهم في الدين والدنيا ، فلما انتشرت العلوم العصرية ومنها القوانين الاوربية المترجمة التي عملت الدولة بها صار إذا مات واحد من هؤلاء الفقهاء لا يخلفه غيره ، وما زال الامر كذلك إلى ان كادت هذه الطبقة تنقرض بالمرة ، وكذلك كان في بيروت الشيخ محي الدين اليافي والشيخ يوسف الأسير والشيخ ابراهيم الاحدب ، وفي طرابلس الشيخ حسين الجسر والشيخ محمود نشابة فمات كل هؤلاء ولم يخلفهم أحد ، وصار النبوغ للمحامين الذين تخرجوا في المدارس الاوربية أو في مكاتب الدولة العثمانية ، والمحامون بمصر أكثر منهم بالشام لما في مصر من استبحار العمران.

إلا انه نظراً لوجود الأزهر ومدرسة القضاء الشرعي في مصر بقي حملة العلوم الشرعية فيها أكثر منهم في سورية ، وكان الواجب على هذه الامة في كل قطر أن لا تهمل هذا العلم الذي هو من مفاخر الثقافة العربية ومن محاسن تاريخها والذي لا يستغني عنه المسلمون في المعاملات الدنيوية فضلاً عن المسائل الاعتقادية.

الطب والاطباء والصيدلة

وأما الطب فهو من العلوم التي يقوم عليها المشارقة أكثر من غيرهم ويوفقون فيها ، ومن الأطباء الشرقيين من يقيمون الآن في اوربة ويشتهرون بالنبوغ بين أهلها ، وقد كانت الدولة العثمانية من الدول الراقية في علم الطب حتى يقال انها في الدرجة الخامسة بالنسبة الى الدول الاخرى ، وقد نبغ فيها عدد كبير من الاطباء الجراحين يعدون في الطبقة العليا بالنسبة إلى أطباء اوربة وجراحيها أنفسهم منهم أتراك ومنهم عرب ومنهم أروام ومنهم أرمن ، ولا نقدر أن نقول أن سورية متأخرة في حلبة الطب هذه عن غيرها بل اني أتذكر انه لما نشبت الحرب

العامة ، واحتاجت الدولة إلى أطباء لجيشها ساقت إلى الجيش ٢٠٠ طبيب ذي شهادة من جبل لبنان وحده وبقي عدد كبير منهم في البلاد . واليوم قد ازداد هذا العدد على ما كان عليه قبل ، وبلغني ان في دمشق وحدها اليوم (١٥٠) طبيباً ، وانا نرى خريجي مدارس الطب من السوريين يتعاطون صنعتهم هذه في مصر والعراق والسودان والحجاز وغيرها ، وما يقال في الطب يقال في الصيدلة التي لها ممثلون كثيرون من أبناء سورية ، وكذلك بدأ كثير من الشبان يدرسون في أوربة علم الجراثيم (البكتريولوجية) .

منافسة سورية للبلاد العربية

وما من علم يجد في أوربة إلا أقبل عليه الشرقيون كما أقبل الغربيون وأخذوا منه بنصيب ، فالمباراة إذاً جارية بكل ما يمكن من الهمة ، على أن سورية في علم الطب وتوابعه هي ذات المركز الاول في البلدان العربية ، وذلك لسبقها غيرها الى ورود حياض العلوم الكونية فلا مصر ولا العراق ولا جزيرة العرب ولا إيران ولا المغرب تضارع سورية في هذا الموضوع ، ولكن نحن على ثقة أن جميع البلاد العربية من الآن إلى ثلاثين وأربعين سنة تصير متساوية بعضها إلى بعض في درجة الرقي العلمي .

ومن العلوم التي يمتاز بها العرب ، ولا سيما السوريين منهم ، العلوم العددية وقد نبغ الكثيرون ممن لا نقدر على احصاء اسمائهم نذكر منهم على سبيل التمثيل الشيخ محمد الطيبي في دمشق والمعلم بطرس البستاني والمعلم أسعد الشدودي في بيروت وغيرهم .

ولما كان السوريون من أقوى امم الارض على التجارة كان علم الحساب من العلوم التي يتخصصون بها بطبيعة الحال ، وكذلك في مصر لا ينكر ترقي العلوم الرياضية التي مصر من مراكز ازدهارها بل نقدر أن نقول ان المهندسين فيها أكثر منهم عدداً في سورية نظراً لأن الزراعة في وادي النيل أرقى بكثير منها في سورية .

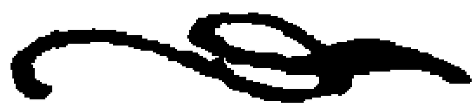
بقي علينا أن ننظر كيف يكون اتجاه الامة العربية في المستقبل من جهة الثقافة ! أتأخذ بالثقافة الغربية ولوازمها ومتمماتها إلى النهاية أم تبقى معتصمة بثقافتها الشرقية الأصلية لا تبغي بها بدلاً ولا عنها حولاً أم تأخذ من الثقافتين معاً وتجعل من ذلك ثقافة خاصة لا شرقية ولا غربية ! هذا سؤال يرد كثيراً على خواطر الباحثين وكل منهم يذهب في الجواب مذهباً، وأظن أن ثقافة العرب المستقبلة ستكون عصرية آخذة من التجدد بأوفى نصيب لكن مع الاحتفاظ التام بالطابع العربي ، وهذه أشبه بما سبق للثقافة العربية في زمن بني العباس وفي زمن بني امية بالاندلس حينما نقل العرب حكمة اليونان إلى لغتهم واطلعوا على علوم فارس والهند فجعلوا من هذه الثقافات الثلاث ومن الثقافة العربية الأصلية ثقافة جديدة عالية كانت أرقى ثقافة في القرون الوسطى ، لكنها كانت زاهرة بطابعها العربي الذي لم يكن يفارقها بحال من الاحوال ، وهكذا ستكون ثقافة العرب بعد اليوم غير جامدة على القديم الذي ثبت للعرب المحدثين وجوب التعديل فيه والاضافة اليه، ولن تكون منسلخة من القديم جاهدة في التبرؤ منه على النحو الذي نحاه الاتراك الكماليون الغالبون على تركية اليوم ، ولكنها تكون ثقافة جامعة بين القديم والجديد مختارة من كل شيء أحسنه مع بقاء الصبغة العربية التامة غير المفارقة للعرب ، وذلك على النحو الذي نحاه اليابانيون الذين اقتبسوا جميع علوم الاوربيين ولم يغب عنهم منها شيء ولا فاتهم من صناعات أوربة دقيق ولا جليل، ولبثوا مع ذلك يابانيين أصلاء في لغتهم وأدبهم وطربهم وطعامهم وشرابهم وجميع مناحي حياتهم ، وحسب العرب قدوة للاقتداء ومثالاً للاحتذاء هذه الامة اليابانية العظيمة التي لا يوجد أشد منها رجوعاً إلى قديم ولا أخذاً منها بحديث .

والآمال معقودة بانه ستكون في الشرق الادنى نهضة عربية علمية تضاهي النهضة العلمية التي رأيناها في الشرق الأقصى.

لماذا تأخر الشرق الادنى عن الاقصى

وإن كان الشرق الادنى قد تأخر عن الأقصى في درجة الرقي العصري فلم يكن ذلك كما يتوهم بعضهم من جمود الامم الشرقية العربية وتفوق اليابانيين عليهم في حب العلم ونشدان وسائل القوة ، وإنما كان الموقع الجغرافي للبلاد العربية قد عرضها من هجوم الأجانب وغاراتهم المتوالية لما لم يتعرض له اليابانيون بسبب تقاصي ديارهم وبعد مزارهم بحيث خلا لهم الجو وتمكنوا من أن يتعلموا ويتهذبوا آمنين على حوزتهم ، وهذا فرق طالما غفل عنه الناس ولم يتفطنوا لخطورته ، فحملوا بسبب غفلتهم عنه على الشريعة الاسلامية وجعلوها ظلماً وعدواناً هي المسؤولة عن هذا التأخر ، والمسؤول الحقيقي في الواقع هو الاعتداء الأجنبي المتواصل الذي يتيسر في الشرق الادنى مالا يتيسر في الشرق الأقصى ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته •

شكيب ارسلان



الصحافة في طرابلس الغرب

لما اطلع أحد ادباء طرابلس الغرب على محاضرة الامير نشر في جريدة الجزيرة الكلمة الآتية ننشرها في مجلتنا إتماماً للبحث :

« قرأت في عدد ١٥ — ٧٠٥ من مجلتكم الغراء جزءاً من المحاضرة التي ألقاها في قاعة المجمع العلمي الدمشقي أمير البيان عطوفة الأمير شكيب أرسلان باسم النهضة العربية العلمية ، فوجدت ما نصه :

وأما في طرابلس الغرب فلم يكن أيام الدولة العثمانية غير جريدة الولاية الرسمية . وفي الوقت الحاضر توجد جريدة للحكومة في طرابلس واخرى في بنغازي .

مع أن الذي أعلمه يقيناً ان بطرابلس في العهد العثماني عدة جرائد كالترقي والمرصاد والرقيب والعصر الجديد وأبو قشة (هزلية عربية) وتعميم حريت هزلية تركية ومنشئها من طرابلس ، ومجلة باسم مجلة الفنون مصورة .

وفي العهد الايطالي بطرابلس جريدة العدل والرقيب العتيد وهي التي كان اسمها الرقيب في العهد العثماني ، والذكرى .

وأما في بنغازي فقد صدرت منذ نحو سنتين مجلة مصورة باسم « ليبيا المصورة » زيادة على جريدة باسم بريد برقة .

ومما يجدر ذكره بهذه المناسبة ان جريدة الرقيب التي سميت في العهد الايطالي بالرقيب العتيد كانت أرقى في العهد العثماني .

طرابلسي مغربي

جولة في مدارس اليمن

ولما كان عطوفة الامير شكيب قد تناول بحث المعارف في بلاد اليمن

بصورة مجملة ولما كان منشئ الجزيرة [1] قد قام برحلة الى تلك البلاد وطاف في مدارس صنعاء رأينا إتماماً للبحث أن نضيف إلى محاضرة الامير ما نشره في جولته عن مدارس اليمن قائلا ما نصه :

ان الذين يقولون بأن المدارس مفقودة في بلاد اليمن يهرفون بما لا يعرفون إذ يبلغ عدد المدارس في تلك الجهات نحو ٢٠٠ مدرسة بين مدارس صغيرة وكتاتيب وكلها مرتبط رأساً بالحكومة ، وبعضها مؤلف من ثلاثة صفوف وبعضها من أربعة ·

نعم ان هذه المدارس لم تبلغ مستوى المدارس الحديثة في هذه البلاد بسبب فقدان الأساتذة الاكفاء ، ولكن حركة بسيطة تقوم بها حكومة جلالة الامام لا بد من أن تؤدي إلى تكوين نهضة ثقافية واسعة النطاق·

وفوق ذلك فان في صنعاء عدة مدارس كبرى أذكر منها المدرسة الحربية ودار المعلمين ومدرسة الايتام والمدرسة الزراعية ومدارس الصناعة ومدرسة الاصلاح والكلية العلمية ·

والطلاب في جميع مدارس اليمن لا ينفقون على الدراسة بل ان أكثرهم يأكل وينام ويلبس على حساب الحكومة وهذه مأثرة خالدة نسجلها لجلالة الامام ·

وقد التمست من سمو وزير المعارف أن يسمح لي بزيارة مدارس صنعاء فأذن لي بذلك وأرفقني بالشيخ يحيى النهاري وكيل مديرية المعارف وهو شاب يماني ذكي ونشيط·

مدرسة الايتام

وقد بدأنا أولاً بزيارة مدرسة الايتام التي تعتبر من أرقى مدارس اليمن وهي مؤلفة من سبعة صفوف ستة منها ابتدائية وواحد ثانوي وجلالة الامام

(١) هو السيد تيسير ظبيان الكيلاني الدمشقي ·

ينفق على هذه المدرسة من جيبه الخاص ويدخل في باب النفقات الطعام واللباس والنوم وغير ذلك ويبلغ عدد طلابها ٣٠٠ طالب أكثرهم من الايتام ·

وقد استقبلنا مديرها الشيخ محمد نني وأخذ يطوف بنا على غرف التدريس وقد فحصت بعض الطلاب وألقيت عليهم عدة أسئلة في التجويد والعلوم الدينية والحساب والجغرافية والتاريخ والقواعد العربية فوجدتهم رغم رداءة طرق التدريس المتبعة عندهم على جانب عظيم من الذكاء وحسن الاستعداد لتلقف أنواع العلوم ·

بيد أنني أرى من واجبي إرضاء لضميري وتنبيهاً لحكومة جلالة الامام أن أدون فيما يلي الملحوظات الآتية :

١— ان الطلاب يحفظون دروسهم عن ظهر قلب دون أن يتدبروا معاني ما يحفظون ·

٢— بعض التلاميذ كانوا يجلسون على الارض لعدم وجود مقاعد كافية ·

٣— يظهر ان العهد التركي ترك في المدارس بعض الاصطلاحات غير العربية وقد رأيتها متداولة ومستعملة في المدرسة نحو : يوقلمة « تفقد » نوبتجي (مناوب) فايدوس « فرصة » وقد نبهت مدير المدرسة إلى الكلمات العربية التي تقابل تلك المصطلحات الأعجمية فوعد باستعمالها ·

٤— لعل من أغرب ما شهدت في هذه المدرسة أن بعض التلاميذ كانوا مقيدين بالسلاسل من أرجلهم ولما استفسرت عن ذلك قيل إنهم يفرون كثيراً فلم يجدوا وسيلة لمنعهم من الفرار إلا عن طريق الأغلال !···

٥— الطلاب كلهم يرتدون الألبسة العربية اليمانية وهذا أمر لا نعترض عليه ولكن لاحظت أن الطلاب عند أداء بعض التمارين الرياضية ولا سيما عند استعمال المتوازيين والحلقات وغيرها يجدون صعوبة ومشقة فحبذا لو يعد لهم لباس خاص مؤلف من سروال وقميص خصيصاً للالعاب الرياضية ·

ومما أدهشني وأثلج صدري أن التلاميذ استقبلوني بالاناشيد الوطنية المعروفة في بلادنا ولا سيما نشيد صليل الظبي وصرير القلم ···الخ

وقد شعرت بقوة حناجرهم وعذوبة أصواتهم مع عدم انطباقها على القواعد الموسيقية الحديثة ·

والخلاصة فان هذه المدرسة (رغم النقائص الموجودة فيها والمرجو تداركها حالا) تعتبر من أعظم المؤسسات التعليمية في بلاد اليمن ·

مدرسة الصنائع

ثم توجهنا بعد ذلك الى مدرسة الصنائع وزرنا بعض فروعها وأقسامها ولا سيما معامل النسيج والصابون والسجاد · ويتولى إدارة شؤون هذه المدرسة شاب مصري منتدب من قبل الحكومة المصرية اسمه عبد القادر علام ، وقد أطلعني على خلاصة الاعمال التي قام بها والخطوات التي خطتها هذه المؤسسة الصناعية في مدة لا تزيد عن ثلاثة أشهر · ثم أراني الآلات والمكنات التي أحضرت حديثاً وأكد لي أنه لو وجهت الحكومة العناية الكافية إلى تقاريره لاستطاع أن يؤمن عن طريق صنائع الطلاب فقط جميع حاجات اليمن من المنسوجات ·

ثم زرنا معمل الصابون وكان ينتج في اليوم الواحد ما لا يقل عن أربعة آلاف قطعة صابون ، ويدير أعمال هذا المعمل رجل فلسطيني أصله من عكا ، وقد سألت عن الزيت الذي يصنع منه هذا الصابون فقيل لي انه يستخرج من نبات غريب يظهر في اليمن ويشبه الخروع في تأثيره ·

ثم زرنا بعد ذلك معمل السجاد وأعجبت بمصنوعات الطلاب من السجاد النفيس والأبسطة الجميلة ·

المدرسة العلمية الكبرى

والمدرسة العلمية تعتبر أرقى المعاهد العلمية في اليمن وهي تؤهل طلابها وخريجيها بعد نوال الاجازة :(١) لتولي أعمال القضاء (٢) للقيام بشؤون التدريس في مدارس الحكومة (٣) للاندماج في وظائف الحكومة الكبرى · وعلمت ان

أكثر العمال في الأقضية والنواحي متخرجون من هذه المدرسة .

والطلاب فيها يأكلون وينامون ويلبسون على حساب الحكومة ، وقد زرت غرف نومهم وقاعات التدريس والمطبخ الذي يعد فيه الطعام فألفيتها كلها على أتم ما يكون بالنسبة لهذه البلاد .

وهذه المدرسة تدرس مختلف العلوم الدينية والعربية فهي تعتبر كالأزهر في مصر ويبلغ عدد طلابها المئتين وقد اختبرت بعضهم فوجدتهم متفهمين تماماً لما يلقى عليهم من الدروس ومتبحرين في الشؤون الدينية .

أما الدروس التي يتلقونها في هذه المدرسة فهي القرآن الحكيم ، أصول الفقه ، مصطلح الحديث ، الحديث ، علم الفرائض ، تفسير القرآن ، التصوف (ويسمونه علم الباطن) ، الصرف والنحو ، التوحيد ، المعاني والبيان ، المنطق ، الانشاء ، المحفوظات ، الأدب العربي ، التاريخ الاسلامي ، تاريخ الأئمة ، تاريخ اليمن ، الحساب ، علم الاوقات والفلك .

والكتب التي يعتمد عليها في التدريس أكثرها من وضع علماء الزيدية وبعضها مطبوع والبعض الآخر مخطوط وهذه أهم الكتب التي يدرسها الطلاب في هذه المدرسة :

التجويد (شرح الجزري) ، مفتاح الفائض في علم الفرائض ، متن الازهار في فقه الائمة الاطهار مع الشرح ، الفية ابن مالك وشرحها لابن عقيل ، متن الاساس في علم الكلام ، تفسير الزمخشري ، متن الغاية في اصول الفقه ، متن التلخيص ، ملحة الاعراب .

ويبلغ عدد الاساتذة في هذه المدرسة ١٥ أستاذاً أذكر منهم حضرات :

الشيخ عبد الواسع بن يحيى الواسعي (مدير المدرسة)

السيد أحمد بن علي الكحلاني (رئيس المدرسين)

السيد حسين بن محمد الكبسي ، السيد أحمد بن عبدالله الكبسي ، الشيخ

الجمالي علي بن محمد فضة ، الشيخ حسين بن يحيى الواسعي ، السيد عبد العزيز بن علي بن ابراهيم ، السيد علي بن محمد الشهيد ، الشيخ محمد بن علي الشرفي ، الشيخ علي بن هلال التبب ، الحاج لطفي الفسيل ، السيد عبد القادر بن عبدالله ، الفقيه محمد مداعس ، القاضي يحيى الانسي .

وحفاظ القرآن السيد علي الطائفي والفقيه حسين الغيثي والفقيه علي الحيمي .

ملحوظة : القاب العلماء في اليمن القاضي لمن تولى القضاء أو كان والده قاضياً ، والسيد لمن ينتسب لسيدنا علي ، والفقيه والشيخ لسائر العلماء .

عدي بن الرقاع العاملي

- ٣ -

مختارات من شعره

ديوان عدي بن الرقاع مفقود ولم يبق من شعره إلا القليل وهذا القليل غير مجموع في مكان واحد يمكن الرجوع اليه بل هو مبعثر في بطون الكتب لذلك فقد انصرفت مدة من الزمن أجمع كل ما عثرت عليه من شعره في كتب الأدب واللغة والتاريخ والتراجم وتقويم البلدان ، فقد أجد القصيدة من شعره مفرقة في أمكنة متعددة فأضم بعضها الى بعض وقد أجد أبياتاً من بحر واحد وقافية واحدة منثورة على سبيل الاستشهاد في كتب اللغة وتقويم البلدان كلسان العرب لابن منظور ومعجم البلدان لياقوت فأجتهد في ترتيبها وجعلها قطعة واحدة متتالية بعد التحري والروية . ولم أجد من شعره قصيدة كاملة في مكان واحد إلا قصيدته الدالية التي مدح بها الوليد بن عبد الملك وأولها :

عرف الديار توهماً فاعتادها من بعد ما شمل البلى أبلادها

قد وردت برمتها في نهاية الأرب للنويري ج٤ ص ٢٤٧ وشرح الكامل للمرصفي ج ٧ ص ٤٨ ومجلة الآثار ج ٢ ص ٤٤٤ .

وهاك طائفة مختارة مما جمعته من شعره ٠

قال :

لو نوى لا يريها الف حول   لم يطل عندها عليه الثواء
أهواها يشفه أم أعيرت   منظراً غير ما أعير النساء

وقال :

وناعمة تجلو بعود أراكة   مؤشرة يسبي المعانق طيبها
كأن بها خمراً بماء غمامة   إذا ارتشفت بعد الرقاد غروبها
أراك إلى نجد تحن وإنما   منى كل نفس حيث كان حبيبها

وقال يجيب الراعي لما هجاه :

حدثت ان رويعي الابل يشتمني   والله يصرف أقواماً عن الرشد
فانك والشعر ذو تزجي قوافيه   كمبتغي الصيد في عريسة الأسد

وقال :

صادتك اخت بني لوءي إذ رمت   وأصاب سهمك إذ رميت سواها
وأعارها الحدثان منك مودة   وأعير غيرك ودها وهواها
بيضاء تستلب الرجال عقولهم   عظمت روادفها ودق حشاها
وكأن طعم الزنجبيل ولذة   صهباء ساك بها المسحر فاها
فاذا تجلجل في الفؤاد خيالها   شرق الجفون بعبرة تشجاها
يا شوق ما بك يوم بان حدوجها   من ذي المويقع غدوة فرآها

ومنها يقول في صفة حماري وحش :

يتعاوران من الغبار ملاءة بيضاء محكمة هما نسجاها
تطوى إذا علوا مكاناً جاسياً واذا السنابك أسهلت نشراها

وقال :

وفي الخدور مها حور مصورة خلقن أحسن مما قال من يصف
إذا كررن حديثاً قلن أحسنه وهن من غير سوء يتقى صُدُف

وقال يصف غيثاً :

مزن ترفع في ريح شآمية مكلل بعماء الماء منتطق
تربص الليل حتى قل سائمه على الرويشد أو خرجائه يدق
التي على ذات أحفار كلا كله وشب نيرانه والجاب يأتلق
نار تعاود منها العود جدته والنار تسفع عيداناً فتحترق
فما به بطن واد غب نضحته وان تراغب إلا مسفه تئق

وقال في طول الليل :

وكأن ليلي حين تغرب شمسه بسواد آخر مثله موصول
أرعى النجوم إذا تغور كوكب أبصرت آخر كالسراج يجول

وقال يمدح عمر بن هبيرة :

إذا شئت ان تلقى فتى البأس والندى وذا الحسب الزاكي التليد المقدم
فكن عمراً تأتي ولا تعدونه الى غيره واستخبر الناس وافهم
فتىً عزلت عنه الفواحش كلها فلم تختلط منه بلحم ولا دم

كأن زرور القبطرية علقت علائقها منه بجذع مقوّم
عملس أسفار إذا استقبلت له سموم كحر النار لم يتلثم
يكافح لوحات الهواجر بالضحى مكافحة للمنخرين وللفم
إذا ما رمى أصحابه بجبينه سرى الليلة الظلماء لم يتهكم

وقال يفتخر :

نسيتم مساعينا الصوالح فيكم وما تذكرون الفضل إلا توهما
فان تعدونا الجاهلية اننا لنحدث في الأقوام بؤساً وأنعما
بلا ذاك منا ابن المعدل مرة وعمرو بن هند عام اصعد موسما
يقود الينا ابني نزار من الملا واهل العراق سامياً متعظما
فلما ظننا أنه نازل بنا ضربنا وولىناه جمعاً عرمرما
ونحن فككنا عن عدي بن حاتم اخي طيئ الأجبال قداً محرما

وقال يمدح عمر بن عبد العزيز :

جمعت اللواتي يحمد الله عبده عليهن فليهني لك الخير واسلم
فأولهن البر والبر غالب وما بك من غيب السرائر يعلم
وثانية كانت من الله نعمة على المسلمين اذا ولي خير منعم
وثالثة ان ليس فيك هوادة لمن رام ظلماً أو سعى سعي مجرم
ورابعة ان لا تزال مع التقى تخب بميمون من الامر مبرم
وخامسة في الحكم انك تنصف الضـ ـعيف وما من علم الله كالعمي

وسادسة ان الذي هو ربنا اصـ م طفاك فمن يتبعك لا يتندم
وسابعـة انـ المكارم كلها سبقت اليها كل ساع وماجم
وثامنة في منصب الناس انه سما بك منهم معظم فوق معظم
وتاسعة انـ البرية كلهـا يعدون سيبا من أمام متمم
وعاشرة ان الحلوم توابع لحلمك في فصل من القول محكم

وقال في الخمر :

فكأني من ذكركم خالطتني من فلسطين جاس خمر عقـار
عتقت في الدنان من بيت راس سنوات وما سبتهـا التجار
فهي صهباء نترك المرء أعشى في بياض العينين منها احمرار

وقال :

عرفت بعفر أو برجلتها ربعا رماداً وأحجاراً بقين بها سفعا
فما رمتها حتى غدا اليوم نصفه وحتى سرت عيناي كلتاهما دمعا
أسرهمُ ما لو تغلغل بعضهـا الى حجر صلد تركن به صدعا
أميد كأني شـارب لعبت به عقار ثوت في دنها حججا سبعا
مقدية صهباء تشخن شربها اذا ما أرادوا ان يراحوا بها صرعى
عصارة كرم من حديجاء لم تكن منابتهـا مستحدثات ولا قرعا
فذر ذا ولكن هل ترى ضوء بارق وميضاً ترى منه على بعده لمعا
تصعد في ذات الأرانب موهنا إذا هز رعداً خلت في ودقه شفعا
فما تركت أركانه من سواده ولا من بياض مستزادا ولا وقعا

وقال :

لولا الحياء وان رأسي قدعسى   فيه المشيب لزرت ام القاسم
يصطاد يقظان الرجال حديثها   وتطير بهجتها بنوم الحالم
و كأنها بين النساء أعارها   عينيه أحور من جآذر جاسم
وسنان أقصده النعاس فرنقت   في عينه سنة وليس بنائم

هذه طائفة مختارة مما جمعته من شعر عدي بن الرقاع العاملي إذا أُضيفت الى ما ورد منه على سبيل الاستشهاد في البحثين السابقين صورت للقارئ شاعراً فحلاً من شعراء بني امية الذين يمثلون الشعر العربي الخالص .

خليل مردم بك



نظريات الاقتصاد عند البيروني

النظريات الاقتصادية هي حديثة في حد ذاتها، ولكن كلما أمعنا النظر بالوثائق العربية القديمة رأينا أن السلف الصالح قد تطرق إلى كل ناحية من المعارف، ولو اننا تابعنا ذلك المسير لكنا اليوم في مقدمة الامم حضارة ومدنية.

البيروني هو أحد العلماء المسلمين الذي كان له الأثر الأكبر في جمع العلوم الاسلامية فهو أحد ثقات النقادين والبحاثين في العلوم التاريخية والجغرافية والطبيعية والرياضية.

ولد أبو الريحان محمد بن أحمد البيروني في عام ٣٦٢ هـ. أي ٩٧٢ م. في خوارزم وعاش ردحًا طويلاً من الزمن في بلاط ملوك غزنة السلطان محمود وخليفته السلطان مودود؛ أما الكتب التي ألفها فقد أدرجت بفهرست بروكلمن ودائرة المعارف الاسلامية الالمانية، وكتاب الصيدنة الذي يبحث عن العقاقير ومنفعتها فقد نشره طبيب العيون في القاهرة وأحد البحاثين عن تاريخ الطب العربي الدكتور ماكس مايرهوف. ونشر ر. رامزي رايت **R. Ramsay Wright** الانكليزي كتاب التفهيم لأوائل صناعة التنجيم؛ أما مخطوطة البيروني القيمة التي تبحث عن الاحجار (الجماهر في معرفة الجواهر) والتي اكتشفت فيها النظرية الاقتصادية فاني اعرف لها ثلاث نسخ:

١ً: نسخة محفوظة في مكتبة الاسكوريال في أسبانيا تحت عدد ٣٢٢ (١)

(١) انظر مقال شتاينشنايدر في مجلة الشرق الألمانية ١٨٩٥ عدد ٤٩ ص ٢٥٣

M. Steinschneider, ZDMG. 49, 1895, p.253.

وقد كنت اطلعت على هذه النسخة في مكتبة تاريخ العلوم الطبيعية في برلين فوجدتها مملوءة بالاغلاط .

٢ : نسخة محفوظة في مكتبة السراي في الآستانة كتبت عام ٦٢٦ ﻫ وقد اطلعت على صورة شمسية لهذه النسخة في جامعة بون ، ويقول الاستاذ كرنكو في مجلة ثقافة الاسلام الهندية التي تصدر باللغة الانكليزية في حيدر آباد (عام ١٩٣٢ جزء ٥ ، ص ٥٣٠ وما تابعه) [١] ان هناك نسختين في الاستانة في حين ان الاستاذ هلموت ريتو المقيم في الاستانة لتدقيق المخطوطات العربية في خزائن المكتبات التركية يعتقد أن هناك نسخة واحدة .

٣ : نسخة محفوظة في مكتبة رشيد أفندي في مدينة قيصرى في تركية ، ومكتبة بروسيا الحكومية تملك صورة شمسية لهذه النسخة التي كانت دليلي في هذا الموضوع .

وقد أتيح لي أن أدرس هذه المخطوطة دراسة متقنة اطلعت فيها على جميع مآخذ البيروني ، وقد عثرت هنا على نظرية اقتصادية لها تماس قوي مع النظريات الاقتصادية الحديثة أقرت بقيمتها كلية الفلسفة في جامعة بون [٢] .

وقد كنت نوهت عن هذه المقالة في مجلة الاعتدال (النجف نيسان ١٩٣٦ ص ٥٦١) . واني الآن سوف أبين ما هذه النظرية ، ولكن قبل الخوض في الموضوع أود أن آتي بنظرة تاريخية سطحية أبين فيها الذين سبقوا البيروني في هذا المضار .

في العهد اليوناني تطرق أفلاطون وأرسطوطاليس الى البحث في حاجة الانسان الى التعاون ، حتى ان أرسطوطاليس أشار بأن قيمة الدرهم ليست من ذاته بل بحسب الاعتبار [٣] . وهناك فيلسوف يوناني يدعى بريزون Bryson

(١) Islamic Cultur VI, 1932 p. 530 ff.

(٢) راجع أطروحتي الدكتورية عن منابع كتاب الاحجار المقدمه لجامعة بون عام ١٩٣٥ . M. J. Haschmi, Die Quellen des Steinbuches des Beruni (Inaugural - Dissertation), Bonn 1935. P. 44,

(٣) راجع رسالة أوغارسالين (استاذ الاقتصاد في بازل ، سويسرا) عن تاريخ -

الذي بحث أيضاً بفلسفة الاقتصاد ولكننا لا نعلم الزمن الذي عاش فيه . ويزعم الاستاذ مارتين بلسنر الذي دقق مؤلف هذا العالم مع ترجمته العربية [١] انه عاش على التقريب بين مائة سنة قبل الميلاد وبين مائة سنة بعد الميلاد وهناك نظرية اقتصادية للدمشقي نشرها الاستاذ هلموث ريتر في العدد الخامس من مجلة الاسلام الالمانية [٢] ، لا نعلم أيضاً الزمن الذي عاش فيه هذا العالم الدمشقي ولكنه ما بين القرن التاسع والقرن الثاني عشر .

فاذاً ان أهمية نظرية البيروني عظيمة لاننا نرى هنا تحديد الزمن الذي نشأت فيه هذه النظرية ، وقد سبق الفارابي البيروني في فكرة تشكيل الجماعات في كتابه القيم « المدينة الفاضلة » أما ابن سينا المعاصر للبيروني فقد ألف كتاباً في السياسة [٣] تكلم فيه عن حاجة الانسان الى التعاون ولكنه لم يذكر وجوب اتخاذ واحد قياسي للمعاملة في المبادلات ، فللمرة الاولى نجد تحديد النظرية الاقتصادية في الادب العربي عند البيروني وذلك في مقدمته القيمة في كتاب الجماهر في معرفة الجواهر [٤] .

ـ علم الاقتصاد السياسي في دائرة معارف الحقوق وعلم الحكومة برلين ١٩٢٩ ص ٦

Edgar Salin, Geschichte der volkswirtschaftslehre(Enzyklopaedie der Rechts - und Staatswissenschaft) , Berlin 1929, P. 6

(١) Martin plessner, Der Oikonomikos des Neupythagorees Bryson, Heidelberg 1928, P. 148.

(٢) Helmuth Ritter, Ein arabisches Handbuch der Handelswissenschaft, Der Islam, VII, 5.

(٣) راجع مجلة المشرق العدد التاسع عام ١٩٠٦

(٤) رغماً من أن البيروني اعتمد في تأليفه هذا الكتاب على الكندي حيث يقول : « ولم يقع في هذا الفن اعني فن الجواهر غير كتاب أبي يوسف بن اسحق الكندي في الجواهر والاشباه ، قد افترع فيه عذرته وأظهر دورته كاختراعه البدائع في كل ما وصلت اليه يده من سائر الفنون ، فهو امام المجتهدين واسوة الباقين » ليس عندنا أي دليل على ما اقتبسه من ذلك العالم في تكوين نظريته الاقتصادية ، وكذلك الامر بمعاصر الكندي الجاحظ الذي استق البيروني منه بعض الاخبار ـ

ابتدأ البيروني في مقدمته بعد حمد الله بالكلام عن غاية الخليقة ، فتكلم عن النبات والحيوان ، ثم عن الانسان كمخلوق اجتماعي ، ويبين بعد ذلك ضرورة اتخاذ قيمة ثابتة لتسهيل تبادل المصالح ، ثم يجلب هذا العالم نظر دقتنا الى الخطر الناشئ عن الغلو في تشريف الذهب والفضة فيبرهن لنا بأن لا قيمة مطلقة بل قيمتها قيمة نسبية إضافية ، وينتقل بعد ذلك إلى أبحاث الاخلاق الاجتماعية التي تجلب السعادة لبني البشر .

تشتق فكرة البيروني في الاقتصاد من الحاجة ، وهي حاجة المخلوقات إلى المعيشة ، فجعل الله النبات مكتفياً بالقليل من الغذاء الذي لا ينهضم بسرعة ، وثابتاً مكانه يأتيه رزقه من كل مكان فيجذبه بعروق دقاق ؛ أما الحيوان فكان الانهضام فيه سريعاً ، منفصلاً عن منبته محتاجاً إلى القضم والخضم فجعل منتقلاً بآلات الحركة في أكناف الارض لطلب القوت ، فأنعم عليه وأعطي خمس حواس للشعور بما حوله مما باينه وغايره : من بصر يدرك به المرغوب فيه من بعيد فيسرع إلى اقتنائه ، والمرهوب ليهرب منه ويستعد لاجتنائه واتقائه ، ومن سمع يدرك به المذكور من حيث لا يدركه البصر ، ومن شم يدله على خواص الاشياء ، وذوق يظهر له الموافق من الغذاء وغير الموافق ، ولمس يعرف به الحر والقر والرطب واليابس والصلب واللدن والخشن واللين .

فالبصر محسوسه النور الحامل في الهواء ألوان الأجسام خاصة ، وإن حمل أيضاً غيرها من الاشكال والهيئات ، والسمع محسوسه الاصوات والهواء يحملها اليه ، والشم محسوسه الروائح ، والهواء يوصل حواملها الى الخياشيم إذا انفصلت

ـ عن الجواهر ، أما ارتباط البيروني باخوان الصفاء فلا يزال غامضاً ، ولم أعثر الا على التشابه بين فكرة التطور في الطبيعة عند اخوان الصفاء وعند البيروني ، وقد كنت بحثت في هذا الموضوع في مجلة المجمع العلمي العربي من عدد ايلول ١٩٣٢ ، راجع اطروحتي (الدكتوراه) وملحق تاريخ الادب العربي لبروكلمن الحديث ص ٣٨١

C. Brockelmann, Geschichte der arab. Literatur, Supplement, Leiden 1936., I. P. 381.

من المشموم كانفصال البخار من الماء باختلاط أجزائه المنتشرة في الهواء ، والذوق محسوسه الطعام والرطوبة تحملها وتوصلها إلى الذائق وتولجها في خلله ؛ أما حاسة اللمس فانها عمت جميع البدن في أعضائه وفي آلات سائر حواسه ، وأولى ما يلاقي الكيفيات ظاهر البدن ، ولهذا كان الجلد بحس اللمس أولى واليه أسبق ، ثم ما وراءه أول فأول بحسب اللين واللطف ، فيزول به حس اللمس عن العظام .

إن المشاعر وان جعلت طلائع الحيوان للاقتناء والابقاء فان النوع الانساني قد فضل على جملة الحيوان بما شرف به من قوة العقل ، ورشح للخلافة في الارض على التعمير وإقامة السياسة فيها ، ولهذا دانت له طوعاً وكرهاً ؛ ولولا هذا الانعام على الانسان لما قاوم أدونها ، وقد أفرد من حواس الانسان اثنتان هما السمع والبصر فجعلتا له مراقي من المحسوسات الى المعقولات؛ ويستدل البيروني هنا على خطورة السمع والبصر بآية قرآنية : « ان السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولاً » ، وكذلك بيتين من أشعار العرب كقول أعشى بن ربيعة :

كأن فؤادي بين جنبيّ عالم بما أبصرت عيني وما سمعت اذني

وقول جميل بن معمر :

إذا كنا بمنزلة للهو يخاف السمع فيه والعيونا

وبعد أن تكلم البيروني عن الحواس والمشاعر أتى على خطورة تكوين الجماعات إذ يقول :

الاستيناس يقع بالتجانس حتى قيل ان الشكل الى الشكل ينزع ، والطير مع الافه تقع . فالأخرس يسكن إلى أخرس ، لأنه يفهم لغته فيما هو بين قوم لا يفهمون عنه شيئاً ، ولذا أشار البيروني الى تلك الآية الكريمة في تشكيل الجماعات : « هو الذي خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن اليها » . وهكذا يعد البيروني الزواج استدلالاً بالقرآن كضرورة من

ضرورات الاجتماع ، إذ هو يفضي الى سكنى القرى والمدن وسبب التكاثر للتعاون في الغايات ، أما سبب تعدد الحرف والصنائع فيعللها بما يلي :

الانسان في حياته مركب البدن من أمشاج متضادة لا تجتمع الا بقهر قاهر ، والنفس في أكثر أحوالها تابعة للمزاج فتتلون لذلك وتختلف اختلافه . ومعلوم أن المقهور دائم النزوع إلى ازالة القهر عنه ، وهذا هو سبب ما يلحق الحيوان من الآفات والاذى الذي يحتاج من داخله إلى المضادات المطيفة به من خارجه ، ثم ان الانسان لعراه في ذاته ، ومسكنته لعدم آلاته مقصود بالبلايا من غيره ، دائم الحاجة الى ما يقيه والاضطرار الى ما يكفيه . وهنا يبدأ البيروني بالكلام عن الحاجة ، ويرى أن حاجات الانسان لا تنقضي طالما هو حي يرزق ، ويستدل على صحة رأيه بهذا المثال :

يموت مع المرء حاجاته   وتبقى له حاجة ما بقي

أما ضرورة التعاون فقد سبق كثير من العلماء البيروني كأمثال افلاطون وأرسطو والفارابي وابن سينا وغيرهم كما ذكرت ذلك سابقا . وان فكرة التعاون عند عالمنا مطابقة كل المطابقة للنظريات القديمة القائلة بأن حاجات الانسان متعددة فلا يمكن الفرد أن يستقل بتداركها بنفسه ولا يفي بها الا نفر ، ولهذا احتاج الانسان الى التمدن . وهناك حكمة إلهية الا وهي اختلاف توزع الناس في الأرض بين الاهواء والهمم كيلا يطبقوا على اختيار واحد هو الافضل فيضيع ما دونه . وهنا يأتي البيروني بحكمة قيمة ورغم مرور العصور نجد ان تلك الحكمة لا تزال حديثة كأن قائلها عالم عصري يعيش بين ظهرانينا ، يقول ذلك الحكيم الخالد : « يؤدي تساوي البشر الى هلاك جملتهم » . فينادي البيروني من تلك العصور الماضية محذراً من دعاة الشيوعية الذين يدعون امكان تساوي البشر وينبهنا الخطر العظيم من ذلك الخيال الذي حلم به كثيرون .

أما الحرف والصناعات فيجد البيروني أنهما نشأت من اختلاف المقاصد

والارادات . فالتعاوض اتخذ البشر بعضهم بعضا سخريا ، فالتسخير بالجور والاستيجار لا يدوم ولا يستقيم . وانه لكثرة الغايات وتباين اوقاتها واستغناء الواحد أحياناً عما عند الآخر لجأ الناس إلى طلب أثمان عامة بدل الاعواض الخاصة ، فاختاروا لها ما راق منظره وعز وجوده وطال بقاؤه ثم انقاد للتعظيم بالتوحيد وللتصغير بالتجزئة والتبديد وللختم بالتنقيش والتصوير متردداً بين صنوف الهيئات والصور مع ثبات هيولاه ومادته . ولهذا السبب يعتقد البيروني ان الله تعالى لرأفته بخلقه وظاهر عنايته بهم خزن لهم قبل خلقه اياهم جميع الموزونات في أرحام الارضين تحت الرواسي الشامخات للانتفاع بها في الاجتلاب والدفاع ، واليه يرجع قوله عز وجل (وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل شيء موزون) ثم قدر الله في الفضة والذهب جميع مصالح الناس حتى تحلى أثمان المطلوبات وهداهم اليهما فاستخرجوهما من معادنهما التي عديا فيها دهوراً ، ووكل الساسة بهما ليحفظوهما من تمويه الخونة أشباههما المغايرة إياهما ابدالا عنها ، وليهذبوهما عن الادناس بالسبك والطبع ، فما من حق مع محق الا وبإزائه باطل مع مبطل يروم ترويجه في مكانه . وهذا وأمثاله هو المحوج اولي السياسة ليستحقوا اسم الخلافة في الخلق .

يعرفنا البيروني بالضرر الذي ينجم من الغلو في تقدير الذهب والفضة واختزانهما ، فيأتي بنظرية اقتصادية تلعب اليوم دوراً عظيماً في عالم الاقتصاد فان هناك من يعتبر تلك النظرية ويعدها الاساس الاكبر في هذا الفن ومن يرفضها رفضاً باتاً . وقبل أن نعلم من هو القائم بتلك النظرية الحديثة يجب ان نستمع ما يقوله البيروني :

لما سهل على الناس تكاليف الحياة وتصاريف المعاش بالصفراء والبيضاء ، انطوت الافئدة على جمعهما ومالت القلوب اليهما ... واشتد الحرص على ادخارهما والاستكثار منهما . وجل محلهما من الشرف والأبهة وضعاً لا طبعاً واصطلاحاً فيما بينهم لا شرعاً ، لانهما حجران لا يشبعان بمجرد ذاتهما من جوع ولا يرويان من صدى ولا يدفعان بأساً ولا يقيان من أذى ... فيبرهن

البيروني بذلك انهما خيران بالوضع وسماهما الناس خيراً كالمطلق لاحتوائهما على المناجح في المآرب . وبهذه المناسبة يأتي البيروني بحكاية عن الشعوب الابتدائية:

« أخبر بعض من سافر في البحر أن الريح أفضت بمركبهم الى جزيرة عادلة عن الجادة فأرفئوا عندها ، وانه خرج مع الخارجين اليها ، ودفع الى من رأى حاجته معه ديناراً ، فأخذه وفتشه وشمه وذاقه ، فلما لم يوثر منه في هذه الحواس أثر نفع ولذة ورده عليه ، اذ لم يستجز دفع ما ينتفع به بما لا نفع له فيه » . ويؤكد البيروني قائلا :

هذا لعمري هو المعاملة الطبيعية التي بها حقيقة نظام المعاش من المتمدنين للتعاون . وأما المعاملة الوضعية فعلى الاعم فيها بما اتصل بنا خبره من البلدان والممالك هي بالفلزات التي ازدانت في أعين الناس وشغف بها قلوبهم لصرف الله بلطفه اياها اليهم إصلاحاً بينهم لا لأنفسها .

وهنا تجادلت مع الدكتور كلاوزينك أحد أساتذة علم الاقتصاد في جامعة بون عن هذه النظرية وأخيراً اعترف هذا الاستاذ بعد دراسة الموضوع ملياً بالتشابه الذي بين نظرية البيروني ونظرية اقتصادي حديث يدعى كناب Knapp وهكذا يدعي كناب أن قيمة الذهب هي ليست من معدنه بل حسب الاعتبار ، أي كما يقول البيروني وضعاً لا طبعاً[1] .

وأخيراً يعالج البيروني مرضاً معضلاً في عالم الاجتماع لم يبرأ البشر منه رغماً عن مضي العصور العديدة ، وذلك الداء العضال هو كنز الاموال وعدم تركه للتداول ، لأن الحركة هي من ضرورات الحياة ، واذا وقفت تلك الحركة كانت أزمة اقتصادية هائلة . فلقد أنكر البيروني كنز الاموال واستدل بالآيات القرآنية : « والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل

(١) راجع النظرية الحكومية للدرهم لكناب :
Knapp, Staatl. Theorie des Geldes, München und Leipzig 1921, p. I. Herbert Doering, Die Geldtheorie seit Knapp (Greifswalder Staatswissenschaftl Abhdlg. Greifswald 1922, p.9).

الله فبشرهم بعذاب أليم» • ويفسر البيروني في سبيل الله فيها ما خلقها له من انتفاع الناس بترددهما في أيديهم أثماناً لمصالحهم • فبوجودهما كنزا انقطع انتفاع الخلق بهما وخولف أمر الله تعالى ومشيئته فيهما • ويعتقد البيروني ان الذهب والفضة إذا خرجا من معدنهما صارا كالزروع المحصودة والانعام المذبوحة لا يسوغ غير أكلها وانفاقها ، كذلك هذا المال ليس له بعد الاستنباط غير الطبع عيناً وورقاً وترديده في الايدي • ولهذا السبب نفسه يرى البيروني حكمة تحريم الاواني الذهبية لأنها تصير غير منتفع بها في الوقت انها جعلت لاجل تسهيل التبادل في المصالح البشرية (١)•

فلا عجب بعد هذه المقدمات إذا بدأ البيروني يتكلم عن الفتوة والمروءة قائلا ان المروءة تقصر على الرجل في نفسه وذويه والفتوة تتعدى الى غيره • اذاً ان حل الأزمات الاقتصادية لا يمكن ان يكون مادياً بوجه من الوجوه بل هو معنوي محض • فلو غرس في قلوب الناس معنى تلك المروءة والفتوة لما طاق بشر أن يرى غيره يتقلب من الآلام وهو وحده يتنعم بشتى الخيرات ، ولعلم ان الدرهم الذي بيده والمال الذي جمعه يجب أن يتداول ، يجب أن يمشي ولا يقف في أرضه ، عند ذلك نشاهد سعادة لا تشابهها سعادة•

وإذا اتضح لنا ان كثيراً من علماء الاقتصاد في الزمن الحاضر يرون ان الازمة الاقتصادية العالمية الحالية ناشئة عن عدم معرفة التبادل في المنتجات تظهر لنا أهمية نظرية البيروني في عصرنا الحديث ايضاً • ومن يدقق المنتجات العالمية يرى ان هناك مواد كافية من طبيعية وصنعية للقيام بحاجة البشر ، ولا تحتاج الشعوب إلا إلى رجال عقلاء يديرون تبادل المصالح المختلفة • وهنا

(١) يستند البيروني على الشافعي في حكمة تحريم الأواني الذهبية والفضية (راجع كتاب الام ، بولاق ١٣٢١ هـ • مختصر مزني ص ٤) • وكما اعتنى فقهاء المسلمين في قضية الاقتصاد الاخلاقي كذلك اعتنى في ذلك رجال الدين المسيحي في اوائل القرون المسيحية • راجع كتاب باول مومبرت عن تاريخ علم الاقتصاد :
Paul Mombert. Geschichte der Nationaloekonomie, Jena 1927 p. 64 — 65.

نرى جلياً ان الداء الاجتماعي العضال الذي تئن من تحته الانسانية لا يزال هو هو منذ الاجيال البعيدة ٠

هكذا يصرخ فينا حكيم مثل البيروني من تلك العصور الماضية منادياً: ان الأزمات مهما تراءت لنا بمظهر مادي هي في الحقيقة أزمة روحية٠

الدكتور
محمد يحيى الهاشمي
مدرس اللغة العربية في برلين



الاهتداء

الى قبر معاوية بن أبي سفيان بدمشق

الدوي التاريخي الذي تركه معاوية

لقد ترك معاوية منذ نشأته الى الحشر ، دوياً تاريخياً « كأنما تداول سمع المرء أنمله العشر » . أما في منشإه : فقد روى لنا محمد بن سلام الجمحي صاحب الطبقات عن أبان بن عثمان قال : كان معاوية بمنى وهو غلام مع امه فعثر فقالت له : قم لا رفعك الله ، فقال لها اعرابي سمعها : لمَ تقولين له هذا ؟ والله اني لأراه يسود قومه ، فقالت : لا رفعه الله إن لم يسد إلا قومه ! وقد ساد قومه كما توسمت وهو فتى ، فان عمر بن الخطاب رضي الله عنه قلده إمارة الشام وهو في مقتبل عمره ، وأعجب له مع ابن الخطاب وهو يحاوره . في الاستيعاب : قال عمر إذ دخل الشام ورأى معاوية : هذا كسرى العرب ، وكان قد تلقاه معاوية في موكب عظيم ، فلما دنا منه قال له : أنت صاحب الموكب العظيم ؟ قال :

— نعم يا أمير المؤمنين . قال عمر :

— مع ما يبلغني عنك من وقوف ذوي الحاجات [1] . قال معاوية :

— مع ما يبلغك من ذلك ! قال عمر :

— ولمَ تفعل هذا ؟ قال معاوية :

---

(١) لعل الاصل : ببابك .

— نحن بأرض جواسيس العدو بها كثير ، فيجب أن نظهر من عز السلطان ما نرهبهم به ، فإن أمرتني فعلت ، وإن نهيتني انتهيت ؛ قال عمر :

— ما أسألك عن شيء إلا تركتني في مثل رواجب الضرس [1] ، إن كان ما قلت حقاً إنه لرأي أريب ، وإن كان باطلاً إنه لخدعة أديب ! فقال معاوية:

— فمرني يا أمير المؤمنين ، فقال عمر :

— لا آمرك ولا أنهاك ؛ وكان يسمع تحاورهما عمرو بن العاص فقال :

— يا أمير المؤمنين ، ما أحسن ما صدر الفتى عما أوردته فيه ! فقال عمر:

— لحسن مصادره وموارده جشمناه ما جشمناه !

ونحن إنما نشيد بذكر معاوية في هذه المقدمة من الوجهة القومية ، معتقدين أن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب أحق منه دينياً بالخلافة وانه باعتقادنا معشر السنة كان في خصومته مع علي كرم الله وجهه مجتهداً مخطئاً وكان علي مصيباً ، وأن للمخطئ عن اجتهاد أجراً وللمصيب أجرين ، وأنهما وأتباعهما قد رجعا الى ربهم وهو أعلم بهم وسينبؤهم بما كانوا فيه يختلفون ، والمسلمون اليوم في حاجة حاقة إلى توحيد كلمتهم ، والعرب منهم خاصة أحوج ما يكونون اليوم إلى لم شعثهم وضم ما انتشر من ألفتهم ، ونحمد الله أن أوجد فينا بأخرة من أفاضل الشيعة من ينصف معاوية من الوجهة القومية كما ينصفه السنة وأكثر ، فلولا معاوية وحسن سياسته ، وما ملأ الاسماع من أنباء حلمه وكياسته ، لما توطد للعرب ملك في ديار الشام . واستمع لشهادة ابن عباس فيه ففي تاريخ البخاري قال ابن عباس :

---

(١) لعلها الفرس إذ لم نجد في التاج واللسان ان للضرس رواجب إنما هي للحمار على سبيل التمثيل فللفرس وغيرها من ذوات الحوافر رواجب ، قال في التاج : والرواجب من الحمار عروق مخارج صوته عن ابن الاعرابي وأنشد :

طوى بطنه طول الطراد فأصبحت تقلقل من طول الطراد رواجبه

ولعله أراد تركتني في مثل رواجب الفرس اضطراباً ، نقول هذا الى أن نجد نصاً واضحاً وقولاً شارحاً .

ما رأيت أحداً أحلى للملك من معاوية ٠

ثم استمع لشهادة عبدالله بن عمر إذ يقول : ما رأيت أحداً بعد رسول الله (ص) أسود من معاوية ، فقيل له : فأبو بكر وعمر وعثمان وعلي (رض) فقال : كانوا والله خيراً من معاوية ، وكان معاوية أسود منهم ؛ فيفضله عبدالله على أبيه عمر في السيادة ، وأنعم بها من شهادة ٠

ولاية معاوية على الشام

ولاه عمر على الشام عند موت أخيه يزيد سنة تسع عشرة ، وكان عمر كتب الى يزيد بن أبي سفيان يأمره بغزو قيسارية فغزاها وبها بطارقة الروم فحاصرها أياماً ، وكان معه بهذه الغزاة أخوه معاوية فتخلفه عليها ، وصار يزيد الى دمشق فأقام معاوية على قيسارية حتى فتحها في شوال سنة ١٩ للهجرة ٠

وتوفي يزيد في ذي الحجة من ذلك العام في دمشق واستخلف أخاه معاوية على عمله فكتب اليه عمر يعهده على ما كان يزيد من عمل الشام ورزقه الف دينار في كل شهر فأقام أربع سنين ، ثم مات عمر وأقره عثمان عليها في اثنتي عشرة سنة الى أن مات ولم يبايع علياً متهماً إياه بمقتل عثمان فكانت الفتنة وحاربه خمس سنين ، واستقل بالشام ، ثم أضاف اليها مصر ، ثم تسمى بالخلافة بعد الحكمين ، ثم استقل بالملك لما صالح الحسن رضوان الله عليه واجتمع الناس عامئذ فسموه عام الجماعة ، قال عبدالملك بن مروان : عاش ابن هند (يعني معاوية) عشرين سنة أميراً وعشرين سنة خليفة ٠

كتابة الوحي

في دمشق ثلاثة من كتاب رسول الله (ص) زيد بن ثابت ، ومعاوية بن أبي سفيان ، وشرحبيل بن حسنة ، وقد اختص معاوية من بينهم بمراسلة قبائل العرب فكان لذلك من أعلم الناس بها وأقومهم بسياستها ، قال المدائني : كان زيد بن ثابت يكتب الوحي وكان معاوية للنبي (ص) فيما بينه وبين العرب ، فهو بذلك

شبيه بمدير العشائر على عهد الحكومة الفيصلية ، أو رئيس المكتب العربي[1] في حكومات هذا العصر ، وكأنه إنما اضطلع بالكتابة بدعوة النبي (ص) له كما كان يدعو لعماله ، فعن العرباض بن سارية — كما في الاستيعاب — قال سمعت رسول الله (ص) يقول : اللهم علم معاوية الكتاب والحساب وقه العذاب .

وفاة معاوية بدمشق

وتوفي معاوية بدمشق يوم الخميس في النصف من رجب سنة ستين على الصحيح ، وهو ابن ٨٢ سنة وكان قد ادخر ليوم احتضاره ثوباً للنبي (ص) كان يلبسه على جلده ، وقلامة من أظفاره وقصاصة من شعره فقال لابنه وهو يحتضر :

إذا أنا مت فاجعل ذلك القميص دون كفني مما يلي جلدي وخذ ذلك الشعر والاظفار فاجعله في فمي وعلى عيني ومواضع السجود مني فان نفع شيء فذاك ، وإلا فان الله غفور رحيم ، ثم تمثل محتضراً بهذا البيت الحكيم :

فهل من خالد إما هلكنا　　　وهل بالموت يا للناس عار

كيف اهتديت الى قبره الصحيح ؟

ذهبت عصر الجمعة في السابع من شوال ١٣٥٦ (١٠ كانون الاول — دسمبر ١٩٣٧) في يوم صحت سماؤه وصح هواؤه للتنزه في حدائق دمشق الغناء مع صديقين رفيقين لأحدهما « بستان السيوفي » نسبة الى اسرته يقع قبلي مقبرة باب الصغير — ولعلها أقدم مقابر دمشق — وكان من مخاصير الطرق أن نجتاب هذه المقبرة القديمة ، وكان من عادتي كلما مررت بها أن أسأل الحفارين بها عن قبر معاوية ، فلما مررنا بقبور آل البيت وتبركنا بزيارة قبيهم رضوان الله عليهم ، تغلغلت بين القبور المجاورة فرأيت حفاراً قبلي القبتين المنسوبتين لام حبيبة بنت أبي سفيان ولام سلمة من أزواج الرسول (ص) ، فسألته عن قبر

(1) Arab bureau.

معاوية فقال الحفني فلحقته وصاحباي على أثري الى أن بلغنا حجرة من اللبن مسقوفة بأعمدة من شجر الحور بابها الى الغرب ، وهي هنا واقعة قبلي المقبرة قريباً من مسلخ المدينة ، فأخرج الحفار مفتاحاً من الزنار وفتح الباب فدخلنا الحجرة فواجهنا قبراً على موضع الرأس منه عمامة خضراء من الحجر وفي واجهته الغربية حجران مكتوبان ، أعلاهما الواقع تحت العمامة بقدر دفة كتاب كبير نقش عليه في السطر الأعلى ما نصه :: « قبر سيدنا معاوية رضي الله عنه » وتحته: « جدد هذا المقام صاحب الخيرات اونوى (كذا) الحاج محمد باشا محافظ الشام سنة ١١١٥ » وهو محمد باشا العظمي وكان مولعاً باهداء الكتب والمصاحف الى المساجد ، والحجر الثاني من تحته قطعة يبلغ ارتفاعها الذراع من عمود من الحجر المزي الصلد به بعض شقوق وتحطيم زبر عليه ما نصه والسطر الأعلى لا يقرأ :

« هذا قبر خال المؤمنين معاوية بن أبي سفيان كاتب الوحي ورديف رسول الله صلى الله عليه وسلم ».

ثم خرجت من الحجرة وبحثت عن القبور المجاورة فشاهدت قبراً متصلا من جانبه الشمالي بجدار الحجرة الجنوبي وله شاهدتان قائمتان : الغربية منهما عليها خط كوفي تصعب على عجل قراءتها ، والشرقية أصلد حجراً منها وأوضح كتابة عليها ما نصه :

« هذا ضريح الفاضل الكبير والعلامة النحرير صاحب التآليف الجامعة والتصانيف النافعة ولي الله من غير ارتياب ومن الدعاء عند قبره مستجاب سيدنا الشيخ أبو الفتح نصر بن ابراهيم بن داود المقدسي قدس سره العزيز سنة ٤٩٠ »

وهنالك قبور أخرى لعلماء مشهورين منهم في القرن السادس خطيب دمشق وامامها ومفتيها عبد الملك بن زيد التغلبي الدولعي من أئمة الشافعية المؤلفين توفي سنة ٥٩٨ للهجرة ، والى جانبه قبر أبي البيان محمد القرشي الدمشقي شيخ الطائفة البيانية كان شاعراً وإماماً في اللغة وفقيهاً مؤلفاً وزاهداً صاحب أحوال ذكره

ابن كثير في الطبقات توفي سنة ٥٩٠ ، الى قبور قديمة اخرى .

أما عبارة (خال المؤمنين) في شاهدة معاوية فلأن اخته السيدة ام حبيبة زوج النبي (ص) هي أم المؤمنين فهو خال المؤمنين ، وقد رجعنا من المقبرة مع الغروب الى منازلنا ، وأخبرت ثاني يوم صديقي مدير الآثار في دمشق الامير جعفر الحسني حفيد الامير عبد القادر الكبير وأنبأته باهتدائي إلى قبر معاوية والى ما حوله من القبور القديمة ، فسر لهذا النبأ الاثري التاريخي العظيم ونهض معي لزيارته فذهبنا وقت الزوال الى المقبرة ودخلنا الحجرة وشاهد الحجرين لان علماء الاثار لا يحفلون كثيراً بالاقوال الشائعة ما لم يروا أثراً ناطقاً ودليلاً صادقاً ، ثم أريته قبر الامام المقدسي الملاصق للحجرة وما حوله من القبور القديمة التي تبلغ بمجموعها نحو عشرة قبور فقرأنا الشواهد معاً ، وكان بعض التواريخ مدفوناً في الارض فكشف لنا الحفار عنها حتى قرأناها وكتبنا ما قرأناه ورجعنا أدراجنا ، ثم بحثنا في شذرات الذهب عن ترجمة نصر بن ابراهيم المقدسي فوجدنا له ترجمة عالية فقال لي مدير الآثار :

لو وجدنا في هذه الترجمة ذكراً لدفنه قرب معاوية لزال كل شك ، واذا كان من أئمة الشافعية راجعنا ترجمته في كتاب (تهذيب الاسماء والحلقات) للامام النووي ، فوجدناه لم يترجم لنصر غيره ، ورأيناه يجله الإجلال كله ويذكر انه من المرجحين في المذهب الشافعي وانه في كتابه (الحجة على من ترك المحجة) لم يذكر في المسائل التي قيل فيها قولان إلا قولاً واحداً رجحه ، وذكر ان الامام الغزالي أخذ عنه وانتفع بصحبته ، وانه سمع من الشيوخ يستجاب الدعاء عنده يوم السبت ، كما كتب على الشاهدة ، فدعوت لله والامير جعفر كثيراً لان زيارتنا له كانت يوم السبت ، ثم قال الامام النووي في تهذيبه [1] ما نصه :

« وقبره بباب الصغير بجنب قبر معاوية وأبي الدرداء رضي الله عنهم

---

(١) الجزء الثاني من القسم الاول ص ١٢٦ .

يكثر الناس زيارته والدعاء عنده » ، ولم يزل النساء يزرن قبره إلى يوم الناس هذا للتبرك به والدعاء عنده يتوارثن جيلاً بعد جيل معرفة قبره وما خصّ به من البركة ، وقد جهل جل الشيوخ حتى الشافعية منهم قبره ، كما جهل الناس بدمشق قبر معاوية إلا بعض الحفارين بباب الصغير والعجائز من النساء اللواتي يزرن قبر نصر المقدسي رحمه الله .

ولما قرأنا تنويه الامام النووي بدفن المقدسي بجنب قبر معاوية وليس بين القبرين غير نحو مترين قال مدير الآثار الأمير جعفر : الآن حصحص الحق ، وهو دليلٌ علمي قاطع كما أن الحجرين على القبر دليل أثري نافع ، وفي دمشق قبران آخران منسوبان لمعاوية أحدهما في محلة الشرفاء من حارة النقاشات تحت قبة أيوبية العهد يقولون إنه قبر معاوية الكبير وقد زرته مرتين وليس في القبة ولا على القبر شيء من الكتابة ، وفي زقاق يعرف بزقاق معاوية قبر في زاوية قادرية فيها كثير من الطبول والمسابح والدفوف مغشى بالجوخ الأخضر ينسب لمعاوية الصغير ، وليس في هذه الزاوية أثر كتابي يدل على المدفون ، هذا هو الشائع اليوم بين جمهرة الشاميين ، وقد غرّ هذا الشائع الحافظ ابن طولون إذ يقول في كتابه بهجة الانام : « في الحائط القبلي من جامع دمشق في قصر الامارة الخضراء قبر معاوية وهو الذي تسميه العامة قبر هود عليه السلام » فلعله يعني القبر المنسوب إلى معاوية الصغير ، وقد أجمع سائر المؤرخين أن معاوية مدفون بمقبرة باب الصغير ، منهم ابن عساكر في تاريخه والنووي في تهذيبه وابن الحوراني في رسالته « الاشارات إلى أماكن الزيارات » وكثيراً ما يترجمون مشاهير العلماء وينصون على انهم دفنوا قرب معاوية بباب الصغير كما فعل النعيمي في كتابه « الدارس في المدارس » في ترجمة الامام شمس الدين الصرخدي المتوفى سنة ٧٩٢ فقد قال ما نصه : « ودفن بباب الصغير بالقرب من معاوية رضي الله عنه » .

وخلاصة البحث والتنقيب أنه لا يشك أحد من المؤرخين أن أول ملوك العرب معاوية بن أبي سفيان توفي ودفن في دمشق ، وليس من شك أنه في

مقبرة باب الصغير ، وقد اطمأن قلب مدير الآثار العلامة وقلبي بما ذكرته من الدليلين الأثري والعلمي انه القبر الذي اهتديتُ اليه وقرأنا حجريه.

وفي اليوم الثالث خفّ معي لزيارته العلامة الدراكة وزير المعارف السيد عبد الرحمن الكيالي الذي نهض بمعارف الشام نهضة مأثورة مشكورة مع السيد عارف النكدي مدير العدل وعضو مجمعنا العلمي ، وفي اليوم الرابع بشرت صديقي الاديب البارع الكبير السيد خليل مردم بك عضو مجمعنا بذلك وكنا تعبنا معاً كثيراً في التنقيب عن قبره ، فذهبنا إلى باب الصغير وقبل دخول المقبرة دخلنا القبة الغورية القائمة في مدفن آل مردم ، وبجانبها قبتان مهدومتان فيها قبور يقال ان بها قبراً لمعاوية فلم نجد من الكتابة ما يدل على ذلك وإنما وجدنا كتابة تدل على دفن أمير شركسي يعرف باسم بهادر الملكي الناصري ، ثم سرنا إلى قبر معاوية زوناه وجاوره المقدسي وما حولها من قبور العلماء والصالحين فجزم مثلنا بأن القبر الصحيح الذي اهتديت بأخرة اليه هو قبر خال المؤمنين معاوية بن أبي سفيان كاتب الوحي ورديف رسول الله صلى الله عليه وسلم.

عز الدين التنوخي



المصاب العام، بوفاة السيد الامام

محمد رشيد رضا

١٢٨٢ — ١٣٥٤هـ

—٢—

انكاره على رجال الدولة والحكام

أوتي السيد الفقيد من نور البصيرة ، وسعة العلم ، وشجاعة القلب ، وظهور الحجة ، وقوة اللسان ، ما لم يؤته إلا الأقلون في كل عصر ، وقد كان رحمه الله سريع الخاطر ، حر البديهة ، قوي الجواب ، مفحماً ملزماً فيه ، لا يبالي في سبيل الحق سطوة حاكم ، ولا يخاف في الله لومة لائم ، وانكاره على الملوك ، والامراء ، ورؤساء الحكومات ، ورجال الدول والامم ، أمر مشهور يعرفه كل من اطلع على مناره وقرأ مقالاته ومناظراته فيه .

واذا كان الله تعالى أعطى الولاية بشطريها — الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر — للرجال والنساء على السواء فقال : « المؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر » وكان النساء في صدر الاسلام يعلمن هذا ويعملن به ، فقد سمعت امرأة من قريش أمير المؤمنين عمر الفاروق يخطب على منبر النبي (ص) ويمنع أن تزيد مهور النساء على أربعمائة درهم ،

فاحتجت عليه بقوله تعالى : « وآتيتم احداهن قنطاراً » فقال اللهم غفراً ، كل الناس أفقه من عمر .

قلنا إذا كانت النساء ترد على الخلفاء في ذلك العهد عملاً بهذه الآية الكريمة فهل يستكثر على صاحب المنار وهو امام في الدين والعلم أن ينكر على ملوك عصرنا فمن دونهم من الحكام ؟؟

كان له في صباه رحمه الله مع رجال العهد العثماني مواقف دلت على ثبات جنانه ، وقوة ايمانه ، وشدة صدقه وإخلاصه . فمن ذلك أن أول خطاب عام ألقاه في طرابلس الشام ، بحضور المتصرف التركي وهو الحاكم الاداري العام (حسن باشا بن سامي باشا شيخ وزراء الدولة في عصره) والعلماء وجميع رؤساء الحكومة وسائر الوجهاء :

شبه في خطابه الامة بالفرد منها ، والجماعات العاملة للمصلحة العامة فيها — ومنهم رجال الحكومة والدولة بأعضاء الفرد من رئيسية كالدماغ والقلب ، ومشاعر وآلات ، وقال : إنهم يجب أن يكونوا سواء في الحقوق العامة والاحترام ، وإن كانوا يتفاضلون في العرف والاعتبار ، وشبه العاطلين الذين لا يعملون عملا نافعاً لأمتهم ويحتقرون الطبقات الدنيا من العاملين بقوله : « ولا التفات إلى سفهاء الاحلام ، المتكبرين بالأوهام ، الذين يحتقرون الزراع والصناع ، فإنما مثل الفريقين كالأعمى والأصم والسميع والبصير ، والنسبة بينهما كالنسبة بين الأيدي والأرجل في البنية ، وبين زوائد الأظافر والشعور لو كانوا يعقلون !» .

وقد خشي عليه استاذه الجسر من ذلك الخطاب الجريء ، ومن الحرية المفرطة التي ظهرت فيه ، في بلاد مستعبدة لا تملك حق القول لمصلحة العامة ، بله العمل !! ولكن المتصرف كان من كبار أحرار الترك أولي التربية العالية ، وقد أثنى على الفقيد و قال : إنني أفتخر اليوم بأن أعد نفسي طرابلسياً لهذه الحكمة التي سمعتها من هذا الشاب ! وقد ذكر في كتاب المنار والأزهر أمثلة كثيرة لجرأته وشجاعته رحمه الله .

اصلاحه فى موطنه قبل هجرته الى مصر

يستسهل من لا خبرة له ولا دربة أمر إصلاح العامة مع أنه مطلب عظيم، لا يصلح له إلا كل من اتسعت معارفه، وكثرت تجاربه، فإن إصلاح ما طرأ من الخلل والفساد على الناس في عقائدهم وعباداتهم ومعاملاتهم وأخلاقهم وآدابهم من أشق الامور لا سيما إذا تمكنت الأهواء من النفوس، وطال عليها الزمن .

الواعظ الحكيم هو الذي يخاطب الناس بلسانهم، ويتحرى من أساليب القول ما يرى انه أدنى إلى اقناعهم، وقد كان رسول الله (ص) ينزل الناس منازلهم، ويخاطبهم على قدر عقولهم، ويقول: كلموا الناس بما يعرفون أتحبون أن يكذب الله ورسوله ؟ فالمذكر أو الواعظ أو المرشد هو كما وصفه بعض الاجلاء ملخصاً: حافظ لحدود الله، قائم على ارشاد العقول، وتهذيب النفوس، وتصحيح المعتقدات، وإبانة سر العبادات وإماطة ما غشي الأفهام القاصرة من غياهب الجهالة، وتراث الضلالة، واقف على مقاصد التشريع وحكمته، عالم مواضع الخلاف والوفاق، مائس لسامعيه بما يلائمهم من الاحكام، بل هو العامل الاكبر في إخراج الناس من ظلمات الجهالة الى نور العلم، وتحريرهم من رق الخرافات والوهم، فالعالم كالسراج إن لم ينتفع بضوئه فلا فائدة في وجوده بل لا يكون العالم عالماً حتى يظهر أثر علمه في قومه إذ ليس مسؤولا عن نفسه وحدها، بل عن عشيرته وامته » . أقول من لاحظ هذه الأوصاف، وعرف ما قام به الفقيد العظيم من الاعمال، وجدها منطبقة عليه تمام الانطباق واليك عمله في بلده :

بعد أن نال المترجم شهادة العالمية في مدينة طرابلس الشام، عاد الى بلده القلمون، وأخذ يقرأ درساً في المسجد يعظ الناس ويذكرهم فيه، ويذهب الى مقهى لهم يجلسون فيه فيجمعهم ويخطبهم، وكان فيهم أفراد تاركون للصلاة فاستتابهم، وجعل للنساء درساً خاصاً في دارهم القديمة، والزمهن تغيير زيهن بما

هو أستر وأطهر ، فصرن يحافظن على الصلوات الخمس ، وحسنت حالهن في النظافة وفي معاشرة أزواجهن ، وأما نساء اسرته المباركة (بيت المشايخ) فكن كلهن يصلين على معرفة ، اذ كن متفقهات في دينهن محتجبات كأهل المدن في زيهن ، متفوقات في تدينهن وأدبهن ، فكان يقرأ لهن بعض كتب الادب أو التاريخ أو المواعظ . وجملة القول : انه رحمه الله جدد عهداً في القلمون بالدعوة الاسلامية التي عمت الرجال والنساء والبنين والبنات ، وهكذا فليكن العالم المرشد .

يذكر الفقيد أن المعلم الاول الذي كان له أكبر التأثير في دينه وأخلاقه وعلمه وعمله هو إحياء علوم الدين لحجة الاسلام الغزالي ، فهو من بعد أن طالعه كله لنفسه ، وأكثر من مراجعة بعض فصوله وأبوابه ، صار يقرأه درساً للناس في المسجد ويعظهم به ؛ والحق أن الإحياء هو كتاب وعظ وإرشاد ، يبحث في العقائد والعبادات والمعاملات والأخلاق ، فيملأ العقول ، ويربي النفوس ، ويغذيها بلبان الحقائق ، ويحليها بالاخلاق الطاهرة ؛ ولا يكاد يوجد بين أيدي الواعظين كتاب من كتب الدين صالح لوعظ العوام من كل وجه ، كافل بما يحتاجون اليه من المسائل الدينية ، والشؤون المعاشية ، مثل هذا الكتاب (على شرط تجريده من الزوائد) فهو يذكر الآيات الكريمة ، والأحاديث الشريفة في المباحث المعقودة في الباب ، ويردفها ببسط المراد من تلك الآيات والاحاديث ، ثم بذكر مراميها ، وحكم الأحكام وأسرارها ولطائفها ، ويضرب للناس الأمثال من سير بعض مشاهير الرجال وأخلاقهم . وقد كان شيخنا الشيخ جمال الدين القاسمي رحمه الله يقول : « ان من أنفع ما يقتبس منه موعظة المؤمنين ، مواضيع تنتخب من إحياء علوم الدين » . ثم اتفق أن تذاكر مع الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده - أيام كان في ضيافته بمصر هو وصديقه الاكبر الاستاذ الجد الشيخ عبد الرزاق البيطار عام (١٣٢١) واستطلع رأيه في هذا الموضوع ، فقال الاستاذ المفتي متأسفاً : « إن هذا الموضوع لم يصنف فيه ،

إلا أن أحسن ما لدينا لذلك هو الإحياء بعد تجريده » نعد استاذنا القاسمي ذلك من بدائع الموافقات ، واختصره في مجلد واحد سماه (موعظة المؤمنين من إحياء علوم الدين) فمن قرأه وجد موعظته حسنة ، ودعوته حكيمة ، وحجته واضحة ، وتأثيره كبيراً .

دخول شعر الفقيد وكتابته في طور جديد

نشأ الفقيد مولعاً بمطالعة كتب التصوف والادب ، ونظم الشعر في سن الحداثة ، وكان يحفظ الجيد منه ، ويميز بالسليقة بين الموزون وغيره ، وقد رثى شيوخه في علم الدين ، وأصدقاء والده وأسرته ، ومن أجلهم شيخ الشيوخ الشيخ محمود نشابه ، والاستاذ الاكبر الشيخ عبد الغني الرافعي ، والمرشد الاكبر الشيخ أبي المحاسن محمد القاوقجي ، ولم يرث من وجهاء الدنيا إلا الامير أحمد حسان الايوبي ، صديق والده وأكبر وجهاء الكورة في جبل لبنان ، فقد نظم فيه مرثية دالية اشتهرت حتى كادت تذكر مع مرثية المعري الدالية في فلسفتها ، ومرثية الشريف الرضي الدالية في تعظيم قدر المرثي بها . وقد قال في مطلعها[1] :

إن المنية غاية الميلاد والنعش مثل المهد للاولاد!
والله قد برأ الخلائق للبقا بعد الفنا وزيارة الالحاد
والموت باب النشأة الاخرى لنا وبها كمال الخلق والايجاد

ثم قال بعد أبيات في وجوب السرور بالموت واستنكار الحزن والحداد ، ومضارهما وقبح عاداتهما :

أطبيعة ذا الحزن ليس يشذ عن ناموسه فرد من الافراد
أم ذاك مما أوجبته شرائع الأديان من هدي لنا ورشاد ؟
أم ذلك العقل السليم قضى على كل الشعوب بهذه الاصفاد ؟
كلا فليس الامر ضربة لازب لكنه ضرب من المعتاد
فاخلع سرابيل العوائد إن تكن ليست بنهج العقل ذات سداد

(١) المنار والازهر .

وتقلد الحزم الشريف كصارم | كيما تنافح جيشها بجهاد
فانظر لموت الناس بالعين التي | ترنو بهـا لولادة الاولاد
هاتيك مبدؤنا وهذا تمنا | طرفان مستويان للنقاد
بل آخر الطرفين خيرهما فخذ | بالاعتبار به والاستعداد

أقول: إن حزن القلوب وسكب الدموع على الاهل والمحبين أمر طبيعي لا يكاد يشذ عنه فرد من الافراد، وفي الحديث «ان العين لتدمع، وان القلب ليحزن» وان السيد الامام كان أشد الناس فجيعة بفقد أستاذه الامام (رحمهما الله تعالى) وإنما غرضه ان هذه القوافل التي ترحل عن هذه المنازل هي أسمى من أن تزول في التراب زوال الهشيم من النبات، وإن هذه الارض ليست دار إقامة دائمة، ولكنها ميدان واسع المدى متنائي الاطراف أوجده الحكيم المبدع وجعل ما على وجهه زينة له، ثم سخره للسلائل البشرية ودفعهم للعمل فيه ومكنهم من ذلك بما أودع فيهم من القوى الظاهرة والباطنة، ثم هو ينشئهم النشأة الآخرة فيجازيهم بما كانوا يعملون: «أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون»؟ «أيحسب الانسان أن يترك سدى»؟ وهذا هو معنى قوله:

بل آخر الطرفين خيرهما فخذ | بالاعتبار به والاستعداد

ثم انه بعد اطلاعه على شؤون الاجتماع، وسياسة العصر، وبتأثير مجالس المرحوم والده مع أصدقائه وقراءة الجرائد التي كانت تأتيه (وعنده بعض أعداد جريدة العروة الوثقى) ثم بتأثير صحبة استاذه العلامة الشيخ حسين الجسر، ومطالعة المجلات العلمية كالمقتطف والطبيب، مالت نفسه لإدخال المعاني العصرية في الشعر، فكان مما نظمه في ذلك القصيدة التي سميت (قصيدة الجاذبية) وقد نشر أبياتاً منها في المجلد الاول من المنار، والقصيدة الجمالية التي خاطب بها السيد جمال الدين الافغاني في السنة التي جاء بها الاستانة، ثم نشرها في المجلد الثاني من المنار، والقصيدة الشرقية التي عاتب بها الشرق على تأخره عن الغرب.

وكان آخر ما نظمه من الشعر (المقصورة الرشيدية) التي عارض بها مقصورة ابن دريد ، وكان سبب نظمها اقتراح صنوه وزميله في طلب العلم ، ومذاكرات الادب ، الشيخ عبد القادر المغربي ، أن ينظم مقصورة يرثه فيها بزفافه ، فنظم مائة بيت ونيف ، ثم بدا له أن يتمها في معارضته الدريدية بإيداعها معاني كثيرة في فلسفة هذا العصر ، وفنون الادب والاجتماع المناسبة له ، ولا سيما الاصلاح الاسلامي الذي وقف كل حياته على السعي له ، ثم هاجر الى مصر لأجله[1].

يتبع : محمد بهجة البيطار



(١) المنار والازهر (ص١٨٤)

آراء وأخبار

هدية كريمة لمخطوطات قديمة

امتازت دار الكتب الظاهرية على سائر دور الكتب المعروفة بنوادر مخطوطاتها القديمة في الحديث خاصة ، وبعضها بخطوط مؤلفيها ، والمخطوطة المخدومة تحتفظ بقيمتها العلمية وإن طبعت ، لأنها تعين على تصحيح اخواتها في البلدان الاخرى قبل طبعها : إما بمعارضتهن عليها أو على نسخ خطية أو شمسية عنها ؛ وكثيراً ما يضطر العلماء الباحثون أو الطلاب الدارسون إلى مقابلة المطبوعة بالمخطوطة ، ولا سيما أن أكثر ما طبع في الشرق للتجارة كان طبعه بعيداً عن الضبط والاتقان ، فهو في حاجة حاقة الى المعارضة ليتمكن القارئ من فهم النصوص ، وجل ما طبع كالعقد الفريد وزهر الآداب ووفيات الأعيان وغيرها لا يزال في حاجة إلى إعادة طبعه لكثرة ما يشوب هذه المطبوعات من التصحيف والتحريف .

من أجل ذلك كانت هدايا المخطوطات أسنى قيمة وأجل خطراً من المطبوعات ، ومن هذه الهدايا النفيسة للمخطوطات هدية كريمة لعضو مجمعنا العلامة الشيخ محمد بهجة البيطار تشتمل على أربعة وعشرين مجلداً مخطوطاً كتبت في القرنين السابع والثامن : منها ١٧ مجلداً من صحيح البخاري ، وفي آخر بعضها سماعات للشيوخ وقراءات مفيدة ، ويتحلى بعضها بما فيه من العلائم الدالة على الإتقان كعلامة الحموي وعلامة المستملي وعلامة مجموعهما وعلامة

أبي الهيثم ، وبقية المجلدات في الفقه والأصول والكلام ، وفي بعضها حواش وتعليقات كثيرة ، فجزى الله الاستاذ البيطار رافع راية السلفية في هذه الديار عن السلف والخلف خيراً ، ومن الحق وعرفان الجميل أن ننشر جريدة بأسماء كتب هديته الكريمة إلى دار الكتب الظاهرية وفي نشرها فوائد للعلماء والباحثين وهي :

١ - الجزء الأول من صحيح البخاري مشكول كله وعليه تعليقات مفيدة آخره : باب إذا قال المشرك عند الموت لا إله إلا الله إلى قوله : كمل الجزء الاول من صحيح البخاري (ولم يعلم تاريخ نسخه) .

٢ — نسخة ثانية كتب في أولها : الجزء الاول من صحيح البخاري رحمه الله تعالى ورضي عنه آخره كتاب الهبة وهو مخروم من آخره .

٣ — جزء كبير جداً وفيه كراريس كثيرة شتى تحتاج إلى جمع وترتيب وفي آخره سماعات الشيوخ وكتب في القرن الثامن .

٤ — الجزء الاول من صحيح البخاري كتب على جلده : بينه وبين ما بعده نقص نحو كراس وعليه سماع في القرن الثامن .

٥ — الجزء الثالث (كتاب) الهبة مخروم من آخره .

٦ — الجزء الثالث أيضاً أوله اقتربت بسم الله الرحمن الرحيم قال : مجاهد : مستمر : ذاهب وآخره : سورة الأنبياء عليهم السلام وهو مخروم من أوله وآخره .

٧ — الجزء الرابع من الصحيح مكتوب في أوله النصف الثاني من الربع الثاني كتب في اخره : آخر الجزء الثاني أنجزه كتابة محمد بن علي بن محمد يعرف بالحامي رحمه الله وكان ذلك يوم الاربعاء خامس وعشرين وثمان مائة للهجرة النبوية .

٨ — الجزء الثاني وأوله : باب القراءة في المغرب وآخره : باب غسل الخلوق وهو بخط محمد بن علي الحامي المتقدم في ٢٥ شوال سنة ٨١٩ هـ . وهو مقروء على الشيوخ ومضبوط بالشكل .

٩ — الجزء الخامس أوله قوله تعالى : بسم الله الرحمن الرحيم : وأقيموا الوزن .

بالقسط» و كتب في آخره : يتلوه إن شاء الله تعالى : بسم الله الرحمن الرحيم : كتاب الدعوات وذلك في شهور سنة ٨٦٣ . وفي آخره الحمد لله : بلغ الشيخ كمال الدين أبو عبدالله محمد بن مفلح أعزه الله تعالى قراءة في شهر ربيع الاول سنة ٨٩٦ بمدرسة الشيخ أبي عمر رحمه الله تعالى .

١٠ـــ الجزء السادس من الجامع الصحيح . أوله : بسم الله الرحمن الرحيم باب سورة المائدة . آخره باب قول الرجل لصاحبه هل أعرستم الليلة ؟ الخ . وكان الفراغ منه على يد الفقير المعترف بالتقصير يوسف بن محمد بن أحمد بن الصيداوي ولم يؤرخ وكتب : يتلوه في السابع كتاب الطلاق .

١١ـــ الجزء السادس أيضاً أوله بسم الله الرحمن الرحيم باب مناقب عمار آخره : يتلوه كتاب التفسير بخط ابراهيم بن ماجد بن عبدالله الرملي البردعي . وهي نسخة مصححة وعليها سماعات وقراءات .

١٢ـــ الجزء السابع وقف الفقير أبو بكر بن سعيد الطرابلسي . أوله كتاب التفسير باب ما جاء في فاتحة الكتاب وسميت ام الكتاب لانه يبدأ بكتابتها في المصاحف ويبدأ بقراءتها في الصلاة . وآخره : باب من لم يستطع الباءة فليصم ويتلوه باب كثرة النساء . وفي ذيله : الحمد لله بلغ صاحبه شمس الدين أبو عبدالله محمد بن شرف الدين سعيد ابن السقا الطرابلسي نزيل دمشق أعزه الله قراءة في مجالس آخرها سنة أربعين وثمانمائة .

١٣ـــ الظاهر أنه الجزء السادس وكتب في أول (ص) منه تاسع التاسع وأوله كتاب الدعوات . وقول الله تعالى : « ادعوني أستجب لكم » . وآخره : باب الرجم بالمصلى : آخر ج ٩ يتلوه باب من أصاب ذنباً دون الحد وهو بخط البردعي المقيم بدمشق الرملي .

١٤ـــ الجزء التاسع من صحيح البخاري وقف أحمد بن يحيى النجدي والمحل مدرسة أبي عمر في الصالحية . أوله : باب ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيراً . وآخره : باب المتعة التي لم يفرض لها . ويتلوه (كتاب النفقات) نهار الجمعة سابع عشر شوال سنة ٨٣١ .

١٥ – الجزء العاشر أوله : باب من أصاب ذنباً دون الحد فأخبر الامام فلا عقوبة عليه بعد التوبة إذا جاء مستفتياً الخ ٠٠ على يد ابراهيم بن ماجد بن عبدالله الرملي المقيم يومئذ بدمشق المحروسة ٢٦ شعبان سنة ٨٣٣ ٠ آخره باب قول الله تعالى وتضع الموازين الى قوله ٠ ص : كلمتان حبيبتان إلى الرحمن خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم ٠ آخر ج العاشر على يد ابراهيم الرملي سنة ٨٣٣ بلغ سماع الشيخ الطرابلسي أبو عبدالله محمد بن الشيخ سعيد الطرابلسي ٠

بالقطع الوسط

١٦ – الجزآن الثاني عشر من كتاب الجامع الصحيح المختصر من أمور رسول الله وسننه وأيامه ٠ أوله : بسم الله الرحمن الرحيم باب قصة فاطمة بنت قيس ٠ وفي آخره : بلغ مقابلة ولله الحمد والمنة ٠ وقد فرغ من نسخه يوسف ابن محمد الحنفي الصالحي بدمشق بكرة الثلثاء عاشر جمادى الآخرة سنة ٧٩٨ ٠

١٧ – جزء من البخاري بقطع الوسط أوله كتاب الاستئذان باب بدء السلام وفي أوله ما يأتي :

حـ	صـ	مـ	هـ
علامة أبي الهيثم	علامة مجموعهما	علامة المستملي	علامة الحموي

وقف المرحوم الشيخ حسن بن خادم الجديتي على مدرسة شيخ الاسلام أبي عمر بالصالحية قدس الله روحه ٠ وفي آخره : كتاب الهبة وفضلها والتحريض عليها الخ ٠ آخر المجلد الثاني من صحيح البخاري يتلوه في أول الثالث : باب من استوهب من أصحابه شيئاً ٠ وكتب في آخر صفحة : بلغ وما قبله مقابلة متقنة محررة حسب الجهد والطاقة على نسخة الجامع الاموي المعروفة بنسخة الشيخ عماد الدين بن السراج على يد أفقر عباد الله الى رحمته ومغفرته محمد بن زكريا الحواري ٠

١٨ – شرح المنهج للقاضي زكريا ٠ مجلد ضخم بالقطع الوسط مخروم

آخره وعليه حواش وتعليقات كثيرة ·

١٩ – كتاب تنوير الابصار وجامع البحار تأليف الشيخ شمس الدين محمد ابن الشيخ شهاب الدين بن تمرتاش الحنفي كتب بعد الألف (عقيدة الغيب) ·

٢٠ – جمع الجوامع وشرحه للمحلي في الاصول كتب بعد الألف ·

٢١ – الوقاية لصدر الشريعة ·

٢٢ – شرح السنوسية ٢٣ – شرح الجوهرة ٢٤ – حاشية الخيالي على العقائد ·

حول تاريخ دمشق لابن عساكر

سأل الكتبي المعروف بدمشق الاستاذ أحمد عبيد المستشرق الكبير سالم الكرنكوي السؤال الآتي :

هل في المتحفة البريطانية نسخة من تاريخ دمشق لابن عساكر تكمل الخرم الذي وقع في النسخة المحفوظة في الظاهرية ؟ فأجابه بما نصه :

انه ليست في بلادنا نسخة من هذا الجزء ، ولكني أعلم أنه في خزائن الاستانة عدة نسخ وهي هذه :

١ – في خزانة عاطف أفندي رقم ١٨٠٥ وهي المجلد الرابع من نسخة كاملة في ٧ مجلدات كتبت سنة ١١٥٥ تشتمل على ٦٥٤ ورقة ، والترجمة الاولى : أبو بكر عبدالله بن بشر والاخيرة ترجمة عبيدة بن أشعب ·

٢ – خزانة داماد ابراهيم باشا رقم ٨٧٦ وهي المجلد الخامس من ١١ مجلداً كتبت سنة ١١٠٤ تبتدئ بترجمة عاصم بن عبدالله الى عبدالله بن محمد بن وداد ·

٣ – خزانة داماد ابراهيم باشا رقم ٨٧٧ المجلد السادس من ترجمة عبدالله بن محمد بن سعيد الى ترجمة عبيد بن أحمد بن عبيد ·

٤- طوب قابوسراي في ١٢ مجلداً رقم ٣٨٨٧ (المجلدات كلها تحت رقم واحد: ج٥ من ترجمة شيبان بن الحارث الخالي ترجمة عبدالله بن العباس بن هاشم ٤٨٦ ورقة ج٦ من ترجمة عبدالله بن عبدالرحمن بن يزيد الى ترجمة عبد الرحمن بن عمر الخ ٤٤١ ورقة ج٧ من ترجمة عبد الرحمن بن عبدالله بن المثنى الى ترجمة عدي بن حاتم الجواد ٤٧١ ورقة . لا تاريخ لكتابة هذه المجلدات ، وقد وجد فيها خط مالكها في سنة ١١١٥ .

لو كتبتم الى الاستاذ ريتر لا أشك بأنه يخبركم عن اجود نسخة إذ ليس لي معرفة أي النسخ أجود ، ولكن يسبق إلى ظني أن النسخة المحفوظة في السراي تفوق الاخريين ، ويمكن ان الاستاذ ريتر يحصل على أخذ تصاوير شمسية للتراجم التي سقطت عن النسخة الظاهرية لأني حصلت بواسطته الفوطوغرافات عن عدة كتب كبار لتطبع بعد التهذيب بمطبعة دائرة المعارف الواقعة في حيدر اباد من بلاد الهند .

أما النسخ الموجودة في لندرة فقد نشرت بيان ذلك في مجلة المجمع العلمي منذ سنين وفي المتحفة البريطانية رقم ٣٨٩٧٣د نسخة في غاية الجودة بقلم المؤرخ الشهير محمد يوسف البرازلي بخط أندلسي كتبها في دمشق سنة ٦١٤ تبتدئ بترجمة عبد الواحد زيد الى ترجمة عبيدة بن أشعب .

ونسخة ثانية بقلم القاسم ابن المؤلف رقم ٩٠٥٣د قد نزع الخائن الذي سرق هذه النسخة من إحدى خزائن دمشق الورقة الاولى وهي من ترجمة لبطة ابن الفرزدق الى ترجمة محمد بن ادريس الشافعي الامام وهي صعبة القراءة لرداءة خط القاسم ، وفيها في الاول كل جزء سماع العلماء بينهم البرازلي المذكور .

نسخة ثالثة قديمة رقم ٩٢٦٠ من ترجمة سعيد بن عطية الى ترجمة سماك ابن الاحوص . وهذا المجلد مطبوع .

نسخة رابعة رقم ٣٣٢٥ من ترجمة أبي مجلز لاحق بن حميد الى ترجمة يزيد ابن الأدم وهو يزيد بن عمرو كتبت سنة ... وسبعمائة .

نسخة خامسة رقم ٧٣٤٨ من ترجمة عمر بن الخطاب الى ترجمة عمرو بن بحر الجاحظ ثم نسختان رديئتان في عنوان الاولى ... الجزء الاول (كذا) من

تاريخ ابن عساكر ، ولكن هي من أواخر التآليف إذ فيها الكنى والالقاب ، والثانية تبتدئ بترجمة الفرزدق الشاعر المشهور ولكن الكاتب الجاهل كتب فرودق بالواو كما ترى ، والترجمة الاخيرة ترجمة حواء أم البشر ، ولا فائدة في النظر إلى هاتين النسختين لكثرة الاغلاط فيهما ...



خريجو الزراعة في مصر

من أخبار مصر أن مصلحة الاملاك الاميرية انتهت في هذا الشهر من بحث مشروع إقطاع الأراضي الزراعية في مصر لخريجي كليات الزراعة والمدارس الزراعية المتوسطة ، ويقضي هذا المشروع المفيد بإعطاء خريج كلية الزراعة ٦٠ فداناً ، وخريج الزراعة المتوسطة ٤٠ فداناً بشروط سهلة على أن تؤدى أثمان الأرضين في آجال طويلة .

ولعل هذا المشروع من أنفع المشاريع الزراعية وأعمها بركة على الأرض وزارعيها ، ولا سيما العارفين بأصول زراعتها وإنباتها ، ويظهر أن رجال الزراعة في مصر والشام مبتلون بمرض واحد ، وهو أن لا يملكوا من الأرض شيئاً ، فيضطرون الى هجر الارض والالتجاء إلى المدن طلباً لوظائف الحكومة ، وقد يوجد اليوم في دمشق وأعمالها زمرة صالحة من علماء الزراعة ، وجلهم من الموظفين الذين قد تجد الجمهورية السورية من يخلفهم في وظائفهم ، ولكنها لا تجد من يقوم مقامهم في إحياء موات الارض وإنعاش الزراعة في بلادها ، فعسى ان تحذو حكومتنا الشامية حذو الحكومة المصرية فتقطع خريجي المدارس الزراعية فيها مقداراً كافياً من أملاك الدولة ، تستوفي في آجال طويلة أثمانها ، وتنتفع حين تزرع وتغرس بما تجمعه من ضرائبها ، فتجني من جناها ، وتغنى بغناها .



مطبوعات حديثة

ابن عبد ربه وعقده[1]

بقلم جبرائيل سليمان جبور

يقع في ١٦٤ صفحة طبع بالمطبعة الكاثوليكية في بيروت

كتاب جيد الطبع على ورق صقيل قسمه مؤلفه الفاضل أقساماً خمسة : تكلم في الاول منها (١—٩) على مصادر الدروس الثلاثة في العقد الفريد نفسه وشعر ابن عبد ربه ثم ما كتبه المؤرخون عنه . وقصر القسم الثاني (ص ٩— ٢٩) على حياة ابن عبد ربه فوفاها من الإسهاب والتحقيق ما أسعفت به المصادر المتيسرة للمؤلف . ثم بحث في القسم الثالث (ص ٢٩— ١١٧) عن كتاب العقد فحلله فأحسن تحليله وذكر المصادر التي استقى منها مؤلفه وتعرض لقيمته من حيث التاريخ والدين والادب وأهم التحقيقات في هذا القسم ما تعلق بتسميته (العقد الفريد) وما دس في الكتاب على مؤلفه أو زيد بعد موته . ووقف القسم الرابع (ص ١١٧— ١٢٣) على نثر ابن عبد ربه ، والقسم الخامس (١٢٣—١٥٣) على شعره في مختلف الفنون . وختم الكتاب بفهرس منظم للاعلام الواردة فيه .

هذا وصف مجمل لبحوث الكتاب وما شرع في الكلام على ما يلاحظ عليه بإجمال متبعاً ترتيب الصفحات :

١— استدل المؤلف (ص ١٨ وما قبلها) على أن صاحب العقد « كان يشرب الخمر ويحبها ويدعو اليها » بأشعار له في ذكر الخمر وصفتها والثناء عليها . ونريد هنا أن

(١) المجلة : كان هذا الكتاب قد أرسل للمجمع للتقريظ وقد عثرنا عليه اخيراً فلم نغفله من تقريظ ولو متأخراً .

ننبه إلى أن هذا شائع عند عامة الشعراء حتى الفقهاء منهم · فمن لوازم الشعر صفة، النساء والخمر وإنا نخطيء كثيراً إذا اعتمدنا في درس حياة شاعر على ما يذكر في شعره من حب للنساء والخمر أو تمدح بالشجاعة وعفة النفس · والبون شاسع بين أقوال الشعراء عندنا وأفعالهم منذ الجاهلية حتى اليوم والذي يثبت شرب الخمر على صاحب العقد خبر مأثور أو رواية مشهورة ·

٢ — ليس للمؤلف أن يأخذ برواية (Ribera) (ص٣٢) ما لم يعلم المصدر الذي استند إليه فكثيراً ما يكون نصيب خطرات النفس وجمحات الخيال أكثر من نصيب الحقيقة فيما يكتب أهل الغرب عن الشرق ·

٣— زعم المؤلف (ص٥٣) ان ابن عبد ربه «لم يستطع أن يتجرد من بعض النزعات والميول ولم يتجنب كثيراً من الأغلاط التي ارتكبها غيره» وأرسل حكمه هذا مجرداً عن الشاهد فلم يذكر شيئاً من النزعات التي سيطرت عليه ولم يلم بشيء من الاغلاط الكثيرة التي ارتكبها · والمؤرخ لا يرسل حكماً غفلاً من الشاهد والدليل ·

٤— عقد فصلا بعنوان «نظرة كمسلم الى النصارى في الاندلس ص٧٥» فقرأناه فإذا به لا يتعلق بالنصارى ولكن بالفرنج (الاسبان) أعداء الدولة العربية فوصف الفرنج بالنصارى يصرف الذهن إلى أشياء لم يردها المؤلف · وإنما يرد على الخاطر حين تلاوة هذا العنوان الذميون الذين لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم وكنا نود أن يكون المؤلف دقيقاً في وضع الكلمة مواضعها ·

٥—عرض المؤلف ص ٨٠ للقصة التي كانت بين صاحب العقد والقلفاط الشاعر واحتشم عن روايتها فقال « نسكت عن ذكرها لما فيها من بذيء اللفظ ··· وليس بلائق أن نذكر هنا هذه القصص » ونأخذ عليه أمرين أما الأول فانه لم يسكت عن ذكرها وأتى العمل الذي رآه غير لائق حين ذكر البيت:

يا غرس أحمد إني مزمع سفراً فودعيني سراً من أبي عمرا !

ثم دل القارئ على المصدر حيث يرى القصة بتفاصيلها فلم نستفد شيئاً من هذه المظاهرة الورعة ! إلا تشويق القارئ إلى معرفتها فلو رواها كان الخطب أيسر · وأما الثاني فهو ان الامانة تقضي على من يتصدى لشرح ناحية من تاريخ الادب

أن يؤدي الاشياء على حقائقها التي هي عليها لأنه مؤرخ لا رجل تقاليد ورياء .

٦ — قال ص٨٤ : « إن ابن عبد ربه كان مولعاً بوجه عام في المعارضة سواء أكان فيها انتقاد أم لم يكن . وقد كان في كثير من شعره الذي ذكره في العقد معارضاً لشعراء تقدموه ..الخ » وظاهر أن المؤلف فهم من معنى معارضة الشعر : الانتقاد وليس كذلك وإنما المعارضة أن يجري الشاعر مع شاعر آخر في وزن قصيدته ورويها وموضوعها . وهي شائعة معروفة .

٧ — استدل المؤلف من عدم ذكر توقيعات لأحد بعد المأمون على « أن الذي دس في المواضع السابقة قد فاته الدس هنا . وإن وقوف ابن عبد ربه عند المأمون ليحملنا على الظن أن أكثر الاخبار التي وردت في العقد عن خلفاء بني العباس ممن عقب المأمون دست على ابن عبد ربه الخ » ولا يرد هذا كله لأنه من المعروف أنه ليس لأحد بعد المأمون توقيع يؤثر ويروى لضعف ملكات الخلفاء بعده وقلة بضاعتهم من علوم العربية .

٨ — وازن بين نثر ابن قتيبة ونثر ابن عبد ربه وذكر نماذج ثم ذهب إلى تفضيل الثاني على الأول ص ١١٩ . والذي نراه نحن أن الامر على العكس وإن النماذج نفسها التي أوردها لا تؤيد رأيه . ويرد الامر في ذلك إلى الذوق والملكة ولكل امرئ منهما ما رزق .

٩ — في الكتاب تطويل كان يحسن أن يتجرد منه . فالفصل الذي عقده لتشيع ابن عبد ربه والذي ملأ عشر صفحات (ص٦١ — ٧٠) لا محصل له ، وهو غير وارد : لأن للتشيع مفهوماً اصطلاحياً لا يتحقق منه شيء في صاحب العقد ولا يشارك الشيعة في شيء من عقائدهم ولا تبرئهم من بعض الصحابة وكل ما في الأمر أنه يحب آل البيت ويشيد بذكرهم ومناقبهم الصحيحة وهذا يشاركه فيه كل مسلم والغريب أن المؤلف نفسه بعد أن يسود هذه الصفحات العشر يشعر بما قدمنا فيختم فصله بهذه الجملة : « ولعل تشيع ابن عبد ربه من النوع المعروف (بالتشيع الحسن) » .

وكذلك الامر في فصل « نزعته المغربية ص ٧٢ — ٧٥ » فكان من الخير أن يطويه برمته إذ لا نزعة مغربية عند صاحب العقد كما قرر المؤلف نفسه .

ويلحق بما تقدم فصل (نظرة كولى الى العرب ص ٧٧ — ٨٠) الذي حشر فيه المؤلف شبه شواهد لا تدل على شيء أبداً نقلها ابن عبد ربه وتكاد تكون في كل كتاب أدب وخاصة قصة الفقهاء الموالى فإن روايتها لا تدل على شيء في نفس ابن عبد ربه . والمؤلف نفسه يعترف بأنه لا يستطيع أن يجزم لأن صاحب العقد ناقل راو ليس إلا . فلم هذا التطويل اذن ؟

وهناك عدا هذه الفصول التي يجب حذفها تطويلات اخر نذكر منها مثالين : الاول : أن حاشيته على كلمة الصاحب « هذه بضاعتنا ردت الينا » من التكلف الذي لا داعي له إلا حب الاطالة فليس من فائدة لقارئ في رجوعه الى سورة يوسف . والثاني انه أعاد رواية واحدة لابن خلكان مرتين في عشرة أسطر ص (١٢٥) .

١٠ — كنا نحب للمؤلف أن يعرض كتابه على استاذ بصير يصلح له لغته ، وإليك نماذج من غلطات الكتاب :

ص	الخطأ	الصواب
١	الشهير	المشهور
١٦٣،١٥،١٤٤،٢	بالاخص	خصوصاً
١	بالأخيرة	بالأخير
»	قدميتها	قدمها (لالزوم للنسبة وإن كانت غير خطأ)
»	أثرت على	أثرت في
٢،٢٣،٥٠	كما وأن	كما أن
٣	كلاهما قد استقيا	كلاهما قد استقى
»	لاسيما وقد	وقد (لاسيما لا يجوز أن تأتي بعدها الواو)
٤	لاسيما ونحن	ونحن
٤	وبالتالي لا نعلم	ولا نعلم
١٠،١١	عائلة	أسرة
١١،٢٠	عاصر	أدرك

ص	الخطأ	الصواب	ص	خطأ	صواب
١٥	وقتاً لا بأس به	وقتاً كافياً أو صالحاً	٨٨	بني هاشم	بني العباس
«	المرجع عندنا نعم	المرجع عندنا انه كذ يشربها (لا يقع الحرف خبراً)	٩٥	أمتع لك	أمتع بك
			١١٤	فهل لاي من هاتيه	فهل لاحدى هاتين
٣٦	دور	لعلها درر	١٢٤	وما أنا	وها أناذا
٤٣	يخطأه	يخطئه	«	وهاأمامي صفحة	وها هي ذي أمامي صفحة
٤٦	وغيرها	وغيرهما			
٥٠	امتاز عن	تفرد (أوفاق على)	١٣٦	يحيطها	يحيط بها
٥١	عدا عما	عدا ما	١٤٣	(إنه) ذاتقس	ذو نفس الخ.

وقد تجتمع الخمس من هذه الغلطات في بعض صفحة وتكون اثنتان في السطر الواحد ...

١١— فنتمنى أن يعاد طبع الكتاب وأن يزيدنا المؤلف بياناً عن ميزات الطبعات المختلفة للعقد كما اننا نلفت نظره الى ان صاحب العقد كثيراً ما يقول وفي كتاب للهند ثم ينقل نصوصاً هي في كليلة ودمنة التي بايدي الناس اليوم. انظر على سبيل المثال (٣٧:١) ، (٣١:٢) ، (٣:٢٤) الخ [١] وهي مسألة جديرة بالدرس والبحث.

١٢— عرضت أكثر ملاحظاتي لان الموضوع هام والكتاب نفيس مفيد والجهود المبذولة في تأليفه كبيرة مع اني كنت أود لو تريث في طبعه وتروى أكثر وأنا أرجو للكتاب الرواج وللمؤلف الفاضل اطراد النجاح وأن يتدارك هذه العيوب في طبعة ثانية إن شاء الله.

سعيد الافغاني



(١) العقد الفريد: المطبعة الازهرية ، الطبعة الثانية سنة ١٣٤٦ هـ.

الفهرس الابجدي العام للمجلد الخامس عشر

صفحة

صفحة

﴿ حرف الحاء ﴾

﴿ حرف الخاء ﴾

﴿ حرف الدال ﴾

﴿ حرف الراء ﴾

﴿ حرف السين ﴾

﴿ حرف الصاد ﴾

﴿ حرف الطاء ﴾

﴿ حرف العين ﴾

صفحة

حرف القاف

حرف الكاف

حرف اللام

حرف الميم

صفحة

